

أحباب النساء

في أحوالهن وأهلهن والاسلام

تأليف

دكتور / محمد بدوي محمد

النشر

مستقر الطبع والنشر

مكتبة الآداب وطبعها بالجامعة سنة ١٩٦٧

٤٢ ميلاد الأوبرا - تب، ٩٠٨٦٨

المطبعة الشهيرة جيتي

٦ مكة الشارقة بالجامعة الجديدة

Bibliotheca Alexandrina



0155823

أحباب النساء

في أجساھلینہ والارسلام

تالیف

دكتور / محمد بدر محمد

القسم الأول

النشر

مستقر المطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعها بالجاميز ٩١٩٣٧٧
٢٤ ميلان الأوبرا - دب ٩٥٠٨٦٨
الطبعة المنوعة جيبية
٦ مكتبة التاج بالعلمية الجديدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مكانة المرأة في القديم والحديث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وعلى آله .

وبعد :

كان للمرأة في الجاهلية مكانة مرموقة ، ومنزلة عالية لا تدانى ، والدليل على هذا ما توارثناه من شعر الشعراء ونثر الأدباء الذى ، يتغنى بالمرأة ولا يفتأ عن ذكرها والإشادة بها في غدوه ورواحه ، وبمساه ومصبجه ، وذكرها يصاحبه حيثما حل وأينما ذهب ، وزاه حتى فى أشد ويلات الحرب ، ومنازلة الأعداء يذكرها ولا ينساها :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل منى ويبض الهند تقطر من دى
فوددت تقييل الرماح لأنها لمعت كـبارق ثغرك المتبسّم

وبما يدل على عظم منزلتها أنها رقت حتى تسنمت عرش المملكة ، فقد دوى التاريخ أن كثيرات منهن وصلن إلى الملك والرئاسة ومنهن (زنوبيا) ملكة (تدمر) التى كانت تنادى بـ (جان دارك) الصحراء ، والتى يقول فيها المستشرق « وادنسكون » أنها من أصل عربى من بنى السعيد ، وقد خضعت لها القبائل ، وضرب بها المثل فى العزة والكبرياء ؛ ففيل أعز من « الزباء » .

ونقرأ فى القرآن الكريم سيرة « بلقيس » العظيمة وما كان لها من التجربة وحكمة الرأي والمنزلة الديموقراطية فى قومها إذ كانت تستشيرهم فى كل معضلة وتأخذ رأيهم فى كل أمر (أفتونى فى أمرى ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون) (١)

إننا نقرأ هذه الآيات فنزداد إكباراً وإجلالاً وتقديراً للمرأة وما وصلت إليه من مركز مرموق لدرجة أنها كانت تستشار في الرأي ، ويرجع إليها إذا حذب القوم أمر ؛ فقد روى أن عمرة ابنة عامر الطرب كانت تقوم بالنيابة عن أبيها في أمور الفتاوى ، وكانت تقرر العصا إذا رأته سها ، وفي هذا يقول قائلهم :

لدى الحكم قبل اليوم ما تقرر العصا

وما علم الإنسان إلا ليعلم^(١)

وإن المرأة منذ فجر التاريخ حتى اليوم قد برهنت على ذكاء عظيم ، ودقة إحساس تستثير الإعجاب ، ولقد ظهرت - كما أسلفنا - في ميادين النشاط الفكري شاعرة فياضة بالوحى الإلهى ، ونائرة قديرة على إيقاظ أنبل عواطفنا الإنسانية ، واستطاعت أن تكون رئيسة وحاكمة وقائدة جيوش وسياسية محنكة ... كل شيء قد برزت فيه وسادت فيه الرجل ، وفاقتة أحياناً وتركت للناس فيه أحداثاً باقية وذكرأ خالد^(٢) . ويروى التاريخ أن النساء قد اشتركن فعلاً في حومة الوضى بمزيمة نادرة وشجاعة فائقة في بعض الفزوات ، كغزوة أحد ، بل كن يلقين بفلذات أكبادهن في المعركة ، وخير شاهد على هذا الخنساء ؛ فقد ضمت بأولادها الأربعة في سبيل نصرة الإسلام .

وإذا لم تشترك النساء بالأعمال الفعلية في الحرب فقد كن يقمن بالأعمال الهامة للمحاربين ، فيقدمن للمحاربين الماء والراد والسلاح ، ويمجندن من أنفسهن عبوراً للجيش فيمرقبن المؤخرة والجوانب لئلا يباغتهم العدو ، ومن أهم أعمالهن تضميد الجراح ، فمن الطبيبات بالوراثة ، والأوامى اللاتى يعالجن المرضى ، ويرفعن الروح المعنوية في القتال بما يؤدين من خدمات جليلة وتضحيات نبيلة - ويرجع سر مهارة المرأة العربية في الطب إلى تنقلهن مع

(١) الأغاني ج ٤ ص ١٢٩

(٢) تحت المصباح الأختصر : ص ٦٥ توفيق الحكيم (مكتبة الآداب)

الرجال في الحروب ، وبين المتخاصمين ، وعنايتهم يشنون الأطفال ؛ الأمر الذي جعلهم يعرفون الحالات المرضية ، وفقههم في طبيعة الظواهر والتنبيهات التي تصيب الإنسان ، وعلى العموم فإن جميع الأفعال والأعمال الخاصة بحياة السلم ورفاه الإنسانية كانت حينئذ من المهدى وفي جذور التاريخ الإنساني من أعمال الحقل النسائي (١) .

كما سبق يتضح دور المرأة في الحياة الاجتماعية ومدى ما كان لها من الحقوق فلقد صورتها الشعراء في صورة كريمة تليق بمكانتها ، وكانت أول شيء يبدأون به قصائدهم ، وبراعة استهلال يزينون بها أدبهم وشعرهم . ومن الذين تغنوا بالمرأة (طرفة بن العبد) فلقد قدمها على أنها مناصرة للرجل (٢) ، وتحدث إليها الشعراء في إكبار وإجلال وتقدير ، يسبقون عليها حلل النبل والفضل ، ويصفون عليها سمات الذكاء والتجربة . وكان لها حقوق ، وعليها واجبات ؛ ومن أهم حقوقها على الرجل أن يحممها ويمنع عنها الضيم ويشمرها بأنها تعيش في حمى حقيقي فتجد فيه كفايتها وترى فيه ملجأها وحماها الحصين ، ولم يكن الرجل ليحمي أهله فقط ؛ فالبيت عند العربي يتسع حتى يشمل القبيلة ، ومن هنا ، افتخر الشعراء بأنهم يشركون جاراتهم في طعامهم وما يذبحون أو يأكلون ، يقول حاتم :

وإني لأخزي أن ترى لي بطنة وجارات يتي طاويات ونحف

فهو يشرك جاراته في زاده ، ويعطين من الحقوق ما يعطيها أهله ، وهو يحميهم ضد المغيرين ، كما يدفع عنهم الجوع والمسغبة ، وكانت هذه الحماية تتضاعف إذا انقطع عنها المعين أو لم يكن لها بعل :

(١) د/ علي الهاشمي ، المرأة في الشعر الجاهلي : ص ٧٥ .

(٢) يراجع ديوان طرفة : ص ١٤ .

وما تشككني جادة غير أنني إذا غلب عني بعلمها لا أذورها
 سيلفها خيرى ويرجع بعلمها إليها ولم يقصد على ستورها^(١)
 كما يذم طرفه ويمتنع من النظر إلى النساء الأجنبية عنه وبخاصة
 الجارات :

وأغض طرفي إن بدت لي جادة حتى يورى جادتي مثواها
 وأما واجبات المرأة ؛ فلم يسكن العرب يرمقون نساءهم وفتياتهم بالأعمال
 والواجبات كما يفعل غيرهم من الشعوب الأخرى كالليونان والفرس ،
 وكانت تختلف حالة المرأة باختلاف الأسرة التي تعيش فيها ، فنساء الأسرة
 الراقية قل أن يقمن بالأعمال المنزلية وغيرها ، وكن يعتمدن على الإماء
 والخدم والحشم ، أما في الطبقات الوسطى والدنيا فكان يقمن بأنفسهن
 بالأعمال المنزلية . وفي جميع الأسر (عالية ومتوسطة ودنيا) كانت أعمال
 البيت كلها مسئولة مسئولية كاملة من المرأة .

ولما جاء الإسلام الخفيف ارتقى بالمرأة وبلغ بها أوج السكال ، ورفع
 من شأنها حتى تسمنت ذروة العلا ، ونظم حقوق المرأة وواجباتها وجعل لها
 دستوراً تلزم به ولا تحيد عنه ، ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال
 عليهن درجة والله عزيز حكيم^(٢) ، والدرجة هذه هي ما عطاها القرآن الكريم
 بقوله : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما
 أنفقوا من أموالهم »^(٣) .

ووصى الرسول ﷺ بالمرأة خيراً وكرر التوصية بها في غير حديث ،

(١) شعراء النصرانية ص ١٣٠ .

(٢) سورة البقرة : ٢٢٤ .

(٣) سورة النساء : ٢٤ .

وقرر الإسلام لها نصيباً مفروضاً : « وللنساء نصيب مما ترك الوالدون والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً » (١)

وإذا قارنا بين المرأة العربية وأختها في الأمم الأخرى رأينا البون شامعاً بينهما ؛ ففي ظلال التنظيم اليهودية التي قامت على ما يقتضيه نظام الأمة الحربية من خضوع المرأة للرجل والرغبة في النسل ، نرى المرأة تسمى وتباع ، وتودت ، والآباء أن يؤجروا أبنائهم لموعد ، وأن يبيعوا بناتهم القاصرات بيع الرقيق وأن يقتلوهن (٢) .

وبعض الأدیان ترى أن المرأة هابطة المسكنة ، وأنها خلقت للرجل ، ففي رسالة (بولس) إلى أهل (كودنثوس) : « أريد أن تعملوا أن رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، (٣) » .

وقد أثار المجتتمعون في مجمع (ماكون ٨١ م) « قضية ما إذا كان للمرأة نفس ، وهل تعدّ من البشر ، وبعد جدال طويل كان الجواب : أن لها نفساً وأنها بشر ، ولكنه كان بأكثرية قليلة وإن كانت الفسكرة الغالبة عليهم أن المرأة عالية من الروح الناجية ما عدا السيدة مريم (٤) » .

وفي الفرس لم تنل المرأة حظاً عالياً من الاحترام والتقدير ، فللقاسي أن يتصرف في المرأة كما يتصرف في السلعة ، بل لقد كان له أن يحكم عليها بالموت (٥) ، وكان قدماء الفرس يبيعون للرجل أن يتزوج بنته ، وأخته

(١) سورة النساء الآية :

(٢) حضارة العرب ٤٩٢ جستاف لويون

(٣) الإصحاح ١١ : ٢ (٤) المرأة في الشعر الجاهل .

(٥) تحرير المرأة : ٢٣ صبح الأعشى ١٣ - ٢٩٥ وقصة الحضارة الفارسية ٦١

الشقيقة أو غير الشقيقة - كما كانوا يبيعون الأمهات ويعتبرون ولادة الذكور ثروة ثمينة ، ويرون ولادة البنات حاراً يجلب اللوعة والحسرة ^(١) .

أما المرأة في نظر اليونان والرومان ، فقد انحطت مكانتها حتى بلغت الحضيض الأوهـد ، والدرك الأسفل ، فكانوا يعدونها للبتة ، وعليها أن تغطى رأسها في ذلة وخشوع للرجل ، وكان زوجها يملك مالها ويقيم عليها وصياً قبل موته ، وأبوها هو الذى يختار لها زوجها ، فإذا تزوجت ملكها زوجها ^(٢) .

ومن هنا كان الفرق شاسعاً بين المرأتين ، وكبيراً ما بين المتزلتين ، فبينما رأينا المرأة العربية تبلع السماكين ^(٣) وتمز الخافقين ^(٤) ، إذا بأختها في الأهم الأخرى ترسف في أغلال القيود ، وتهوى إلى قاع الحضيض : هذى مشرقة وذاك مغرب شتان بين مشرق ومغرب

ولو أطلقنا ألقابنا العنان في هذه المقارنة بينهما لصاقت علينا صفحات هذا الكتاب ، ولما اتسع المقام لإلقاء الأضواء على هذا الموضوع ، ولطغت مقبضة الكتاب على جوهر البحث ... فلندع هذا إلى مقامه ، ولكل مقام مقال .

والله ولى التوفيق .

د . محمد بدر معبدى

(١) انظر المرأة في الشعر الجاهلى ٥٧ .

(٢) انظر حضارة العرب لجوستاف : ٤٩٤ .

(٣) السماكين : نهمان معروفان .

(٤) الخافقان : الشرق والغرب .

تمهيد

لا أدري لماذا غفل علماء الأدب والشعر عن تسجيل تراث المرأة الأدبي والشعري ، وقصّر المفكرون والمؤرخون في إبرازه إلى حيز الوجود ، انسد فراغاً كبيراً في المكتبة الأدبية ، ونضيف إلى التراث الإنساني تراثاً ثليداً وطريقاً ما أخرجنا إليهما في حياتنا الأدبية والشعرية .

إن في المرأة قدرات خلقة وحيوية ربما لا نجد لها في الرجل ؛ فقد منحها قدرة الله الرقة والمذوبة ، وقد اقتضت وظيفة الأمومة أن تكون المرأة أكثر حساسية من الرجل وأسرع استجابة للتأثرات العاطفية والوجدانية . وكثيراً ما تهتدي عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدي إليها بعقله وتفكيره المجرد ، فالمرأة هي الواحة الخضراء في صحراء الحياة ، والمرأة قصيدة الدهر ، وأغرودة الأبد .

والناظر فيما تراه إلينا من الأدب على بعد الزمن سواء في الجاهلية أو الإسلام وما بعدهما ، يرى عقداً نظيماً يتلأل في جبين الأدب والشعر دلالات وروعة وبهاء ، فالمرأة هي الوحي الذي يلقي في خلد الأدياء والشعراء صوراً منتزعة من رؤى الأحلام ، يبعثها في أفئدتهم نسجاً حللها وفكراً رائماً يتهادى على أسلالت اللسان برداً وسلاماً ، يطمئن إليه القلب ويرتاح الخاطر . فالمرأة خمرة الأدب ، ورحيقه يرشغه الأديب والشاعر نشوة غامرة ، وما يلتبث منها إلا وفي فيه لحن سماوي يتذوقه القارئ . وقلّ أن نجد أدباً رفيعاً مجرداً عن ذكرها . ففيه من روحها حلاوة ، ومن دلالتها نفمة ، ومن صهرها رقة ،

ومن فتور عيولها هينمة . ولقد سجل التاريخ لبعض النساء العرييات ما تر
ونبوذاً في فترات زمنية متقطعة في العقل والعلم والأدب ، خلقت كتب التاريخ
والأدب بالأدبيات والشاعرات العرييات في شتى العصور والأزمنة .

ولم تقتصر العناية بالأدب على الرجال وحدهم فقد نبغ من النساء عدد كبير
ضربن بسهم وافر في الأدب ، وكن أمثلة تحتذى في قوة البيان وفصاحة
اللسان ، وقوة المعارضة . ومنهن - على سبيل المثال لا الحصر - الناقدة
الأدبية أم جندب امرأة إمام الشعراء « امرئ القيس بن حجر » فلقد كانت
أدبية نابهة يفد إليها الشعراء والأدباء ، فتدلى برأيها السيد ونظرها الناقد
في شعرهم . ومنهن الحنساء فقد كانت خطيبة مؤثرة ، وشاعرة بارعة ولعل سبب
قوتها الأدبية وتأثيرها يرجع إلى أنها مرت بتجارب وبأحداث كثيرة مختلفة ،
انعكس أثرها على نفسها فصقل أسلوبها وأضاف إليه الحسنة والتجربة
والصلابة وشدة الأسر .

وقد كانت السيدة عائشة زوج الرسول ﷺ من أفصح أهل زمانها
وأحفظهم للحديث ، فقد روت عن الرسول الكريم ألفين ومائتين وعشرة
من الأحاديث ، وروى عنها الرواة من الرجال والنساء ، ولها خطاب حماسية
رائعة ، كما كانت من أفقه الناس وأكثرهم حفظاً للشعر والأدب حتى قيل إنه
لم يوجد أحد أعلم منها في فقه أو شعر .

أما السيدة عائشة بنت عثمان بن عفان ، فقد رثت والدها بعد استشهاد
رثاء بليغاً مؤثراً ، يدل على تضلعها في الأدب وتمسكها ناصية الفصاحة والبلاغة .

ولا ينسى الأدب عائشة بنت طلحة ، فقد كانت مضرب الأمثال في النبوغ
في الأدب والحكمة وعلم النجوم ، وقد دخلت على هشام ذات يوم ، فقال لها :
ما أوفدك ؟ فقالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق ، فقال لها :

سأعرفك حَقِّكَ ، ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال: إن عائشة عندي فاسمروا
معى الليلة ، فحضرُوا فما تذكروا شيئاً في أخبار العرب وأشهادهم وأيامهم
إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أنار إلا سمعته ، فقال لها هشام :
أما الأول فلا أنكره ، وأما النجوم فمن أين لك ؟ قالت : أخذتها عن عاتق
عائشة ، فأمر لها بمائة ألف درهم وردّها إلى المدينة .

ومن شهيرات النساء في العصر الأموي : أم البنين زوجة الخليفة الوليد
ابن عبد الملك ، وقد عرفت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر ،
وكانت لها مكانة ملحوظة في قصر الخليفة الوليد يستشيرها في مهام الدولة .

ومن شهيرات النساء في العصر العباسي والأندلسي : أم جعفر زبيدة بنت
جعفر المنصور العباسي ، وعليه بنت المهدي ، والعباسة ، ولادة بنت المستكفي ،
وحدة بنت زياد ، ولبنى كاتبة المستنصر ، والأدبية الأشبيلية الفذة مريم بنت
أبي يعقوب التي اتخذت من بيتها عملاً لمدرسة الأدب ، وندوة للأدباء حتى
ضدت موضع الانقراض وموضع التجلة والاحترام ، وتسابق الأمراء والوزراء
إلى تكريمها ونيل مودتها .

أما الشعر أحدث عنه ولا حرج ... فقد كان للنساء ميدان واسع في الشعر
البليغ الرصين الذي يختلف عن شعر الرجال في إتياعه عن الغزل المكشوف
والجور والخر والهجاء ، والمدح الرخيص . وكان وحيه عندهن ما عرفت به المرأة
من عاطفة صادقة . وأدوع ذلك الشعر في الرثاء ، فلئن وإن كن قد شاركن
في جميع أبواب الشعر إلا أن باب الرثاء قد حلقن فيه لأنه هو المجال الفسيح
الذي تنطلق فيه عواطف المرأة لأنه نوع من النواح والبكاء ، وسلاح المرأة
دائماً دموعها ، وهي أول شيء تلجأ إليه إذا حز بها أمر أو ألم بها مكروه ...

هذا ما أردت أن أقدمه لكتاتى د أدب النساء فى الجاهلية والإسلام ،
وقد قسمت هذا القسم إلى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : ويشمل الأدب فى العصر الجاهلى .

والثانى : يشمل الأدب فى عصر صدر الإسلام وبنى أمية .

والثالث : ويشمل الأدب المولود أو المحدث . ويدخل تحته الأدب
فى العصر العباسى والأندلسى . ونأمل أن نكون وفقنا فيما هدفنا إليه من
إظهار د أدب المرأة ، إلى حيز الوجود حتى ينفع الناس بهذا الكثر الثمين ،
والدر الدفين الذى اختفى عن الأنظار حقبة من الزمان .

وما ترفيقى إلا بالله عليه تركزت وإليه أنيب ٢

د . محمد بدر معبدى

أولاً - في العصر الجاهلي

لقد عرفت المرأة في شتى عصور الأدب العربي أدبية وناقدة وشاعرة ، وأن هناك درواً غوالى للمرأة العربية ما زالت ولا تزال وستظل ترمي بها مدى الأيام والشهور والحقب والدهور ، يضاف إلى ذلك ما اختبأ في بطون الكتب المجهولة ، وما خفي في خزان الكتب التي عفا عليها الزمن وامتدت إليها يد التدمير والإفناء في عهد محاكم التفتيش - وأيام التتر والمغول وغيرهما من الحقب المختلفة .

لقد كانت المرأة العربية وما تكاد تسمى في أرياد شعاب القول ، وجم أعواده وكشف فنونه وشؤونه ، ودرك مواطن القوة والضعف فيه فأغتمت حومة البيان قائلة ناقدة : فإن نقدت فنقد القاتل الحكيم ، أو قالت فقول البليغ العليم ، وأشد ما أخذت على لحول الرجال مواطن الزلل فيما ابتدعوه وتأنقوا فيه ، ولها من دقة النقد ولطف المأخذ ، ونفاذ الإدراك ، وحسن البديهة ما جعل لها في شتات مواقفها الرأي القاطع والسكلمة الفاصلة^(١) .

وقد رووا أن امرأ القيس نازع علقمة بن عبدة الفحل الشعر فقال علقمة : « ليلك الضليل »^(٢) : قد ساكت بيني وبينك امرأتك ، أم جندب ، قال امرؤ القيس : قد رضيت - فقالت لها : « قولا شعراً على روى واحد وقافية واحدة صفا فيه الخيل ، فقال امرؤ القيس :

خيلى ممرأى على أم جندب لنقض لبانات الفؤاد المعطب

(١) المرأة العربية ج ١ : دار الكتب المصرية ١٧٢ الطبعة الأولى ١٩٢١ .

(٢) المراد بالملك الضليل : امرؤ القيس .

وقال علقمة :

ذهبت من الهجران في غير مذهب . ولم يك خفأ كل هذا التجنب
والشدداها فغلّبت علقمة ، فقال لها زوجها : بأى شيء غلبتيه ؟
قالت لأنك قلت :

فللسوط الهوب وللحاق درة وللزجر منه وقع أهوج متعب^(١)
لمحدث فرسك بسوطك ومريته بساقك وزجرك وأتعبته بجهدك وقال
علقمة :

فولى على آثادهن بحاصب وعيبة شؤبوب من الشد ملهب
فأدر كهن ثانياً من عنانه يمر كسر الرايح المتحلب
فلم يضرب فرسه بسوط ولم يمره ولم يتعبه بزجر ، وفي رواية أن
امراً القيس قال لأم جندب : بم فضلكه هلى قالت : فرس ابن عبدة أجود من
فرسك زجرت وضربت وحركت ساقيك ، وابن عبدة لم يصنع ما فعلت ،
فغضب من قولها وطلقها وخلف عليها علقمة^(٢) .

وكذلك فعلت الخنساء في نقدها لشعر حسان كما سنشير إليه في ترجمتها.
وقد نبغ من النساء في العصر الجاهلي نساء كثيرات ، وكن أمثلة تقتدى في قوة
البيان وفصاحة اللسان ، وشاركت المرأة الجاهلية في جميع ضروب القول
فاذا تحدثت فإنما تنثر الدر من فيها ، حكيمة - وناقدة وخطيبة وموجمة
فلسكت شفاف الأفئدة واستولت على الوجدان والقلوب .

ولقد وصف النبي ﷺ رجالاً هم أمس الناس به ، وأطولهم زمناً له

(١) ذكر صاحب كتاب المرأة العربية (مذهب) بدلا من (متعب)
وكلاهما بمعنى واحد .

(٢) كتاب الأغانى ج ٧ : ١٧١ : ١٢٢ (سالى) .

وأمازم قلباً منه ، وهم ملوك القول وفرسان البيان فلم يبلغ واحد من وصفه ما بلغته امرأة أعرابية مثل (أم معبد) .

ولئن اهتم رجال العرب بقوم منهم ، ضربوا الأمثال ونشروا مطارف الحكمة وكشفوا قناع الحقيقة فإن لسانهم أن يعتزّن بفريق منهم لا يقل عن أولئك شأناً ، ومن هؤلاء أمانة بنت الحارث ، وهند بنت الحس الأيادية ، والشعواء السكاهنة ، والبراء ، والمجفاه بنت علقمة ، والجمانة بنت قيس ، وعصام السكندية ، وحذام بنت الريان وغيرهن من الأدبيات والناثرات ، ولو تتبعنا ذكرهن وأخبارهن لضاق بهن هذا الكتيب الضئيل ، والامل إن شاء الله أن نورد لأدبيات وخطيبات العرب وناقداًهن سقراً خاصاً مطولاً لو امتدت بنا الأيام ، وصدقت الأحلام .

الفصل الأول

الوصايا

أسلوب الوصية

أسلوب الوصية في هذه الحقبة كان يمتنع إلى السجع تارة وإلى الازدواج تارة أخرى، وكان السجع محبباً إليهم، وذلك للاستعانة به على التأثير في الوصية، ولما يقتضيه المقام من تأنيق في القول، وربما كان شيوخ السجع راجعاً إلى ما فيه من نغم متعادل، ورنه موسيقية، فهو أعمق أثراً في النفس، وأحلى إيقاعاً في الأذن، والأذن أحد طريقين تنفذ فيها الوصية إلى نفوس سامعيها، وربما لأن السجع أشد مقاومة لعوامل الضياع من غيره لقربه من الشعر: فهو أسهل حفظاً، وأكثر بالذهن لصوقاً. ومع السجع نرى تقصير الجمل والفصل بينها، حتى تبدو كأنها فقرات أو جمل منفصلة، وربما كان للارتجال أثره في هذا، على أن تقصير الجمل في المواضع والوصية شيء تستدعيه طبيعة الموضوع حتى يتاح للبوصى أن يتنفس وأن يستريح وأن يتدبر ما يقول، وحتى يتيسر للسامع أن يتابعه ويفهم عنه؛ إذ لو جاءت الجمل مفرطة الطول لضاق بها السامع وتغلف عنها وجهه في تتبعها ولو جاءت بالغة القصر لوقفت به لجة دون ما يتوقع كأنما تعثر فسكره وزل^(١).

كما نلاحظ الترادف أحياناً والتنوع في العبارات المعنى الواحد. وفي الترادف والتنوع تغيير يبعث على نشاط السامع ولذته. ونلاحظ قلة تعمقهم في استخراج

(١) الخطابة لأرسطو. وراجع الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ص ٧٧

المانى البعيدة ، وفي استقصاء الأفكار العويصة التى تحتاج كد خاطر ودرس
علم ، وأنهن كثيراً ما يستخدمن السكتات القرية النال ، وميلن فى الوصالا
إلى سوق الحكم والأمثلة الحكيمة ليكون ذلك أدعى إلى قبول الوصية
والإسراع إلى تطبيقها .

* * *

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها أم إياس (١) :

أى بنية ، إنك قد رقت الجو الذى منه خرجت ، وخلت العش الذى فيه
درجت ، إلى وكر لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكك عليك رقيباً
ومليكا ، فكونى له أمة يكن لك عبداً وشيكاً (٢) ، يا بنية احملى عنى عشر خصال
تسكن لك ذخراً وذكرأ : الصعبة بالقناعة ، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة ،
والتهد لموقع عينه ، والتغنى لموضع أنفه ، فلا تقع عينه فيك على قببح ، ولا يشم
منك إلا أطيب ريح ، والسكحل أحسن الحسن ، والماء أطيب الطيب المفقود ،
والتهد لوقت طعامه ، والهدو عنه عند منامه ، فإن حرارة المجموع ملية ،
وتنفيس النوم منفضة ، والاحتفاظ ببيتته وماله ، والإرداء على نفسه وحشمه
وعبياله ، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والإرداء على العيال والحشم جميل
حسن التدبير ، ولا تفشى له سرأ ، ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره ،

(١) من ربات النصيحة والبلاغة والرأى والعقل خطب الحارث بن عمرو ملك
كندة ابنتها أم إياس بنت حوف بن عجل الشيباني فزوجها أبوها منه فقالت أمامة
لابنتها «إن الوصية لو تركت لفضل أدب ، تركت لذلك منك ، ولكنتا تذكرة للناقل
ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استفتت عن الزوج لعنى أبوها ، وشدة حاجتهما
إلها كنحراً أخفى الناس عنه ، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال ، (يجمع
الأمثال ٢ : ١٤٢ والقصد الفريد ٣ : ٢٢٣ .

(٢) وشيكاً : أى سريع الإجابة .

(٢ - أدب النساء)

لم تأمنى خدومه ، وإن عصبت أمره أو غرت صدره ، ثم اتقى من ذلك الفرح إن كان تريحاً ، والا ككتاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التفصيل والثانية من التذكير ، وكوفي أشد ما تكونين له إعظماً ، يكن أشد ما يكون لك إكراماً ، وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة ، وأعلى أنك لن تصل إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هواك فيها أحببت وكرهت ، والله يخبر لك . . .

والوصية المذكورة دستور للمرأة العاقلة التي تعرص على سعادة عشا ويبتها ، وقد صدرت من أم مجرّبة بحكمة جلبت الدهر أشطره ، وحرصت كل الحرص ، على أن تحقق السعادة - والرفاه لابنتها ، وتبين لها ما يجب عليها نحو زوجها لتسوم السعادة الزوجية ، وتحقق السكينة والطمأنينة .

وقد جاءت الوصية مسجوعة إذ هو الطابع الذي كان يسود ذلك العصر . والوصية قلائد من الذهب جاءت عفو الخاطر ودون تكلف أو صناعة متعددة ، كما زخرت الوصية بالتشبيهات والاستعارات بما أكسب النص روعة وجمالاً ، كما عادت أم لباس إلى التنوع في الأسلوب والخطاب فرة تجد النداء في قولها : أي بنية ، يتبعه الخبر المؤكد في قولها : « إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت » ، وأحياناً تجد الأمر في قولها : « فكوني له أمة يكن لك عبداً » ، واحفظي له خصالاً عشرأ يكن لك ذخراً ، كما تجد الخبر يتبعه النهي المؤكد في نحو قولها : « فلا تفشي له سراً ، ولا تمسح له أمراً » ، كما تجد أسلوب الشرط في قولها : « فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى خدومه ، وما أحسن أسلوب التحذير في قولها : « ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً ، والا ككتاب إن كان فرحاً » وهذا التنوع في الأسلوب والخطاب له أثره في التشويق واستثارة العواطف ولفت الأذهان ، وتلبيه المخاطب إلى ما يقال ، وما يجب أن يأخذ أو يعمل به .

وحبذا لو حفظت فتياتنا هذه الوصية وطبقنها في بيوتهن دون حساسية ،
إذا رأينا السعد يرفرف على بيوتهن ، فهو نص حكيم من أم أفنتها تجارب السنين
أدانت أن تضمن لابلتها الهناء في بيتها الجديد ، فوضح لها الحياة التي لم تألفها
من قبل ، ثم تنتقل إلى سرد ما يتوجب على المرأة نحو زوجها فتوصيها به بشر
خصال جامعة ، خلاصتها : القناعة ، والطاعة ، والاعتناء بالمظاهر اعتناء لا يخرج
عن الحد المطلوب المعتدل ، والنظافة ، وحسن التدبير ، والمحافظة على السر ،
ومراعاة حالة الزوج النفسية توفيراً لكرامتها واجتلاباً لهناؤها^(١) .

ووصفت أعرابية كرم الأخلاق عند أمها فقالت :

« يا أمه ، من نشر ثوب الثناء فقد أدى واجب الجراء ، وفي كتمان الشكر
جود لما وجب من الحق ، ودخول في كفر النعم » فقالت لها أمها :

« أي بنية : أحببت الثناء وقت الجراء ولم تدهي للذم موضعاً ، إنى وجدت
من عقل لم يجعل بلم ولا ثناء إلا بعد اختبار ، فقالت : يا أمه : ما مدحت حتى
اختبرت ، ولا وصفت حتى عرفت . قال الزوج : « ما وفيتك حقك ،
ولا شكرتك إلا بفضلك ، ولا أتيت إلا بطيب حسبك وكرم نسبك ،
والله أسأل أن يمنعي بما وهب منك » .

وهذا حديث امرأة عاتلة تعترف بفضل بعلها ، وتشيد بخلاله الكريمة ،
بعد أن هجمت عوده ، وسبرت غوره ، كما يدل حديثها على الاحترام المتبادل
بينها وبين زوجها ، وما أخرى فتياتنا أن يسلكن هذا السبيل ، وييمن
وجوهن شطر هذا الدرب ، حتى يسعد الزوجان ، ويمدحا عيشة راضية .

(١) انظر الأدب الجاهل من تأليف الاشتراك مع الدكتور عبد الله العشري ،
مطبعة المنار - الرياض ١٩٧٨ .

وما أدوع نصيحة الجمانة^(١) بنت قيس بن زهير لجدها الربيع :
كان قيس بن زهير العنبي قد اشترى من مكة درعاً حسنة ، قسمي ذات
الفضول وورد بها إلى قومه فراكها همه الربيع بن زياد ، وكان سيد بني زياد
فأخذها منه غصباً ، فقالت الجمانة بنت قيس لأبيها دعني أناظر جدى فإن صلح
الأمر بينسكا ، وإلا كنت من وراء رأيك ، فأذن لها فأنت الربيع فقالت :

« إذا كان قيس أبى ، فإنك يا ربيع جدى ، وما يجب له من حق الأبوة
على إلا كالذى يجب عليك من حق البنوة لى ، والرأى الصحيح تبعه العناية ،
ويتجلى عن محضه النصيحة ، إنك قد ظلمت قيساً يأخذ درعه ، وأجد مكافأته
إنك سوء عزمه ، والمعاض متتصر ، والبادئ أظلم ، وليس قيس عن يخوف
بالوعيد ، ولا يردعه التهديد ، فلا تركن إلى منابذته ، فالحرم فى متادكته ،
والحرب متلفة للعباد ، كذابة بالطارف والتلاد^(٢) والسلم أرخى للبال وأبقى
لأنفس الرجال ، وبحق أقول لقد صدعت بحكم ، وما يدفع قولى إلا غير
ذى فهم ، ثم أشدنت تقول :

أبى لا يرى أن يترك الدر درعه وجدى يرى أن يأخذ الدر من أبى
فرأى أبى رأى البخیل بماله وشيمة جدى شيمة الخائف الأبى

وقد لاحظنا فى أسلوب الجمانة الأدبية أنها حساسة فى استخدام الالفاظ
فاستهلت حديثها باستعطاف جدها ، واستندار حنانها ، فأثارت فى جدها حنان
الأب الكبير الحانى على بليه وبناته ، وقد كانت مقدمة وصيتها براعة استهلال
وصلت بها إلى أعلى سويدها قلبه ، وكانت منطقية بارعة فى مناظرتها لجدها

(١) الجمانة بنت قيس بن زهير العنبي ، شاعرة من شواعر العرب فضلا عن
أنها خطيبة لماحة وأديبة من أدبيات العرب راجع بلاغات النساء لطيفور ص ١٢٩ .

(٢) الطارف والتلاد : الحديث والقديم .

لخبرته من الظلم وعاقبته ، وأن المعادض منتصر والبادئ أعظم ، وتستطيع أن تقول إن مناظرتها كانت عبادة عن مقدمات ونتائج ، أذهمت بها جدها ودفعته إلى الرضوخ إلى منطق الحق والإصاغة إلى صوت العدل .

ونلاحظ أن متاعبها ومناظرتها خلعت من السجع خروجاً على القاعدة المسالوفة والعادة المتبعة في ذلك العصر ، وذلك أن الموقف موقوف مناظرة ومجادلة ، والوقت ليس وقت صنعة أو زخرفة ، وإنما يحتاج إلى إبراز حقائق ناصعة تقنع الخصم بالبرهان والدليل .

الفصل الثاني

الوصف

الوصف عند العرب أكبر الفنون والأعراض التي تكلموا فيها ، وتفننوا في الإبداع في وصف كل ما يقع تحت حسهم ، ويراها ناظرهم ، وتزخر به يديهم ، فوصفوا من الحيوان الإبل واقتنوا في ذلك بما لم تفقه فيه أمة في وصف نفيس لديها ، ومن أبلغ وصاف الإبل : طرفة بن العبد .

كما وصفوا الخيل في ضروب خلقها وأحوال سيرها . ومن أشهرهم في ذلك امرؤ القيس وأبو ذؤاد الإهادي ، ووصفوا منه أيضاً كواسر السباع ، وأوابد الوحوش ، وجوارح الطيور وصوادحها ، وغشاش الأرض وهوامها ، ووصفوا من النبات ضرابه وشيائه ، ومن السماء نجومها وكواكبها ، ومخائبا ، وبروقها وأنوارها وأمطارها ، ومن الأرض سهلها وجبلها ، ومرابضها ومصايفها ، وخاصة الأطلال والديار واليمن ، وتعفية الرياح والأمطار لآثارها ، وشبهوها أحيانا برقم الكتب وصحائف الرهبان ، وبالوشم على ظاهر اليد ، وبالثوب الخلق أو المرقم ونحو ذلك .

ووصفوا أحوال الإنسان من ظمن وإقامة ، وقتال ونزال ومبارزة . كما وصفوا جماء المرأة وأخلاقها وطباعها ، والبادعات في هذا الفن : عصام الكندي وهند وجمعة بننا الخس ، ونلاحظ أن وصفهم مستمد من البيئة وتشبهياتهم مستوحاة مما يقع تحت ناظرهم ، وتدركه حواسهم لجاء وصفاً طبعياً غير متكلف ، وكما يملح الخاطر بلا مبالغة ولا إفراق ، ويتجلى ذلك كما سيأتي في قول (عصام) نصف جمال أم لباس درأيت جبهة كالمرآة الصقيلة يزينها شمر حالك

كأذئاب الخيل المضفورة ، فالتشبيهات مأخوذة من يشتهن وما يشاهده في الصحراء من خيل ، وليل ، وديار وأطلال ، وغناء الخاتم ، ولمع البروق ، وهبوب النسيم إلى غير ذلك ، وقد جاء وصفهن فطرياً — كما قلنا — غالباً من المبالغة المتعمدة التي تخرجه عن حد المألوف والمعقول ، فلم يعتمدن في وصفهن جناساً ، ولم يتكلفن طباقاً ، ولم يقصدن إلى تورية ، وما وقع ذلك من المحسنات ، على قلته ؛ فإنما كان عفواً لا نتمد فيه ، خلا بعضاً من يجمع الكهان^(١).

كما نلاحظ أن أسلوب الوصف عند المرأة ينجح إلى التفصيل ، والتحليل الذي قد يخفى على العين العابرة ، والإسهاب في ذكر أوصاف الموصوف كلها سمحت لها الفرصة ، وفي هذا الميدان استطاعت المرأة أن تظهر من الإبداع في الوصف والقدرة على تفصيل أوصاف الموصوف بما قصر عنه باع الأديب الوصف في بعض الأحيان ؛ وحينما نقرأ وصف المرأة ندرك مدى دقة وصفها ؛ وبلوغها أوج البلاغة التي يمجز عن بلوغها الواصفون ؛ ويقف دون إدراكها المترسلون .

* * *

وصف عصام الكندية لأم إياد بنت عوف بن علف الشيباني :

لما بلغ الحارث بن عمرو ملك كندة جمال أم إياد بنت عوف بن علفم الشيباني وكألفا وقوة عقلها ، أراد أن يتزوجها ففدا امرأته من كندة يقال لها عصام ذات عقل ولسان وأدب وبيان وقال لها : اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف ، ففقت حتى انتهت إلى أمها أمامة بنت الحارث فأعلمتها ما قدمت له فأرسلت أمامة إلى ابنتها وقالت : أي بنية ، هذه خالتك أتت إليك لتتظر بعض شأنك ، فلا تهرئي عنها شيئاً أرادت أن تتظر إليه ، من وجهه وخلق ، وناطقها فيما استطلقنك فيه . فدخلت عصام عليها فنظرت إلى ما لم تر عينها مثله قط ، بهجة وحسناً وجمالاً ، فإذا هي أكل الناس عقلاً وأفصحهم لساناً . فخرجت من عندها

وفى تقول : « ترك الخداع من كشف القناع ، فذهبت مثلاً » ، ثم أقبلت إلى الحارث فقال لها : « ما وراءك يا عصام ؟ » فذهبت مثلاً ، قالت : « صرح الخنض عن الزبد » فذهبت مثلاً ، قال : أخبريني ، قالت : أخبرك حقاً وصدقاً : رأيت جبهة كالمرآة الصقيلة ، يزينها شعر حالك ، كأذناب الخيل المضفورة ، إن أرسلته خلفه السلاسل ، وإن مشطته قلت عناقيد كرم سجلها الواهبل^(١) وحاجبين كأنهما منخلتا بقلم ، أو سودا بحمم^(٢) قد تقوسا على عين الطيبة العنبرة^(٣) التي لم يرعها فائض ، ولم يذرها قصورة^(٤) ، بينهما أنف كسد السيف لاصقول ، لم ينفذ به قصر^(٥) ولم يعض به طول ، حفت به وجنتان كالأرجوان^(٦) . في بياض محض كالجلان^(٧) مشق فيهم كالحاتم : لذيد المبتسم ، فيه ثانياً غير ذوات أمشر^(٨) ، وأسنان تبدو كالدرر ، وريق كالنسر له نشر الروض بالسحر يتقلب فيه لسان ذو فصاحة وبيان ، يحركه عقل وافر وجواب حاضر ، تلتقي دونه شفتان حراوان كالورد ، يحملان ريقاً كالشهد ، تحت ذلك هلق كإبريق الفضة ، ركب في صدر كصد تمثال دمية^(٩) ، يتصل بها عضدان مبتلثان لحماً ، مكتنزان شحمًا ، وذراعان ليس فيهما عظم يحس ، ولا عرق يحس ، ركبت فيهما كفان ، دقيق قصبها ، تعقد إن شئت منهما الأنامل وتركب الفصوص في حفر المفاصل ، وقد تربع في صدرها حقن ، كأنهما رمانتان ، يخرقان عليها ثيابها ، تحت ذلك بطن طوى كطى القباطى^(١٠) المدججة ،

-
- (١) المطر الشديد الضخم المعطر .
 (٢) الحم : الفم .
 (٣) العنبرة : الرقيقة البشرة الناصعة البياض .
 (٤) قصد الرماة من الصيادين .
 (٥) لم ينفذ : لم يتأخر .
 (٦) الأرجوان : صبيغ أحمر .
 (٧) الجلان : اللؤلؤ .
 (٨) التحريز التي فيها .
 (٩) الدمية : الصورة المرخرفة .
 (١٠) القباطى : ثياب كتان يبيض كانت تعمل في مصر .

كس، عكناً^(١) كالفرطيس المدرجة^(٢) تحيط تلك المُكَنَّ بِسُرَّة كُنْهَنْ^(٣) العاج المجلو ، خلف ذلك ظهر كالجدول ينتهى إلى خصر لولاحمة الله لا بتر ، تحتها كفل^(٤) يقعد بها إذا نهضت وينهضها إذا قعدت كأنه دحص^(٥) رمل لبَّده سقوط العُل ، يحمله غُذَان لَسَاوَان^(٦) كأنهما نصيد الجمان ، تحتهما ساقان خدلتان كالبردى^(٧) وشيثاً بشعر أسود كأنه حلق الزرد ، يحمل ذلك قدسان كنو اللسان ، فتبارك الله مع صغرهما كيف تطبقان حل ما فوقهما ، فأما سوى ذلك فتركت أن أصفه غير أنه أحسن ما وصف واصف بنظم أو نثر . فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها فزوجه إياها^(٨) .

فأبدع وصف عصام الكتبية ، وما أرق حديثها ، وما أجل التشبيهات الجمانية التي تتخلل القطعة ، إن القطعة كما وصفتها عصام أبلغ ما وصفه واصف بنظم أو نثر ، وقد حشدت عصام في هذه الخطبة حشداً من المباريات القوية الزائنة ، والألفاظ الضخمة والتشبيهات والاستعارات ، والتشثيل والصور ، لجاءت قطعة أدبية رائعة محكمة الصلابة والأسر .

وقد جرت كعادة عصرها في استخدام صنعة السجع في غير ما تكلف ولا تطبع أو تصنع ، وأضفت على العروس أبهى آيات الصفات الخلقية والخلقية التي ينشد بها الرجل في المرأة ، من جبهة كالمرآة الصقيلة وشعر حالك كالليل ، وحاجب كأنما خط بقلم ، وعين كعين الظبية الرقيقة ، وأنف كحد

-
- (١) العكن جمع عكنة (كفرصة) وهى ما افطوى وثني من لحم البطن سمنا .
 (٢) المدرجة : المطوية . (٣) المدخن : قارورة الدهن .
 (٤) كفل : عجر . (٥) الدحص : السكتيب من الرمل المجتمع .
 (٦) اللغاء : الضخمة الفخزين . (٧) خدلة : ضخمة ، البردى : ورق البردى .
 (٨) اللقد الفريد ٣-٢٣٥ ، وجميع الأمثال ٣-١٤٣ ، وجمهرة الأمثال ٢-٢٧ ، نقلا عن كتاب جمهرة خطب العرب ج ١ : ١٤٤ .

السيف الصقيل ، ووجنات حمراء كالأدجوان ، وفم كالخاتم ، لذيذ الأبتسام ،
وأسنان كالقؤل وريق كالخمر ، نشره بملأ الدنيا مسكاً وطرّاً إلى غير ذلك من
الصفات الخلقية ، وقد بلغت الغاية ، وأدبت على النهاية ، في وصفها خصر المرأة
بالضمور والنحول لدرجة أنه من شدة فعوله وضموره يكاد يبتتر ، وما أجل
الاستعانة في قولها : يخرقان عليمًا ثيابها ، وقولها : تحته كفل يقعدها إذا نهضت ،
وينمضها إذا قعدت ، ثم تعجب في آخر القطعة كيف تطبق قدماهما اللتان كحدو
اللسان حمل هذا الشيء الثقيل وتسير به ، وأظن أن هذه الصفات التي ساقتها
عصام ، ربما تنطبق على ما كان مألوفاً ومرغوباً من المرأة في عصرها (من
غلظ الفخذين وامتلاء الذراعين والساقين ، وبطن مليء كسه محكناً وثقني من
لحم البطن سمناً) .

أما في عصرنا الحالي فالمرغوب في الفتاة ، القدر الرشيق الذي يشبه القباطي
للمدجة والقرطيس المدجة (كما حكى ذلك عصام) والبطن الذي تبرأ من
الشحم ، وليس الذي يتنى من لحم البطن سمناً وقد وفقت عصام إلى حد ما في
وصف أوصاف المرأة الجسدية والخلقية ، أما الصفات الخلقية والنفسية
فأوجزتها في كلمات معدودات : لسان ذو فصاحة ، وبيان يحرك عقل وافر
وجواب حاضر ، وكأنما تشير إلى قول الشاعر :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده

فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وهذا اكتملت الصورة الخلقية والخلقية التي رسمتها عصام لأم إياس
(العروس) لجاء لوحة فنية رائعة تغلب العقول وتأسر القلوب ، فلا غرو إذا
سارع الحارث بن عمرو إلى أيها غطابها فزوجه إياها (١) .

(١) في مجمع الأمثال ومجمره الأمثال أن الذي تزوج أم إياس هو الحارث
ابن عمرو والحارث هذا هو جد امرئ القيس وذكر صاحب العقد الفريد أن الذي

ومن حديث وصف المرأة أيضاً :

أن جمعة^(١) وهند^(٢) ابنتا الخس وامتا سوق عكاظ فاجتمعا بين يدي القلنس الكتاني . فقال لها : إني سائلكما لأعم أيكما أبسط لساناً وأظهر بياناً وأحسن للصفة إتقاناً ، قالتا سلنا عما بدا لك ، فستجد عندنا عقولا زكية وألسنة قوية وصفة جليلة ، قال القلنس : أي ذكور الخيل أحب إليك يا جمعة ؟

تزوجها هو عمرو بن حجر . وأما ولدت له الحارث بن عمرو جد امرئ القيس غير أننا نلاحظ أنه قال في مقدمة هذا الوصف : « ثم أقبلت عصام إلى الحارث فقال لها : ما وراءك يا عصام ؟ » فيفهم منه أن الذي تزوجها هو الحارث بن عمرو . يرجع إلى كتاب المقد الفريد ٨٣/٦ ، كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن .

(١) جمعة شاعرة من شواهر العرب وأديبة من أدبيات العصر الجاهل وكانت تتردد دائماً على سوق عكاظ فتعرض شعرها وتثرها على القلنس الكتاني .

(٢) كما كانت اختها هند شاعرة وخطيبة ذات فصاحة وبلاغة وحكمة ، (راجع أعلام النساء ج ١ : ٢٠٦ وج ٢ : ٢٣١ ، طبعة بيروت مؤسسة الرسالة) . وقد اختلف العلماء والمؤرخون في نسب هند وجمعة ، فن قائل أنهما أختان وإنهما ابنتا الخس الإيادي ، ومن قائل أن هنداً هي ابنة الخس ، وأما جمعة فابنة حابس ، وهما جميعاً حكيمتان يعزرب بهما المثل في جلال الحكمة وحسن البيان وفيهما يقول الجاحظ : من أهل الدهاء ومن أهل اللسن واللقن ، والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الخس وهي الزرقاء وجمعة بنت حابس والقلنس سيد من سادات كتانة ، وحكيم من حكيمتها وكاهن من كهان العرب ، وبما عرف عنه أنه كان ينسأ الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها وفيه تقول هند بنت الخس :

إذا الله جازى منعا بوقاته لجازاك هني يا قلنس بالكرم

المرأة العربية ج ١ : ١٧٨ .

افطر البيان والتبين — نسخة خطية من ٨٨ — ٩٠

قالت أحب المنسوب جذه^(١) ، الأسيل خده^(٢) ، السريع شده^(٣) ، الطويل مدّه^(٤) ، الشديد هدّه^(٥) ، الجليل قده .

ثم قالت هند : هذا فرس خليق إن طلب لم يلحق ، وإن جردى لم يسبق ، وإن بوهى لم يفتق ، وغيره أحب إلى منه . قال القلس . فقولى :
قالت : أحب الوثيق الخلق^(٦) الكريم العرق ، الكثير السبق ، الشديد الدناق^(٧) ، يمر من البرق .
قال القلس :

فأى لإنات الخيل أحب إليك يا جمعة ؟ قالت : أحب كل حيية الفؤاد ، سيوح جواد ، سلسة القياد ، شديدة الاعتدال ، فى الدفع والاشتداد ، ذات هباب وثماد^(٨) .

قال القلس كيف تسمعين يا هند ؟
قالت : هذه فرس صاحبها خليق ألا يفوته أمر ، ولا يهوله ذعر ، إذا شاء كرت ، وإذا هاب فر ، وغيرها أحب إلى منها .
قال : فقولى : قالت : أحب الشديد أسرها^(٩) ، البعيد صبرها ، القليل

(١) أى الذى ينتهى نسبه إلى جواد كريم وكانت العرب تمتاز بأنساب خيلها وتحفظها كما تحفظ أنساب الرجال ، راجع أنساب الخيل .

(٢) الأسيل خده أى أنه أطويل مسترسل .

(٣) شده : أى سريع هدده . (٤) مدّه ، المد : بسط الجسم وارتفاعه .

(٥) هدّه : هذا الفرس يضرب الأرض بحوافره .

(٦) الكريم العرق ، المحكم التكوين .

(٧) الدناق : ذلق كل شيء سدة ومعناؤه .

(٨) الهباب : النشاط فى الأرض ، والتماد الحفر فى الأرض .

(٩) الأسر : قوة الجسم وإحكام الخلق .

فترها ، الجليل فندرها ، السريع مرها ، المخوف كرها .

قال القلمس : كلنا كما محنة . فأى ذكور الخيل أبغض إليك يا جمعة ؟
قالت : أبغض كل بليد ، وأرم الوريد^(١) ذا ركال شديد^(٢) لا ينجليك
هادباً ، ولا تظفر به طالباً ، ولا يترك شاهداً ولا غائباً .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : هذا فرس إمساك بلاء ، وحلاجه عناء ، وركوبه شقاء ، وغيره
أبغض إلىّ منه .

قال فقولي : قالت هند : أبغض السريع البُهر^(٣) ، البطيء المحصر^(٤)
السكيت الطفر^(٥) . قال القلمس : كلنا كما محنة .

فأى النساء أحب إليك يا جمعة : قالت أحب الغريرة^(٦) العذراء الرعوبة
المعطاء^(٧) المسكورة ، اللفاء^(٨) ، ذات الجبال والبهاء ، والستر والحياء ، البضة^(٩)
الرخصة كأنه فضة بيضاء .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت جارية ، هى حاجة الفقى ، ونهية الرضا ، وغيرها أحب
إلىّ منها ، قال فقولي : قالت أحب كل مشبعة الخلخال ، ذات شكل ودلال ،
وظرف وبهاء وجمال .

(١) الوريد : عرق فى العنق . (٢) الركال : ضربك الفرس برجلك ليعدو .

(٣) البهر : انقطاع النفس . (٤) المحصر : الانحباس عن السير .

(٥) السكيت الطفر : الفرس العاشر من خيل السباق وهو آخر خيل الحلبة .

(٦) الغريرة : العلية القلب .

(٧) الرعوبة : الفتاة البيضاء الحلوة المعطاء : طويلة العنق .

(٨) المسكورة : الممتلئة الساقين فى يياض ولين ، واللفاء السمينة الطويلة .

(٩) البضة الرخصة ، المرأة البينة الممتلئة .

قال القلمس : كلنا كما عسنة فأى النساء أبغض إليك يا جمرة ؟

قالت أبغض كل سلفح بذية ^(١) جاهلة غبية حريصة دنية ، خير كريمة ولاسرية ^(٢) ، ولا ستيرة ولا حبية ، قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : وصفت امرأة صاحبها خليق ألا تصلح له حال ، ولا ينعم له بال ولا ينتمر له مال وغيرها أبغض إلى منها ، قال فقولى : قالت أبغض للمتجرفة الشوها ^(٣) ، المتفوخة الكبداء ^(٤) المنفص الوقصاء ^(٥) الحبيشة الولاء ^(٦) التى إن ولدت لم تنجب ، وإن زجرت لم تعتب ، وإن تركت طلفت تصخب .

قال القلمس : كلنا كما عسنة ، فأى الرجال أحب إليك يا جمعة ؟

قالت : الحر النجيب ، السرى القريب ، السمع الحسيب ، الفطن الأريب ، المنصع الخطيب ، الشجاع المهيّب .

قال القلمس : كيف تسمعين يا هند ؟

قالت : وصفت رجلاً شجاعاً ، سيّداً جواداً ينهمز إلى الخير صاحداً ، ويسرك غائباً وشاهداً ، وغيره أحب إلى منه ، قال فقولى : قالت أحب الرجب النداع ، الطويل الباع ، السخى النفّاع ، المنيع الدفاع ، الدسمسى ^(٧) النطاع ، البطال الشجاع الذى يصل بالففاع ^(٨) ويهين فى الحد المتاع .

(١) السلفح من النساء : الشديدة الصخب السيئة الخلق .

(٢) السرية : الشريفة . (٣) المتجرفة : العديدة الهوال .

(٤) المتفوخة : المتسمة البطن ، والكبداء المرأة الغضيمة الوسط البطيئة المشى .

(٥) المنفص : المرأة البذيئة القليلة الحياء ، القليلة الجسم الكثيرة الحركة ، والكثيرة الاختيال والمنفص والوقصاء : القصيرة العنق .

(٦) الحبيشة : القليلة اللحم ، الدقيقة الساق والولاء : الخفيفة الوركين .

(٧) الدسمسى : الكريم .

(٨) الففاع : المرتفع من الأرض وإتمامها حتى يرى الساترون ناره فيسرعون إليه لكرمه ونجده .

قال : كلنا كما محسنة ، فأى الرجال أبغض إليك يا جمعة ؟ قالت :
أبغض السائلة اللثيم ، البغيض الزنيم^(١) الأشوه الدميم ، الظاهر المعصوم^(٢)
الضعيف الحيزوم^(٣) قال : كيف تسمعين يا هند ؟ قالت : ذكرت رجلاً
خطره صغير ، وخطبه يسير ؛ وهيبه كثير وأنت ببغضه جدير ؛ وغيره
أبغض إلى منه .

قال فقولى : قالت : أبغض الضعيف النخاع^(٤) ، القصير الباع ، الاحق
المضباع الذى لا يكرم ولا يطاع ، فقال أحسنتما ، وأجملتما فبارك الله فيكما ،
ووصلهما وجابهما^(٥) .

وقد وفقت الأدبتيان أيما توفيق في وصف الخيل ذكورها وإناثها ،
وأحبها وأبغضها وصفاً يقصر عنه الخيال معددين مآثر ومكادرم الخيل
في غدوانه وروحاته وكيف أنه في سبقه كأنه يمر من البرق في خفة ونشاط
وحدة ومضاء ، كما حذوا من الفرس المتبدل ، المتنفخ الوديد الذى لا يسير
إلا بعد ركل شديد ، كما أنه لا يسر صاحباً ، ولا ينجى هارباً ، ولا يترك
شاهداً ولا غائباً .

كما وفقت الأدبتيان في وصف النساء أحسن وأبغضهن إلى القلوب في لوحة
فنية بأدعة ترسم صورة ناطقة لما يجب أن تكون عليه المرأة خلقاً وخلقاً ،

(١) والزنيم : الشرير .

(٢) المعصوم : بقايا الخنصاب .

(٣) الحيزوم : الصدر أو وسطه وضعفه كناية عن الحق وضيق الأفق .

(٤) تريد بالضعيف النخاع : الماخر الذى لا يستطيع حولا ولا طولاً .

(٥) راجع كتاب بلاغات النساء ص ٥٨ : ٦٢ ، بغداد ١٣٦١ هـ ، وانظر

المرأة العربية ج ١ ص ١٧٨ : ١٨١ الطبعة الأولى ١٩٢١ م .

وقد قدمت لنا في باب وصف النساء طائفة موفقة فينانة في رياض الأدب ،
وشجرة مودقة في حدائق البيان ، وجدولا فياضاً في بحار الحكمة الهادفة في
طرار جمل متين وأسلوب خلاب رصين يعجز عن وصفه المنثشون ويقصر
عن بلوغه الكتّاب والمفسلون .

* * *

وفي رواية أخرى ذكر صاحب كتاب الأمل أن رجلاً أتى هند بنت
النخس^(١) الإيادية يستشيرها في امرأة يتزوجها ، فقالت :

أنظر رمكاه جسيمة^(٢) أو بيضاء وسيمة في بيت جده أو بيت جد ، أو بيت
عم ، قال : ما تركت من النساء شيئاً ؟ قالت بلى : د شر النساء تركت : السويداء
المراض^(٣) والخيراء المحياض^(٤) ، الكثيرة المظاظ^(٥) وقيل لها أى النساء أسوأ ؟
قالت : د التي تقعد بالفتاه وتملأ الإفاء وتمدق^(٦) ما في السقاء ، قيل : فأى النساء
أفضل ؟ قالت : التي إذا مشت أغضرت^(٧) وإذا لقطت صرصرت^(٨) متوركة
جارية في بطنها جارية تلبسها جارية ، قيل : فأى الغلبان أفضل ؟ قالت : الأسوق
الأعنى^(٩) الذي إن شبَّ كأنه أحرق ، قيل فأى الغلبان أفضل ؟^(١٠) قالت :
الأريقص القصير العضد^(١١) العظيم الحاوية^(١٢) ، الأغير الغشاء الذي يطابع
أمه ، ويعصى عنه ،^(١٣) .

(١) أنظر ترجمتها السابقة ص ٢٠ .

(٢) الرمكاه : السمراء والرمكاه كحمر لون الرماد .

(٣) المراض التي تمرض كثيراً . (٤) الكثيرة الحيض .

(٥) المظاظ ، منازعتها ومشاداتها زوجها . (٦) تمدق : تخرج .

(٧) أغضرت : أثارته الفجار في مشيتها . (٨) صرصرت : أحدثت صوتها .

(٩) الأسوق : الطويل الساق ، والأعنى الطويل العنق . (١٠) الأنفل : الأرذل .

(١١) الأريقص : تصغير أوقص وهو من يدنو رأسه من صدره .

(١٢) الحاوية : المعلقة . (١٣) أنظر الأمل ج ٢ : ٢٦٠ .

وقيل لها أى الرجال أحب إليك ؟ قالت : الممل النجيب ، السمع الحسيب
الندب الأريب^(١) السيد المهيّب ، قيل لها : فهل بقي من الرجال أفضل من هذا ؟
قالت بلى الأدهب المحفوف^(٢) الألف الصياف ، المقيّد المتلاف ، الذى يخيف
ولا يخاف ، قيل لها فأى الرجال أبغض إليك ؟ قالت الأورده الشوم^(٣) الوكل
الشوم ، الضعيف المحزوم اللثيم اللوم ، قيل لها فهل بقي أحد شر من هذا ؟
قالت نعم : الأحقق النزاع الضائع المضاع الذى لا يهاب ولا يطاع . قالوا :
فأى النساء أحب إليك ؟ قالت : البيضاء المعطرة ، كأنها ليلة قمره . قيل :
فأى النساء أبغض إليك ؟ قالت : المنفص القصيرة التى إن استنطقها سكنت
وإن سكنت عنها نطقت^(٤) .

وقال لها أبوها يوماً : أى المال خير ؟ قالت : النخل الراسحات فى الوحل ،
المطعمات فى الخلل . قال وأى شيء ؟ قالت : الضأن قوية لا وباء بها ، تنتجها
رجالاً^(٥) ، وتحلبها حلالاً^(٦) ، وتجره لها جملالاً^(٧) ، ولا أرى مثلاً مالا^(٨) ،
قال : فالإبل مالك تؤخرينها ؟ قالت : هى أذكاء الرجال ، وإدقاء النساء ،
ومهور النساء ، قال : فأى الرجال خير ؟ قالت :

خسير الرجال المرهقون كما خير تلاح البلاد أو طوها^(٩)

(١) الندب : الخفيف فى الحاجة والطريف والتجيب .

(٢) المراد به رقة الخاصرة ونحوها . (٣) الأورده : الأحقق .

(٤) ذيل الأمالى : ١٢٠ .

(٥) الرغال : جمع رخل كحمل وكتف وهو الإثنى من أولاد الضأن .

(٦) حلال يقال حالته الناقة وهى أن تحلب أول النهار ووسطه وآخره ، والاسم
حلال ككتاب .

(٧) الجفال : الكثير من الصوف .

(٨) المرحق : الرجل الذى ينشأ الناس .

قال أيهم ؟ قالت : الذى يُسأل ولا يُسأل ، ويضيف ولا يضاف ، ويصلح ولا يصلح ، قال : فأى الرجال شر ؟ قالت : «التعطيط والتعطيط»^(١) الذى معه سُرَيْط^(٢) الذى يقول أدركونى من عبد بنى فلان فأنى قاتله أو قاتلى ، قال فأى النساء خير ؟ قالت التى فى بطنها غلام ، ويجلس على وركها غلام ، ويمشى وراءها غلام ، قال فأى الجمال خير ؟ قالت السَّبَّحَل الرَّبَّحِل^(٣) الراحلة الفحل قال : أرأيتك الجذع^(٤) ، قالت : لا يضرب ، ولا يدع ، قال : أرأيتك الثنى^(٥) قالت : يضرب وضرايه أقر^(٦) قال أرأيتك السَّدَس^(٧) قالت : ذاك العرس^(٨) .

(راجع ذيل الأمالى)

وقيل لها أى الغنيل أحب إليك ؟ قالت : ذو اللبنة الصنيع^(٩) ، السليط^(١٠) التلبيح^(١١) الأيد الصليح^(١٢) الملعب السريع . فقيس لها أى الغيوث أحب إليك ؟ قالت ذو الهيدب المنبثق^(١٣) ، الأضخم المؤتلق^(١٤) ، الصنخب المنبثق^(١٥) ، وقيل لها ما مائة من المعز ؟ قالت : مويل يشف الفقر من ورائه ،

(١) التعطيط الذى لا حية له ، والتعطيط كثير الكلام يأتى بالخطأ والصواب من غير معرفة .

(٢) سُرَيْط : تصغير سوط . (٣) السَّبَّحَل الرَّبَّحِل : البعير الضخم .

(٤) أرأيتك : أخبرنى ، الجذع : البعير يكون فى السنة الخامسة .

(٥) الثنى : البعير يكون فى السادسة وألنى ثنيته . (٦) والصواب أقر : أى بعل .

(٧) السَّدَس : البعير إذا كان فى الثامنة . (٨) العرس : الأسد .

(٩) قول ماع الفرس يجمع إذا جرى ، وصنعة الفرس : حسن القيام عليه

والصليح ذلك الفرس . (١٠) السليط : الشديد ، والتلبيح : الطويل العنق .

(١١) الأيد : القوى ، والصليح وصف من ضلع كفضض ضلالة ، وهى القوة

وشدة الأضلاع . (١٢) الهيدب : السمح المتدل والمنبثق : الخلى بالمطر .

(١٣) المؤتلق من ألتلق البرق إذا لمح .

(١٤) والصنخب : شدة الصوت ، المنبثق : المنفجر

مال الضميف ، وحرفة العاجر ، قيل فما مائة من الضأن ؟ قالت : وقرية لا حى بها ، قيل : فما مائة من الإبل ؟ قالت : بخ^(١) جمال ومال ، ومنى الرجال ، قيل : فما مائة من النخيل ؟ قالت : طخى من كانت له ولا يوجد ، قيل فما مائة من الخمر ؟ قالت طازبة الليل^(٢) لا لبن فيحلب ولا صرف فيجز ، إن ربط (عيرها) أحلى^(٣) وإن ترك ولي ، وقيل لها : من أعظم الناس في دينك ؟ قالت : من كانت لى إليه ساجدة . (شرح العيون ١٨٤)

وقالت هند : « أخبت القذاب ذئب النضال^(٤) وأخبت الأفاوى أفعى الجذب ، وأسرع الظباء ظباء الحلب^(٥) وأشد الرجال الأجهف^(٦) ، وأجمل النساء الفخمة الأسيلة^(٧) ، وأقبح النساء الجهممة القفيرة^(٨) » وآكل الدواب

(١) بخ كقد أى عظم الأمر ، ويحتم فقال وحدها وتكرر بخ بخ الأول منون مكسور ، والثاني مسكن ، ويقال فى الأفراد بخ ساكنة الحاء وبخ مكسورة وبخ منونة مضمومة ، ويقال بخ بخ مسكنين وبخ بخ منونين مكسورين وبخ بخ مكسورين مشددين منونين وهى تقال عند الرضا والإعجاب بالشئ .

(٢) يقال جهل طالب أى لا يروح على الحى من الغروب وهو الغيبة والذهاب وقولها (خى المجلس أى بما تحدثه من التهيق المزعج) .

(٣) الإدلاء : أى أخرج قضيبه ليبول ، العير : الحمار .

(٤) النضال : شهر له جمر يبق طويلا .

(٥) الحلب : نبت ، قال حمزة : العرب تسمى ضروبا من البهائم بضروب من المراعى تنسها إليها فيقولون : طلى الحلب وتيس الزبلة (نبات شديد الخضرة) وشيطان الحماطة (والحماطة كسحابة . شهر شبيه بالتين وهو أحب شهر إلى الحيات) .

(٦) العجف بالتحريك ذهاب السمن . (٧) الطويلة المسترسلة .

(٨) الجهممة مؤنث الجهم : الوجه الغليظ المجتمع السمع والقفرة : القلبة القفتر وهو الشعر .

الرَّغُوب^(١) وأطيب اللحم عوْذُه^(٢)، وأغظ المواطىء المحصى على الصفا،
وشر المال ما لا يذكر ولا يذكر^(٣) وخير المال سكة مأبورة^(٤) أو ميرة
مأمورة^(٥). (راجع بجمع الأمثال : ١٧٤)

وقد جاءت لغة هند، مسجوعة بحكمة الصنعة في السجع وهي تشبه أسلوب
الكاهنات إلى حد بعيد، ولعل هند تعلمت السجع في هذا المقام إذ رأته
ضرورياً يساعدها على تحقيق غرضها الملشود وهو إعجاب السامعين بها، لأن
السجع رنيناً موسيقياً، ووقفاً جميلاً مؤثراً في النفس، تجذب موسيقاه قلوب
السامعين، وتمتلك عواطفهم وتخدر وعيهم، وتحدثهم بما تزعم أنها حاملة به
ومحيطة بمعرفته إحاطة السوار بالمعصم، فيسمع الناس قولها ويدعون إلى
مصدقين بما يقول غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقهى معانيه.

كما نلاحظ أنها تميل إلى الغموض والغربة، ولعلها تعلمت في ذلك أيضاً
ليذهب الناس في كلامها مذاهب متشعبة، وطرائق مختلفة، وفي هذا ما يضيق
على مكاتبة الاجتماعية الاحترام والتقدير والإكبار والإجلال، وهذا ما يبر
المرأة ويرضى غرورها :

خدعوها بقولهم حسناء والفواني يفرهن الثناء
والنقد الذي يوجه إلى هند أنها ركزت على الماديات أكثر من المعنويات

(١) الرغوب : كل سرخمة . (٢) العوذ ما عاز بالحم من العظم .

(٣) ذكرى كرضى نا وزاد كوكا يركو . وذكرى تذكىة : سمين

(٤) المأبورة : المستصلحة من أبرت النخل إذا لقحته وأصلحته .

(٥) مأمورة : أى كثيرة الولد .

والرواية هنا (في معرض حديث هند وجمعة ابتقى الخس غير الرواية التي
أوردنا فيها مضى عن كتاب بلاغات النساء ، وأثبتناها إتماماً للقاعدة) .

وأهتمت بالمظهر دون الجوهر لأن المرأة بطبيعتها مواءمة بالزينة والمظهر الخلاب وتفرها الظواهر وإن ساء المخبر فالجواهر الزائفة الحسنة الشكل المنسجمة ؛ ففي وصفها للمرأة مثلاً ركزت على ما تتمتع به المرأة من محاسن جسمية ، وصفات أنثوية كأن تكون بيضاء أو سمراء ومن بيت مشهود له بالجد ، وأسوأ امرأة عندها هي السوداء المراض ، والخيراء المحياض الخ .

وكنا نتوقع أن تهتم بالمعنويات أكثر من هذا كأن تكون المرأة المختادة عنيفة واعية ، وعلى قدر كبير من الدراية والمعرفة كفاطمة بنت مر الحشمية ، والشفاء بنت عبد الله ابن عبد شمس القرشية العدوية وغيرهما ، ولكن يبدو أن طبيعة البيئة وطبيعة العصر كانت تقتضي ذلك ، فلم تكن هناك مدارس يتردد عليها الناس ليتعلموا ولم تكن ثمة حاجة تستدعي أن يتعلم النساء وأن تلتقف الفتيات لأن الحكم الغالب على الناس شيوع الأمية .

ومثل هذا يقال في وصفها للبال والجمال والخيال والذئاب والظباء ، فكلها أوصاف مستوحاة من البيئة العربية ، وهي وإن كانت باذعة إلا أنها لم تكن تبلغ دقة الوصافين الحضريين فضلاً عن الأدباء الذين عاشوا معهن في البيئة نفسها فإنهم حلّقوا في هذا الفن وجالوا في الوصف جولات فوصفوا الطبيعة الناطقة والطبيعة الصامتة ، والطبيعة الحية والمتحركة ، (١) .

* * *

وبما يجرى مجرى هذا الوصف قول ماوية امرأة حاتم :
أصابتنا سنة^(٢) اقشعرت^(٣) لها الأرض ، واضبر^(٤) أفق السماء ، وراحت الإبل حديباً^(٥) حديب^(٦) ، وضلت المراضع على أولادها فسا^(٧) تبض^(٨) .

(١) المرأة في الشعر : ١٦٤ . (٢) اقشعرت الأرض : أقحلت .

(٣) الحديب : جمع أحديب ، وهو ما دخل صدره وخرج ظهره ، وإنما تظهر الإبل كذلك إذا اشتد بها الجوع لا محال المراعى . والحديب : جمع حديار — بكسر الحاء — وهي الناقة الضامرة أو التي ذهب سنامها . (٤) تبض : تسيل .

ببطرة ، وحلفت ألسنة^(١) المال ، وأيقنا بالهلاك . فواثقه إنا لنى لبلة صئبر^(٢) بعيدة ما بين الطرفين ، إذ تضاعى^(٣) صيبتنا جوعاً ، عبد الله وعدى وسفانة . فقام حاتم إلى الصبيين ، وقت أنا إلى الصبية . وأقبل يملأنى بالحديث ؛ فعرفت ما يريد ، فتناومت ، فلما تم ورت^(٤) النجوم ، إذا شيء قد رفع كسر البيت^(٥) ثم عاد . فقال حاتم : من هذا ؟ قالت : جارتك فلانة ، أتيتك من عند صبية يتماوون عواء الذئاب ، فما وجدت معولاً إلا عليك يا أبا عدى . فقال : أحليلهم فقد أشبعك الله وإلام فأقبلت المرأة تحمل اثنتين ويمشى جنباتها أربعة ، كأنها نعامه حولها رمالها^(٦) . فقام حاتم إلى فرسه فوجأ^(٧) لبسته بمدينة غفر . ثم كسطه عن جلده ، ودفع المدينة إلى المرأة ، فقال لها : شأنك ! فاجتمعنا على اللحم المشوى نأكل . ثم جعل يمشى فى الحى يأتهم يبتأ يبتأ فيقول هبوا أيها القوم ، عليكم بالنار ، فاجتمعوا . والتفّع فى ناحية ينظر إلينا . فواثقه أن ذاق منه منزة^(٨) . وأنه لأحوج إليه منا . فأصبحنا وما على ظهر الأرض من الفرس إلا عظم وحافر . فألقأ حاتم يقول :

مهلاً نوار ألقى اللوم والمذلا ولا تقولى لشيء . فأت ما فصلا
ولا تقولى لمال كنت مهلكة مهلاً وإن كنت أعطى السهل والجبلا
برى البخيل سبيل المال واحدة إن الجواد يرى فى ماله سبلاً^(٩)

(١) التحليق : وجع يعيب الخلق وتلك كناية بديعة هن الفقر والمسغبة ، تقول : أن المال من إبل وخيل ومال انقطع صوته .

(٢) ليلة صئبر باردة شديدة البرج . (٣) تضاعوا : تصاحبوا .

(٤) تمورت : انحدت إلى المغرب .

(٥) الكسر : الشقة السفلى من الحياء .

(٦) الرمال — جمع رال — أولاد النعام . (٧) وجأ : قطع .

(٨) أن نافية بمعنى ما والمزعة القطعة من اللحم .

(٩) المقد الفريد ج ١ ص ١٠٨ والميهانى .

وأمرأة حاتم تصور لنا في هذه الباقية الثرية كرم هذه العائلة الحاتمية فقد ضربت المثل الأعلى في الجود والكرم (لأن الكرم وإن اشتهر به العربي إلا أنه في رأي كان كرمًا عذودًا بدليل أنه لم يشتهر به في الجزيرة العربية كلها إلا حاتم وعائلته) .

فلقد كانت غنية بنت عفيف أم حاتم الطائي من أمسى النساء وأقراهن للضيف وكانت لا تمسك شيئاً فتمسكه ، فلما رأى إخوتها إتلافها حجروا عليها ومنعوها ماله ، ومكنت دهرًا لا تنال شيئاً مما تمسكه ، حتى إذا ظن إخوتها أنها قد وجدت ألم الحاجة وادعوت أعطوها حرمة من إبلها لجامتها امرأة من هوازن تسألها ، فقالت لها دونك هذه الحرمة فغلبها فقد والله مسنى من ألم الجوع ما آليت معه ألا أمنع الدهر سائلا شيئاً ثم أنشدت :

لمعرى إني عضنى الجوع عضه فآليت ألا أمنع الدهر جائئاً
فقولاً لهذا اللأعنى اليوم اعفى فإن أنت لم تفعل فعض الأصابع
لماذا عسىم أن تقولوا لأختكم سوى عذلكم أو عذل من كان صانعا
وماذا ترون اليوم إلا طبيعة فكيف بتركى يا ابن أم الطبايعا

وكانت سفانة بنت ابنها حاتم بكبتها وأبها في الجود ، وكان أبوها يعطيها الحرمة من الإبل فتبها كلها ؛ فقال لها أبوها ، يا بنية : ه إن القويين إذا اجتمعوا في المال أتلفاه فإما أن أعطي وتمسكى ، وإما أن أمسك وتعطى ، فقالت : والله لا أمسك أبداً ، فقال : وأنا والله ما أمسك أبداً ، قالت : فلا تتجاوز فقامها ماله وتبايناً^(٢) .

(١) ذيل الأمالى ٢٣ وانظر المرأة العربية والمرأة في الشعر الجاهلى ٢٦٢ .

(٢) نفس المصدر السابق والصفحة .

ونأخذ من الآيات التي تمثل بها حاتم :

مهلا فواد أفلل اللوم والعذلا (الآيات)

أن المرأة العربية كانت حنينة بمال زوجها حريصة عليه وليس من الصواب أن يدعى الرجل أنها لامتة على الكرم وأنه خالفها . ليتخذ من ذلك ذريعة إلى تعظيم نفسه ، لأن هذا التخيل منقصة له ، إذا كان الشعراء صادقين في تصويرهم للوم النساء على الجود ، وربما كان هذا منهن حرصاً على مال الزوج وربما كان بخلاً ، وهذا لا ينبغي أن بعضن كرمات وإن كن قليلا .

ولعل السر في تفوق الرجال على النساء في الكرم أن الرجل أكثر اختلاطاً بالمجتمع من المرأة ، وأكثر تعادياً بالناس منها ، وتضطره الظروف في بعض الأحيان إلى السفر والترحال - بحكم عمله - وقد تهره بعض أباد يقوم بها نحوه بعض الناس لتكريمه ، وهذا لا بد أن يشكر هذه الأيادي بضرب أمثلة أكثر كرمأ وأريحية ، أما المرأة فهي قليلة الاحتكاك إذ هي متفرقة لبيتها الذي تود أن تدعه بكل ما أوتيت من ثروة وترى إنفاق شيء منها في الكرم يحدد بيتها ويفلس ميزانيتها ، كما عرفت المرأة بحسن التدبير ورعاية المال من قديم الزمان ، والرجل قد يغفل عن كل هذه الأمور أحياناً فلا يهتم إلا لإرضاء إخوانه والظهور أمامهم بمظهر حاتم الطائي .

ولما فارق رسول الله ﷺ مكة مهاجراً إلى المدينة ، وخرج معه صاحبه أبو بكر ورأبده عبيد الله بن أبي ربيعة . فمروا على خيمة أم معبد - وكانت امرأة برزعة جلدة تحسني بفتاوى السكبة ، ثم تسقى وتطعم - فسألوها لحماً وتراً ليشتروه منها ، فلم يصيروا عندها شيئاً من ذلك . وكان القوم من ملين مستئين^(١)

(١) مستئين : أى أصابهم القحط .

فَنظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى شَاةٍ فِي كَسْرِ الْحِمِيقَةِ ، فَقَالَ : مَا هَذَا يَا أُمَّ مَعْبُدٍ ؟
قَالَتْ : شَاةٌ خَلَفَهَا الْجَهْدُ عَنِ الْغَنَمِ . قَالَ : هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ ؟ قَالَتْ : هِيَ أَجْمَدُ
مِنْ ذَلِكَ . قَالَ : أَتَأْذِنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبُهَا . قَالَتْ : بَأْسَى وَأُمَى أَنْتَ نَعَمْ ، إِنْ رَأَيْتَ
بِهَا مِنْ حَلَبٍ فَاحْلِبِيهَا . فَعَدَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالشَّاةِ فَفَسَحَ ضَرْعَهَا وَنَمَسَى اللَّهُ وَدَعَا
لَهَا فِي شَاتَيْهَا . فَتَنَاجَسَتْ^(١) عَلَيْهِ وَدَرَّتْ وَاجْتَرَّتْ ، وَدَعَا بِإِنَاءٍ يَرْبُصُ^(٢)
الرَّهْطَ ، فَحَلَبَ فِيهِ نَجْجًا حَتَّى غَلِبَهُ السَّمَالُ^(٣) ، ثُمَّ سَقَاهَا حَتَّى رَوَيْتَ وَسَقَى
أَصْحَابَهُ حَتَّى رَوَوْا . ثُمَّ شَرِبَ آخِرَهُمْ . وَقَالَ : سَاقَى الْقَوْمِ آخِرَهُمْ ، فَشَرَبُوا
جَمِيعًا عَسَلًا^(٤) . بَعْدَ نَهْلٍ . ثُمَّ أَرَاخُوا^(٥) . ثُمَّ حَلَبَ فِيهِ ثَانِيًا عَوْدًا عَلَى بَدَمِ
حَتَّى مَلَأَ الْإِنَاءَ . ثُمَّ خَادَرَهُ عِنْدُهَا وَبَايَمَهَا وَارْتَعَلُوا عَنْهَا . فَقُلَّ مَا لَبِثَ حَتَّى جَاءَ
زَوْجُهَا أَبُو مَعْبُدٍ بِسُوقِ أَعْزَاءٍ حُسْبِيٍّ عَجَافًا^(٦) هِرَالًا^(٧) مَخْشَنٍ قَلِيلٍ^(٨)
وَلَا نَقْصًا^(٩) . بَيْنَ . فَلَمَّا رَأَى أَبُو مَعْبُدٍ اللَّبَنَ عَجِبَ وَقَالَ : مِنْ أَيْنَ هَذَا يَا أُمَّ مَعْبُدٍ ،
وَالشَّاةُ عَازِبَةٌ حَيْثَالٍ ، وَلَا حَلُوبَةٌ فِي الْبَيْتِ ؟ فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ ، إِنَّهُ (مَرَبَّنَا) رَجُلٌ
مُبَارَكٌ كَانَ مِنْ حَدِيثِهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ . قَالَ : صَفِيهِ لِي يَا أُمَّ مَعْبُدٍ . فَقَالَتْ :

رَأَيْتَ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ ، أَبْلَجُ^(٩) الْوَجْهَ ، حَسَنَ الْخَطِّ ، لَمْ تَعْبِهِ

(١) تَنَاجَسَتْ : سَالَتْ .

(٢) يَرْبُصُ : يَكْفِيهِمْ أَمْدًا .

(٣) السَّمَالُ — بَكْسَرُ الثَّاءِ — جَمْعُ ثَمَالَةٍ — بَعْضُهَا — مَا يَهْلُو اللَّبَنَ مِنَ الرِّفْوَةِ

(٤) عَسَلًا : إِذَا اسْتَقَى الْإِنْسَانُ مَرَّتَيْنِ فَالْأُولَى النَّهْلُ وَالثَّانِيَةُ الْمَلْلُ .

(٥) أَرَاخُوا أَيْ شَرَبُوا مَرَّةً أُخْرَى .

(٦) حَيْثَالٌ : جَمْعُ حَائِلٍ وَهِيَ الَّتِي انْقَطَعَتْ عَنِ الْخَلِّ ، وَعَجَافٌ : جَمْعُ عَجْفَةٍ

— بِكْسَرِ الْجِيمِ — وَهِيَ الْمَهْرُولَةُ .

(٧) قَلَّةُ الْمَخِّ كُنَايَةٌ عَنِ الضَّعْفِ وَالْمُزَالِ .

(٨) الثَّقَا : جَمْعُ ثِقَاوَةٍ — بَعْضُ النَّوْنِ — وَهِيَ الْخِتَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ .

(٩) أَبْلَجُ وَضَاءٌ أُخَرُ .

مُجَلَّة^(١) ولم تَزُرْ به مُسَقَّلَةٌ^(٢) ، وسِيَا قَسِيماً ، في غِيلِيهِ كَصَحْج^(٣) ، وفي أَشْفَارِهِ وَطَلَف^(٤) ، وفي صَوْتِهِ صَحْل^(٥) ، وفي عُنُقِهِ سَطْع^(٦) ، وفي لَحْيَتِهِ كَنَائِمَةٌ . أَحْوَر^(٧) ، أَكْثَل ، أَرْج^(٨) . إن صَمَتَ فَعْلِيهِ الْوَقَار ، وإن تَسَكَّم سَمَاءَ وَعِلَاهُ الْبَهَاء ، فهو أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَامُ مِنْ بَعِيد ، وَأَحْلَامُ وَأَحْسَنُهُمْ مِنْ قَرِيب ، حَلَوُ الْمُنْطَق ، فَصْل ، لَا تَزُرْ وَلَا هَذِر^(٩) ، كَأَنَّ مِنْطَقَهُ خَرَزَاتِ نَظْمٍ بِتَحْدَرْنَ ، رُبْعَةٌ ، لَا لُتْنَاءَ مِنْ طَوْل ، وَلَا تَقْتَحِمُهُ الْعَيْنُ مِنْ قَصَر ، فَخَصْنُ بَيْنَ غَضَنَيْنِ ، فهو أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ قَدًّا . لَهُ رَفَقَاءُ يَحْفُونَ بِهِ ، إِنْ قَالَ أَنْصَتُوا لِقَوْلِهِ ، وَإِنْ أَمَرَ تَبَادَرُوا إِلَى أَمْرِهِ ، عَحْفُودٌ عَحْشُود^(١٠) ، لَا عَابِسٍ وَلَا مُفَنِّدٍ وَيُحْيِيهِ .

قال أبو معبد : هو واقه صاحب قریش الذي ذكر لنا من أمره بمكة ما ذكر ، ولو كنت وافته لانتست محبته ؛ ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك سبيلاً .
والمنطوقة النثرية السابقة تعد وثيقة أدبية وتاريخية ، صورت لنا صفة

(١) المُجَلَّة : ضخامة في البطن .

(٢) المُسَقَّلَةُ : دقة الجسم وشدة نحوله .

(٣) الصَّحْج : شدة سواد العين في شدة بياضها .

(٤) الوَطَف : فؤارة أشفار العين وطولها .

(٥) الصَّحْل : شبيه بالبحر في الصوت وألا يكون حاداً .

(٦) سَطْع العنق طولها في جمال .

(٧) أَصْلُ الْحَوَر أن تسود العين كلها ولا يكون ذلك إلا في البقر والظباء .

ثم استمر لعين الإنسان إذا غلب سوادها على بياضها .

(٨) الْأَقْرَن : المقرون الحاجبين .

(٩) الْهَذِر : القليل الذي لا يعبأ به من القول .

(١٠) الْحَفُودُ الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويبادرون إلى طاعته والمحشود

الذي يحف به من معه .

الرسول ﷺ الخلقية والخلقية كأننا نراه ونشاهده ، كما تروى لنا حدثاً بارزاً مهماً من أحداث الهجرة النبوية المباركة ، وتنقل إلينا عبر الأيام والقرون — معجزة غارقة من المميزات العظيمة التي اختص الله بها نبيه محمداً ﷺ وأيده بها ، كما تقدم لنا جانباً معنياً من أخلاق الرسول الكريم ومعاملته لأصحابه والناس ، بدت لنا واضحة جلية . فيما ضربه — في المقطوعة — من أمثلة رائدة وإثارة جم وكرم في العطاء ، وكيف أنه ﷺ آثر أم معبد وقدمها على نفسه وصحابه ، رغم جهدهم واحتياجهم للسقاء والغذاء وما يروى عطشهم ، وبيل أوامهم ، ويسد رمقهم — وكيف أنه لم يفكر في نفسه أولاً — كما يفعل القادة الأنانيون ، بل فكر في المرأة المضيفة أولاً . إذ أنها صاحبة البيت ، وصاحبة الشاة ، ثم فكر في صحابه ، وأخيراً سقى نفسه ، وساق لنا أدباً رفيعاً نموذجاً في الإيثارة وهو قوله : « ساقى القوم آخرهم شرباً » ،

كما نلاحظ جانباً اجتماعياً هاماً في آخر القطعة ، فلم يرد الإناء فارغاً — كما يفعل بعض البغلاء حينما يأكلون ويشربون ثم يتركون أو يردون الإناء غاوى الوقاوس — بل ضرب مثلاً أعلى في السكرم والسباحة ، فدعا بالإناء ثم حلب فيه ثانياً عوداً على يده ليغادر المنزل وقد امتلأت رحبانه بالخير العميم ، والفيض الكثير ، ثم اكتملت جواب الخبير بمبايعته التاريخية لأم معبد وإسلامها ، وهذا الجانب يبين مدى أهمية المرأة في المجتمع ومشاركتها في أمر حيوي يحمله القرآن .

• • •

وجه رسول الله ﷺ إلى طي — فريقاً من جنده يقدمهم على هليه السلام . ففرح عدى بن حاتم الطائي . وكان من أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ — إلى الشام ، فصبيح على القوم ، واستاق خيلهم ونمستهم ورجلهم وأحلامهم إلى رسول الله . فلما عرض عليه الأسرى نهضت من بين القوم سيدة بنت حاتم فقالت :

بالحمد ، ملك الوالد ، وغاب الوافد . فإن رأيت أن تسخطى عني ولا تشمت في
أحياء العرب ! فإن أبي سيد قومه ، بفك العاني ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار
ويصمى الدمار ، ويخرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشى السلام ،
ويحمل السكك^(١) ، ويعين على نوائب الدهر ، وما أناه أحد في حاجة فردة
غائباً . أنا بنت حاتم الطائي . فقال النبي ﷺ : يا حارثة ، هذه صفات المؤمنين
حقاً ، لو كان أبوك مسلماً أترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أبها كان يحب مكارم
الأخلاق . وقال فيها : ارحموا عزيراً ذل ، وغنياً افتقر ، وعلماً ضاع بين جهال .
وأمن عليها رسول الله بقومها فأطلقهم تسكراً لها ولأبها . فاستأذنته في الدعاء له .
فأذن لها . وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا . فقالت : أصاب الله برك مواقفه ،
ولا جعل لك إلى ثم حاجة ، ولا سلب نعمة من كريم قوم ، إلا وجعلك سبباً
في ردما عليه ، فلما ألقها رجعت إلى أخيها عدى وهو بدومة الجندل .
فقالت له : يا أخي ائت هذا الرجل قبل أن تعطفك حباله ، فإنني قد رأيت
هدياً ورأياً سيفلغب أهل الغلبة ، ورأيت خصلاً تعجبنى : رأيت يحب الفقير ،
وبفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدد الكبير ، وما رأيت أجود
ولا أكرم منه . فإن يكن نبياً فلا سابق فضله ؛ وإن يكن ملكاً فلن يزال في
عز العين . فقدم عدى إلى رسول الله ﷺ ؛ وأسلمت سفانة^(٢) .

وكانت جرأة سفانة وشجاعتها سبباً لنجانها ونجاة قومها ، كما أن جرأتها
كانت سبباً في استددار عطف الرسول الأمر الذي ساقها وأغاثها إلى نور
الإسلام الوضاء ، ولو أنها جبت ولم تنطق ببنت شفة لتعرضت للهلاك هي
وقومها ولما حظيت بشرف الإسلام .

كما تبين لنا هذه اللوحة الأدبية صفات العرق الكريم متجلية في شخصية
حاتم الطائي ، وكيف أنه يتصف بسمات كريمة يدعو إليها الإسلام كما أخبر

(١) السكك المائل واليتيم (٢) الأفاقي ج ١٦ ص ٩٢ ولإنسان الميون ج ٢ ص ٢٨٥

ذلك الرسول الكريم ﷺ فهو : « بفك الأسير ، ويقتل الجاني ، ويحفظ الجار ويحمي الثمار ويفرج عن المسكروب ويطعم الطعام ويحمل الضعيف ويعين على مصائب الدهر » .

كما تعبر المقطوعة عن شخصية سفانة الاجتماعية وما تتميز به من نظرات ثابتة ، ولحات نفاذة ، وقدرة أدبية على صوغ أسلوب الاستعطاف الذي ملك قلب الرسول ، واستولى على وجدانه .

ولا تقل هذه المقطوعة عن سابقتها في الأهمية الأدبية التاريخية فهي تصور شجاعة المرأة العربية في العصر الجاهلي وتقدم مثلاً رائداً لجسارتها وجراتها فهي تفتحم معضلات الأمور في إقدام فريد ، وعزم وطيد ولا غرو في ذلك ولا عجب فهي ابنة حاتم الطائي .

ويروي لنا الأغاني موقفاً تاريخياً يدل على شجاعة المرأة العربية ومدى قوتها وصبرها .

« كان عمرو بن هند قد أقسم ليحرقن من بنى حنظلة مائة فأحرق ثمانية وتسعين ثم أقبل وأفد من البراجم فأكل به تسعة وتسعين ، ثم قدمت عليه امرأة من بنى حنظلة ، فقال لها من أنت ؟ فقالت : ما أنا بأعجمية ، ولا ولدتي العجم ، قال فمن زوجك ؟ قالت هودبة بن جروول قال أين هو ؟ قالت : هذه كلمة أحمق ، لو كنت أعرف مكانه حال بيني وبينك ، فقال أما والله لولا عذافة أن تلدى مثلك لضرفتك عن النار ، فقالت : أما والله الذي أسأله أن يضع وسادك ، ويخفف مهادك ، ويسلبك ملسكك ، ما قتلت إلا نساء أحاليها ثدى ، وأسألهن حل ، قال : أقدفوها في النار ، فالتفت فقالت : ألا ترى يكون مكان عجز ، فلما أبطنوا عليها قالت : « صارت الفتیان حمماً فأحرقن^(١) » .

(١) الأغاني ١٩ / ١٣٩ وراجع مجمع الأمثال ١ - ٢٦٠ .

ولما قتلَ جساس بن مرة كليب بن ربيعة ، وقفت جليلة بنت مرة في المناحة
وقفة تذيب الصخر — وكانت أخت القاتل وزوج القاتل — فقال نساء
الحى لأخت كليب : أخرجى جليلة عن مأتمك ، فإن في قيامها شامة وعاراً
علينا عند العرب . فقالت لها : يا هذه ، اخرجى من مأتمنا ، فأنت أخت
واترنا ، وشقيقة قاتلتنا . فخرجت وهي تهرأ عظامها . فلقبها أبوها مرة ،
فقال لها : ما وداك يا جليلة ؟ فقالت : تُكَلِّ العمد ، وحرزن الأبد ، وفقد
حليل ، وقتل أخ من قليل . وبين ذلك غرس الأحقاد وتفتت الأكباد .
فيقال لها : أو يكف ذلك كرم الصنم ، وإغلاء الديار ؟ فقالت : أمانة عذود
ورب السكبة : أبا البدين^(١) تدع لك تغلب دم ربها ؟

قالوا : ولما دخلت جليلة البكرية الشيبانية قالت أخت كليب : رحلة المعتدى ،
وفراق الشامت أو يل غداً لآل مرة ، من الكربة بعد الكربة أفبلغ جليلة قولها
فقالت : وكيف تشمت الحرة بهتك سترها ، وتركش وترها . أسعد الله جد^٢
أختي ، أفلا قالت كفثرة الحياء ، وخوف الأعداء ؟ ثم أنشأت تقول :

يا ابنة الأقوام إن لمك فلا	تسجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذى	يوجب اللوم فلوى واعذلى
إن تسكن أخت امرئ ليمت حل	شقى منها عايه فافعللى
جل ^٣ عندي فعل جساس فيا	حرق عما انجلى أو ينجل
لو يمين فكدريت عيني سوى	أختها فانفقأت لم أحفل

(١) البدين : جمع بدنة — بفتح الباء والمدا — الناقة أو البقرة تهدي إلى مكة
ثم أطلقت على كل عظيم جسم من الإبل والبقر .

تحمّل العين أذى العين كما تحمل الأم أذى ما تملى^(١)
 باقتيلا قوض الدهر به سق يقيّ جميعاً من عل^(٢)
 هدم البيت الذى استحدثته وانثنى فى هدم يقي الأول
 ورماني قتله من كتب رمية المصمى به المتأصل^(٣)
 يا نسائي دونكن اليوم قد خصني الدهر برؤى ممضيل
 خصني قتل كليب بلظى من وراني ولظى مستقبلي
 ليس من يبكي ليوميه كن إنما يبكي ليوم ينجلي
 يشتنى المندرك بالتأروفي ذكرى تادى تكل المشكل
 لينته كان دعى فاحتلبوا درأ منه دى من أكل^(٤)
 فانا قاتلة مقتولة ولعل الله أنت يرتاح لي

وحديث جليلة يصور لنا نظام المجتمع الجاهل وما كان يسوده من عدا
 وضغائن وئادات ، وأنه كان مجتمعاً يثور لآفته الأسباب ، وينضب لأذى
 الأسباب ، وينضب لأذى الأشياء ، كما تصور لنا قوة شخصية المرأة العربية
 ومدى تأثيرها فى قومها ، فهي تستطيع أن تعلن الحرب بكلمة واحدة ، وأن
 تنهيا بإيماءة موحية .

فإن إشارة واحدة قدقت بها امرأة فأصابت موطن الحس من الرجال ،

(٢٠١) يقال اعتلت الأم أى نهضت يحملها تقول إن العين تحمل أذى أنها
 كما تحمل الأم راضية أذى حملها ، أما هى فأعساها تعمل وقد أصيب حينها مما .
 وروى فى هذا البيت : أذى ما تملى وما بين يديك أوجه وأمثل

(٢) الكشب : القرب ، وأسمى الرمية إذا أنفذها .

(٤) الأكمل : عرق فى الدراح إذا نزع لا يرقأ .

فهاجرت لها الحرب أربعين عاماً لم يدر فيها ضريح ، ولم يكتمل بين اثنتائها فتى ،
وقد حدث : أن البسوس ابنة منقذ - غالة جساس بن مرة سيد بنى بكر -
نزل بها ضيف من ذويها يدعى سعداً ، فأفسحت دارها له ، وأناخت بحظيرتها
ناقته ، فساكاد يطعن بالرجل مقامه حتى انطلقت ناقته ترعى ، وقادها حينها
إلى حمى لكليب بن ربيعة صهر جساس وفتى العرب وسيد تغلب ، ولم يكن
لأحد غير جساس أن يرعى إبله حمى كليب ، فلما بعصر بها كليب غريبة بين إبله ،
أنفذ سهمه في ضرعها ، فانطلقت تمدو وهي تشخب دماً ولبناً حتى نزلت بفناء
البسوس ، فلما استبان ما بها صاحت وأعولت واندمعت تقول :

لمعرك لو أصبحت في دار منقذ لما ضم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني أصبحت في دار غريبة متى يعد فيها الذئب يعد على شاتي
فيا سعد لا تفر بنفسك وارتحل فإنك في قوم عن الجار أموات
ودونك أذوادى فإنى عنهم لراحلة لا يفقدون بنياتي

وقد سمع جساس تلك الكلمة الأخيرة فأصابته الوتر الحساس من قلبه ،
وقال : « اسكني أينما المرأة فليقتلن خذاً جميل هو أعظم عقراً من ناقة جارك ،
وما زال يتوقع غرة من كليب حتى أنىء بانفراده فاعتقل رمحاً وخرج للقاءه ،
فلما أبصره طعنه وحق صلبه وأبى عليه المساء أن يباينه ، ومن أجل ذلك قامت
حرب البسوس وفيها استمر القتل أربعين عاماً حتى كاد يلحقهما الدثور في أثرها
وما عصفت بها إلا حكمة واحدة كانت خليقاً بها أن تذهب لحينها لولا أن
نسجت امرأة وحاكتها على امرأة ، كما يتبين منها الظلم الصارخ الذى يوقعه
المجتمع الجاهل على امرأة مثل جليلة البكرية ، فما ذنبها ، وماذا جنته حتى ينبذها
المجتمع الجاهل ويناصبها العداة ؟ إن مثل هذه المرأة كانت جذيرة بالإشفاق
والرعاية بدلا من الزاوية والاحتقار ، ولكنه المجتمع الجاهل .

ولما صدع سعد بن أبي وقاص جيش الفرس بالقادسية ، أته حرقة بنت النعمان بن المنذر في حفدة من قومها وجوارحها - وهن في زيها ، عليهن المسوح والمنقطعات السود متروحات - تطلب صلة . فلما وقفن بين يديه أنكرهن سعد . فقال : أيكن حرقة ؟ قالت : هانذا . قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم ، فما تكرارك في استغفائي ؟ ثم قالت : إن الدنيا دار زوال لا تدوم على أهلها انتقالا ، وتعقبهم بعد حال حالا ؛ كنا ملوك هذا المصر ، يحيى لنا خراجهم ، وإطيعنا أهل مدى الإمرة ، وزمان الدولة ، فلما أدبر الأمر وانقضى ، صاح بنا صائح الدهر فشق عصانا ، وشدت شملنا . وكذلك الدهر يا سعد ، إنه ليس يأتي قوماً بمسرة ، إلا ويعقبهم بمسرة . ثم أنشأت تقول :

فبينما نسوس الناس والأمر أمرنا إذا نحن فحيم مسوكة تنصّف
فأفء لدينا لا يدوم نعيمها تقلب تارات بنا ونصرف

فقال سعد : قائل الله عدى بن زيد كأنه ينظر إليها حيث يقول :

إن للدهر صولة فأحذرنا لا تبين قد أمنت الدهورا
قد يبيت القى معافى فيردى ولقد كان آمناً مسروراً

وحدثوا أن عمرو بن معد يكرب - وكان من قصاد النعمان وزواره - دخل عليها وهي بين يدي سعد . فلما نظر إليها قال : أنت حرقة ؟ قالت : نعم . قال : فما دهمك ، فذهب بجودات شيمك ؟ أين تنابع نعمك ، وسطوات نعمك ؟ فقالت : يا عمرو ، إن للدهر عثرات وعبرات تعثر بالملوك وأبنائهم فتخفضهم بعد رفعة ، وتفردهم بعد منعة ، وتذلمهم بعد عز . إن هذا الأمر كنا ننتظره ، فلما حل بنا لم نكره . قالوا : فاما انصرفت من لدن سعد لقيها نساء

القادسية ، فقلن لها : ما فعل بك الأمير ؟ قالت : أكرم وجهي ، وإنما يكرم
السكريم السكريم (١) .

وحرفة في دنياها الأدبية الحكيمة بدت حكيمة لأمعة من حكميات العرب
اللائق حلبن الدهر أشطره ، فألفت علينا أمثلة رائعة من الحكمة لا يقدر على
حسن صوغها إلا البليغ ، يتجلى ذلك في عبارات رائقة ، وأسلوب سهل
كقولها : الزمان لا يأتي بمسرة إلا ويعقبها بمسرة ، إن للدهر لمعات ، تعثر
بالملوك .

وقد جاءت هذه الحكم صدى لصفاء فطرتها ، وكثرة تجاربها ، وقدرتها على
استخلاص العبرة ، كما تدلنا على وافر عقلها ، وتوقد ذكائها ، وثاقب فسكرها .
ونلاحظ أن حرفة تبدو وكأنها فيلسوفة أخلاقية في حكمها ، فقد مزجت
الحكمة بالفلسفة ، وربطت بينها وبين الروح والأخلاق مما يعطى لحكمها
قيمة فلسفية ، وقيمة روحية وخلقية ، كما تعلو عماورتها مع عمرو قيمة
تاريخية ، وقيمة اجتماعية فضلا عن القيم الأدبية والبيانية التي انتشرت بين
مضنون كلماتها .

* * *

ولما قتل الحارث بن ظالم المرثى خالد بن جعفر العامري ، لحق بحاجب بن
زردة التميمي يمتصم به من بني طامر ، فأتبعه رجال منهم ، حتى إذا كانوا ببعض
الطريق ، عثروا بامرأة تميمية تهني السكاة ؛ فتمرفوا منها أمر الحارث ، ومكانه
من حاجب ؛ ثم احتجروها عندهم . فترقت حتى أنست غرة من القوم فأفلتت .
وانطلقت تعدو إلى حاجب . فأخذت تحدثه حديث القوم . فقال لها : أخبريني
أي قوم أخذوك ؟ قالت : أخذني قوم يقبلون بوجوه الظباء ، ويدبرون بأعجاز
النساء . قال : أولئك بنو طامر . قال : فحدثيني من في القوم ؟ قالت : رأيتهن

يغدون على شيخ كبير لا ينظر بما فيه حتى يرفعوا له من حاجبيه . قال : ذلك الأحوص بن جعفر . قالت : ورأيت شاباً شديد الخلق ، كان شعر ساعديه حلق الدرع يمدُّ^(١) القوم بلسانه عذم الفرس العضوض . قال : ذلك عتبة بن بشير بن خالد . قالت : ورأيت كهلاً إذا أقبل ومعه فتيان يشرف القوم إليه ، فإذا نطق أنصتوا . قال : ذلك عمر بن خويلد ، والفتيان ابناه زُرْعَة ويزيد . قالت : ورأيت شاباً طويلاً حسناً إذا تكلم بكلمة أنصتوا لها . ثم يؤلون^(٢) إليه كما تؤل الشول^(٣) إلى لحلها . قال : ذلك عامر بن مالك . قالوا : وجاء القوم فسكانوا كما قالت وقال^(٤) .

ومن حديث المرأة التميمية التي وصفت قومها يتبين لنا مدى حذق العرب في الوصف ، ومهادتهم في معرفة الرجل من وصفه ، فكانوا يستدلون بهيئة الإنسان وشكله ولونه وقوله على أخلاقه وفضائله ورذائله ، كما كانوا يعرفون رجال القبيلة ونساءها من وصفهم ، وقد نبغ في ذلك من العرب من لا يحصى عددهم . ولهم في ذلك نواذر شتى منها ما يقال من أن أولاد نزار ذهبوا إلى الأنفى الجرهمي ليحكم بينهم في ميراث أبيهم ، وبيننا هم في الطريق إذ رأى مضر كلاً قد رعى ، فقال : إن البعير الذي رعى هذا أعور ، فقال ربيعة : هو أنزور ، وقال إباد هو أبتور ، وقال أنمار هو شرود ، وبعد قليل لقيهم رجل يثعد بعيره فوصفوه كما تفرسوا ، فتعلق بهم وذهبوا إلى الأنفى الجرهمي ، فقال : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً دون آخر فعرفت أنه أعور ، وقال ربيعة رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والآخرى فاسدته

(١) المذم : عض الفرس وهي استمارة لحدة اللسان .

(٢) أل في مشيه : أسرع .

(٣) الشول : جمع شائلة ، وهي ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر .

(٤) الأغاني ١٠ / ١٨

فعرفت أنه أزود ، وقال إباد رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ، وقال أنمار رأيت به عرى المسكان الملتف ثم يجوز به إلى غيره فعرفت أنه شرود ، فقال الجرهمي لصاحب البعير أطلبه من غيرهم ، ثم قال لهم أحتاجون إليّ وأنتم كما أرى ؟ وهكذا فالقطعة أثر أدبي عظيم يدل على قوة الخيال والحفاظة والذكاء عند العرب فقد كانوا يميزون بين أثر الرجل والمرأة والشيخ والشاب ، والأعمى والبصير واللاحق والسكيس^(١) .

* * *

وحدث أبو بكر بن دريد قال^(٢) : كان قتيل من أقبال حمير منيع الولد دهرأ ، ثم ولدت له بنت ، فبنى لها قصرأ منيعأ بعيدأ عن الناس . ووكل بها نساء من بنات الأقبال يخدمنها ويؤدبنها ، حتى بلغت مبلغ النساء ، فنشأت أحسن منشأ وآمه في عقلها وكألها . فلما مات أبوها ملكها أهل علقها^(٣) . فاصطنعت النسوة اللاتي ربينها وأحسنن إليهن . وكانت تشاورهن ، ولا تقطع أمراً دونهن . فقلن لها يوماً : يا بنت السكرام ، لو تزوجت أئمت لك الملك ! فقالت : وما الزوج ؟ فأخذت كل واحدة تصف العذب التي من صفات زوجها . فقالت : أمهلني أنظر فيما قلتن . فاحتجبت عنهن سبعأ ، ثم دعتن ، فقالت : قد نظرت فيما قلتن فوجدتني أملسك رقي ، وأشبه باطلي وحق . فإن كان محمود الخلاق ، مأمون البوائق ، فقد أدركت بهيئتي ، وإن كان غير ذلك فقد طالت شقوتي . على أنه لا ينبغي إلا أن يكون كفوأ كريأ ، يسود عشيرته ، ويرب^(٤) فصيلته ، لا أقتنع به عارأ في حماي ، ولا أرفع به شأراً

(١) الوسيط ص ٤١ (٢) القيل : الملك من ملوك حمير .

(٣) الخلاف : الكورة أو الإقليم وهو اليمين خاصة .

(٤) يرب فصيلته بمفظها ويرطها ويربها .

لقوى بعد وفاتي . فمليكنه قابضينه ، وتفرقن في الاحياء ، فأبشكن أمتني
بما أحب فلما أجزل الحياء ، وعلى لها الوفاء . فخرجن قينا وجهتهن له - وكن
بنات مقاول ذوات عقل ورأى - لجأتهما إحداهن - وهى حمرة بنت
زُرعة ابن ذى سَخَنَفَر - فقالت : قد أصبت البغية . فقالت : صفيه ،
ولا تسميه ، فقالت : غيت في الحثل^(١) ، ثمالت في الأزل^(٢) ، مفيد مفيد .
يصلح النائر ، وينمش العائر ؛ ويغمر الندى ؛ ويقتاد الآبى ، عرَضه وافر ،
وحسبُه باهر ، غضُّ الشباب ؛ طاهر الآثواب . قالت : ومن هو ؟ قالت :
سبرة بن عوال بن شداد بن الهَمَّال . ثم خلت بالثانية . فقالت : أصبت
من بغيك شيئاً ؟ قالت : نعم . قالت : صفيه ، ولا تسميه . قالت : مصاص^(٣)
النسب ؛ كريم الحسب ؛ كامل الأدب ؛ غزير المطايا ؛ مأنوف السجايا ؛ مُقْتَبِلُ
الشباب ؛ خصيب الجناب . أمره ماض ، وعشيرته داض . قالت : ومن هو ؟
قالت : يعلى بن كزَّال بن ذى جَدَن . ثم خلت بالثالثة فقالت : ما عندك ؟ قالت :
وجدته كثير الفوائد ، عظيم المرافد^(٤) يعطى قبل السؤال ، ويئيل قبل أن
يستال . فى العشيرة معظَّم ، وفى الندى مكرم ، جَمُّ الفواضل ، كثير النوافل^(٥) .
بذلُ أموال ، محقق آمال ، كريم أعمام وأخوال . قالت : ومن هو ؟ قالت :
رواحسة بن مُهَيم بن مَضْحَم بن ذى مُعْلَاهة . فاختارت يعلى بن كزَّال

(١) الحثل : الجذب والتمشط .

(٢) الأزل : النيات ، والأزل : الضيق والشدة .

(٣) المصاص : الخالص من كل شئ وهو مصاص فى قومه إذا كان ذاكى

الحسب عاصماً لهم .

(٤) المرافد : جمع مرؤد - يفتح الميم وضماً - المعرفة .

(٥) النوافل : جمع نافلة - ما زيد على العطاء .

فزوجته ، فأختفيت عن نساها شهراً . ثم برزت لهن فأجزلت لهن الحياء ، وأعظمت لهن العطاء ^(١) .

* * *

وفي كلام النسوة الذى دواه أبو بكر بن دديد نرى صورة فنية من الصفات التى ترغها المرأة العربية فى الزوج وهو أن يكون سيداً فى قومه ذا حسب ونسب ، جواداً كريماً مكتمل الفتوة ، حسن السيرة إلى غير ذلك من السجایا والطباع التى تمتاز بها القبيلة وتفتخر بها . فهى لوحة فنية تظهر فيها آمال الزوجة وأحلامها فى الزوج :

١ - فالزوج القاب أثير مستحب لانه أدنى إلى الزوجة سنأ وأشبه بها خلقاً وميلاً .

٢ - وأن يكون الزوج حسن السيرة حديبا على الزوجة رقيقاً ، وأن الزوجة أترجو أن يكون زوجها مرحاً لتجد الأنس فى قربه والراحة فى هشرته .

٣ - وأن يكون الزوج متحلياً بالفضائل من كرم وشجاعة وألفة فهى تؤثره مسباحاً حتى تحقق آمالها وتميش فى حياة فاعمة ، وتريده شجاعاً ليكفل لها الشهرة والسيادة والأمان والعلمأينة ^(٢) .

وهذه الباقية السابقة ينتهى حديث الوصف النساءى وإذا أردنا أن نتكلم فى الوصف ونستطرد فى الحديث عنه لنضاق بنا هذا الكتاب ، فالوصف غرض واسع النواحي بعيد ما بين الأطراف ، وقليل ما يلم الناثر أو الشاعر بأطرافها: جميعاً فضلاً عن الإجابة فيها ، ولكل من الأدباء الوصافين فن

(١) آمال القتال ج ١ ص ٨٠ — ٨٢ .

(٢) د. الحوفى : ١٧١ .

أو فنون من الوصف تستأثر بنفسه ، وتظهر فيها براعته ، وذلك بحسب البيئة التي تغلب فيها ، والظروف التي اكتنفته واتصت بإحساسه ، وتغاذلت آثارها في مجرى حياته ، فكان يمثلها بصره وعقله ، وينبض بها قلبه ، ويفيض لتذكرها شعوره فلا ينتظر من الأديب أو الشاعر إلا أن يجيد في الناحية التي هيأته لها نفسه ، فجعلتها مناط شاعريته ، ومهبط وحيه ، ومصدر إحساسه ومثار آماله وآلامه^(١).

الفصل الثالث

أدب الكواهن

وكان الكاهنات في أدهن يملن إلى استخدام السجع ، والتكلف في صوغ عباداته ، وكثيراً ما يمزج أدبين بالمثل والحكمة مع عدم تعمقهن في استخراج المعاني البعيدة ، واستقصاء الأفسار الدقيقة التي تحتاج إلى كدٍ عاظر أودرس علم ، ونظراً لأن أدب الكهانة من الأدب الخاص ، فكان التأنيق مقصوداً في انتقاء الألفاظ المناسبة الوزن ، المتشابهة في النغم والجرس ، وإن كن في بعض الأحيان يعمدن في تأدية المعنى إلى ألفاظ لطافته ، حسبما يتفق ، وكما يكون . مع قصر في الجمل ، أو توسط فيها ، كما نلاحظ أنهم يستخدمون الكناية القريبة المنال (كطابع النثر الأدبي في هذه الحقبة) .

ولأن أدب الكهانة من الأدب الخاص كما أسلفنا ، فكانت لغة الكهانة تلبثق من شعور بالتفوق والافضلية والسمو الروحي على من يستصحبون بهديها ، فهي في نظر أصحابها ونظر من يدينون بها لغة " خاصة " مختارة ، لها سند من قوة علوية ململمة ، تتخذ منها أداة لفض أختام الغيوب ، وهتك أستارها ، ومن ثم كان لا بد أن تستعين بما تستعين به (كدية الزاد) من التأنيث في النفوس الضعيفة المستسيلة ، لتثقل تفكيرها ، وتغدر تعقلها ، وتلبسها هن تبين التديليس والتليس ؛ وتسوقها إلى الإذعان والقبول ؛ مستغلة ثقتها إلى معرفة أسرار الغد ، ومطالعة صحف المجهول . لذلك تراها تعتمد على المواربة والرمز والإيهام والاستفلاق مرة ، وعلى القسم والعتين

والجلجلة والتهويل والإغراب أخرى ، حتى تتحقق الغاية المقصودة منها^(١) .
والذي يبدو أن أكثر ما جاءنا عنهم مخترع مصنوع ، ولكن بجيئة
على هذه الصورة بعينها ؛ دليل على أنهم هكذا كانوا يطلقون ، وهكذا كانوا
يقطعون ، وإلا لما اتفقت روايات الرواة ، ومن قد نعلم بعض الأقوال
والخطب ، على أنهم كانوا يسجدون هذا السجع ، وإذا صح أن هذا السجع
مصنوع ، فهو لا ينفى أن الأصل مصنوع أيضاً ، لأن من أراد محاكاة شيء
أنفخ جهده وحذقه في بجيئته على شاكلة .

وحسبك دليلاً على ما كان للكهان من جمع عرفوا به ما جاء في الآثار :
أن النبي ﷺ قضى بديّة في جنين ، فقال أحدهم : يا رسول الله كيف ندي
من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح فاستهلّ ، فمثل ذلك يطل .

فأنكر عليه الرسول ﷺ هذا الأسلوب ، قائلاً : « أسجعاً كسجع
الجاهلية ، وفي رواية أخرى « أسجعاً كسجع الكهان » لجعل السجع مختصاً
بالكهان بمقتضى الإضافة ، كما يقول ابن خلدون .

ومعنى هذا أنه كان للكهان جمع ، وأن صورة هذا السجع كانت معروفة
في صدر الإسلام^(٢) .

وإنما بعض هذا السجع - فوق التكلف والنمط - أن الكهان
الذين كان أكثر أهل الجاهلية يتحاكون لإلههم ، وكانوا يدّعون السكمانه ،
وأن مع كل واحد منهم رئيس من الجن ، كانوا يتكهنون ويحكمون بالأشباع .

(١) صور البديع للدكتور على الجندى ، والخطابة في صدر الإسلام
د . محمد طاهر ص ٧٨ .

(٢) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ ص ٧٩ .

ألا ترى أن ضمرة بن ضمرة ، وهرم بن قرطبة ، والأفرع بن حابس ،
ونفيل بن عبد العزى ، وربيعة بن حذار كانوا يحكمون وينفرون بالأمم
فوق النهى .

والاستكراه فى ذلك لقرب عهد العرب بالجاهلية ولبقيتها فيهم ، وفى
صدور كثير منهم ، فلما زالت العلة زال التحريم .

وقد كان الخطباء تسكلم عند الخلفاء الراشدين ، فتكون فى تلك الخطب
أمم كثيرة ، فلم ينهوا منهم أحداً .

* * *

ومن الأدبيات السكوا من : الشعثاء ، وطريفة الخير التى تسكنت بسيل
العسرم ، وخراب سد مأرب ، والزبراء ، وكاهنة ذى الخلصة التى تسكنت
بما فى بطن رقية بنت مجشم ، وسامى الحمدانية ، والعجفاء بنت علقمة
والعُفَراء .

واليك أمثلة من أدبهم :

خطب الكواهن

والسكاهنات الخفليات كما أسلفنا يتناولن في حديثهن موضوعات جديدة ،
وكلما مستوحاة من البيئة الجاهلية ومستقاة من جورها .

ففي حديث الشعثاء السكاهن يتبين فيها شخصية المرأة العربية واضحة كل
الوضوح ، وأن لها ذاتيتها المحترمة ورأيها المقدد ، فكان يؤخذ رأيها في
الزواج ، ولا تزعم على اختيار شخص معين مهما كانت الظروف .

كما تدل على أن هناك في الجاهليات نساء عذبات مجربات يرجع إليهن في
معضلات الأمور (كعثة بنت مطرود البجليّة فقد كانت ذات عقل ورأي
مستمع) وكيف أن مخالفة هؤلاء النسوة المجربات الناصحات يورث الحيرة
ويعقب الندامة ، وقد جعل لنا ذلك الأمر جلياً في مخالفة خود اختها عثمة
وضربها بنصائحها عرض الحائط مما عرضها إلى فشلها في حياتها الزوجية ،
وأخذها أسيرة ذليلة ، وقد اعترفت خود بذنبها وبكت بكاء مرأ وأنشجت
نشيحاً محرناً ، فلما سئلت عن ذلك قالت : إنما أبكى على عصياني أختي وتركى
قولها : « ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل ، فقد اهتمت خود
بالمظهر البراق ، والمظهر الزائف ، ولم تنظر إلى شرف الجوهر ، وطهر المعلن
فكان مصيرها كما قال الشاعر :

ترى الرجل النحيف فتزديه وفي أثوابه أسد مصود
ويعجبك الطير فتبتليه فيخلف ظنك الرجل الطير
وقد رجعت في آخر الأمر إلى منطق العقل فاختارت لها نواس مع بسوء

خلفته ، لأنها نظرت حيثلذ إلى الخبز وضربت صفحاً عن المظهر وقبلت الرجل الذى يحسبها ويدافع عن قبيلتها ، وهذه هى الروح التى كانت تسود تعلقات المرأة العربية ورفقاتها ، فتختار المرأة العربية الرجل القوي الذى يذود عن العشيرة ويحمي القبيلة .

ونراها فى نهدائها هذا صادقة فى وصفها تحجب نداه العقل وتترث فى الاستجابة لنداء العاطفة .

• • •

وكانت عثمة بنتُ مطرود البجليّة ذات عقل ورأى مُستمتع فى قومها ، وكانت لها أخت يقال لها : خود ، وكانت ذات جمال وميسم^(١) وعقل ، فطلب سبعة إخوة غلبه من بطن الأزد خوداً إلى أبيها . فأثروه وعليهم الحلل البنيّة ، وتحمهم النجائب الفُره^(٢) ، فقالوا : نحن بنو مالك بن عُفَيْسَةَ : ذى النُحَيبين ، فقال لهم : انزلوا على الماء ، فنزلوا ليلتهم ، ثم أصبحوا غادين فى الحلل والهيئة ، ومعهم ربيبة^(٣) لهم يقال لها الشَّحَاء : الكاهنة ، فرؤوا بوَصِيدها^(٤) يتعرضون لها ، وكلمهم وسمّ جميل ، وخرج أبوها ، فجلسوا إليه ، فرحّب بهم ، فقالوا : بلغنا أن لك بذناً ، ونحن كما ترى شباب ، وكلنا يمتنع الجانِب ، ويمنح الراغب ، فقال أبوها : كلّكم خيار ، فأقيموا نرى رأيتنا ، ثم دخل على ابنته ، فقال : ما ترى ؟ فقد أتاك هؤلاء القوم ؟ فالت :

(١) الميسم والرسمية : أثر الحسن .

(٢) النجائب : جمع نجيب ، وهو البعير والفرس إذا كانا كريمين حقيقين ، والفُره : (كقفل وركع وكتب) جمع فرة ، وهو من الدواب الجليد السير الشبيط الخفيف .

(٣) الربيبة : الحاضنة .

(٤) الوصيد : الفناء (بالكسر) والعتبة .

« أنكحني على قدرى ، ولا تشطط في مهرى ، فإن نخطبني أحلامهم ، لا تخطبني أجسامهم ، لعل أصيب ولداً ، وأكثرُ عدداً ، فخرج أبوها ، فقال : أخبروني عن أفضلكم .

قالت ريبيتهم الشعثاء السكاهنة : « اسمع أخبرك عنهم : هم إخوة ، وكلهم أسوة^(١) .

أما الكبير فإلك^(٢) ، جرى فإلك^(٣) ، يُتعب السِّنابك^(٤) ، ويستصغر الممالك . وأما الذى يليه فالغمثر ، بحر^(٥) غمثر^(٦) ، يقهر دونه الفخر ، نهثد^(٧) صقر .

وأما الذى يليه فلعلمة ، صليب^(٨) المنجمة^(٩) ، تمنيع^(١٠) المشتمة^(١١) ، قليل المنجمة^(١٢) .

وأما الذى يليه فمأجم^(١٣) ، سيد^(١٤) ناعم^(١٥) ، جلد صارم ، أبى^(١٦) حازم ، جيشه^(١٧) فائم ، وجار^(١٨) سالم .

وأما الذى يليه فتواب ، سريع^(١٩) الجواب ، عتيد^(٢٠) الصواب^(٢١) ، كريم

(١) الأسوة : القدوة .

(٢) السئابك : جمع سائبك كقنفذ ، وهو طرف الحافر ، أى أنه يجهد الحيل فى حومة الوشى .

(٣) الغمر : معظم البحر ، والكريم : الواسع الخلق .

(٤) النهد : الأسد ، والكريم .

(٥) من يجم العود إذا عضه ليعرف صلابته من خوره .

(٦) المشتمة : مصدر شتم ، والمعنى : أنه فى حرد من أن يغتم ويسب عرضه ،

لحسن فعله وكرم خلقه .

(٧) المنجمة : إخفاء الشيء فى الصدر .

(٨) نعم كسميع ونصر وضرب فهو ناعم : أى ذو نعم وترفة .

(٩) العتيد : الحاضر الميأ .

النصاب^(١) ، كليش الغاب .

وأما الذى يليه ، فدرك ، بذول لما يملك ، عزوب^(٢) هما يترك ، يبنى ومهلك .

وأما الذى يليه ، لجندل ، لقصرته جندل^(٣) ، مقل^(٤) لما يصمّل ، يعطى ويذلل ، وعن عدوه لا ينكّل^(٥) .

فشاورت أختها فيهم ، فقالت أختها عثمة : « ترى الفتيان كالدخّل ، وما يدريك بالدخّل ، اسمعى منى كلة : إن شرّ الغريبة يعلن ، وخيرها يُدفن ، أنسكنى فى قومك ، ولا تغررك الأجسام ، فلم تقبل منها ، وبعثت إلى أبيها : أنسكنى مدركا ، فأنسكنها أبوها على مائة ناقة ورطائها ، وحملها مدرك ، فلم تلبث عنده إلا قليلا ، حتى صبّحهم فوارس من بنى مالك بن كنانة ، فاقتلوا ساعة ، ثم إن زوجها وإخوته وبنى عامر أنكشفوا ، فسبّوها فيمن سبّوا ، فينينا هى تسير ، بكت ، فقالوا : مايكيك ، أعلى فراق زوجك ؟ قالت : قبّحه الله ، قالوا : لقد كان جميلا ! قالت : قبّح الله جمالا لا نفع معه ، إنما أبكى على عصيانى أختى ، وقولها :

ترى الفتيان كالدخّل وما يدريك بالدخّل

وأخبرتهم كيف خطبوها ، فقال لها رجل منهم يكنى أبا نواس ، شاب أسود أفوه^(٦) مضطرب الخلق : أرضينى ، على أن أمنعك من ذئاب العرب ؟

(١) النصاب : الأصل .

(٢) بعيد .

(٣) جندله : صرعه على الجمالة (كسابة) وهى الأرض .

(٤) حامل . (٥) لكل عنه كعرب ونصر وهم : نسكس وجبن .

(٦) الأفوه : وصف من القوة بالتحريك ، وهو سعة الفم .

فقال لأصحابه : أ ك ذلك هو ؟ قالوا : نعم ، إنه مع ما ترين لينفع الحليلة^(١) ،
وتتغني القبيلة ، قالت : هذا أجل جمال ، وأكل كمال ، قد رضيت به ،
فزوجوها منه .

(بجمع الأمثال للبديان ١ : ٩١)

* * *

قال عبد الملك بن عبد الله بن بدزون في شرح قصيدة الوزير عبد المجيد
ابن عبدون ، التي قالها في رثاء دولة بني الأفطس بالاندلس :
كان أول من خرج من اليمن في أول تمزيقهم ، عمرو بن عامر : مُزَيِّقِيَاهُ^(٢) ،
وكان سبب خروجه ، أنه كانت له زوجة كاهنة ، يقال لها « طريفة النخير » ،
وكانت رأت في منامها أن « صحابة غشيت أرضهم » ، فأرعدت وأبرقت ،
ثم صعدت ، فأحرقت كل ما وقمت عليه ، ففرغت طريفة لذلك فرعاً شديداً ،
وأنت الملك عمراً ، وهي تقول :

« ما رأيتُ اليومَ ، أزال عني النومَ ، رأيتُ غيماً رعدَ وبرقٍ^(٣)
طويلاً ، ثم صعدت ، فساوق على شيء إلا احترق » .

فلم أرأى ما داخلها من الفزع سكنتها ، ثم إن عمراً دخل حديقة له ،
ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ ذلك طريفة ، فخرجت إليه وخرج معها

(١) الزوجة .

(٢) لقب بذلك ، لأنه كان يلبس كل يوم سلتين ، ويمرّقها بالعش ، يكره
العود فيهما ، ويأنف أن يلبسهما فيه .

(٣) رعدت السماء وبرقت (كنصر) ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وأنكر
الاصمعي ...

وصيف^(١) لها اسم سنان ، فلما برزت من بينها عرض لها ثلاث مناجيد منتصبات على أرجلهن ، واضعات أيديهن على أعينهن - وهى دواب تشبه اليرابيع^(٢) - ففعدت إلى الأرض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : إذا ذهب هذه المناجيد فأخبرنى ، فلما ذهب أعلامها ، فانطلقت بسرعة ، فلما طارضا خليج الحديقة التى فيها عمرو ، وثبت من الماء سلحفاة . فوقعت فى الطريق على ظهرها ؛ وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبيها ، فتحشو التراب على بطنها من سجنائه ، وتحذف بالبول قذفاً ، فلما رأته طريفة جلست إلى الأرض ، فلما عادت السلحفاة إلى الماء ، مضت إلى أن دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار ، فى ساعة شديدة الحر ، فإذا الشجر ينسكفاً من غير ديج ، فلما رآها عمرو استحيا منها ، وأمر الجاديتين بالتنحي ، ثم قال لها : يا طريفة ؛ فكهننت وقالت : « والنور والظلماء ، والأرض والسماء ، إن الشجر لها لك ، ولعمودن الماء كما كان فى الزمان السالك » .

قال عمرو : ومن خبرك بهذا ؟ قالت : « أخبرتنى المناجيد ، بسنين شداد ، يقطع فيها الولد الولد » .

قال : ما تقولين ؟ قالت : « أقول قول النذمان لمها ، لقد رأيت سلحفاً^(٣) ، تجرمى التراب جرفاً ، وتحذف بالبول قذفاً ، فدخلت الحديقة ؛ فإذا الشجر من غير ديج ينسكفاً » .

(١) وصيف : أى خادم .

(٢) اليربوع : دوية نحو الفأرة لكن ذنبه وأذناه أطول منها ، ورجلاه أطول من يديه عكس الزرافة .

(٣) يقال : سلحفاة وسلحفاء وسلحفا ، ويقال أيضاً سلحفا ساكنة اللام مفتوحة الهاء .

قال عمرو : وما تزين ؟ قالت : داهية ذهبياء ، من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة .

قال : وما هو ؟ ويلك ! قالت : « أجل » ، إن فيه الويل ، وما لك فيه من قبيل^(١) ، وإن الويل فيما يحيى به السيل ، فالتى عمرو نفسه عن فراشه ، وقال : ما هذا يا طريقة ؟ قالت : « هو كخطب جليل ، وحرن طويل ، وخلف قليل » ، قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : « اذهب إلى السد ، فإذا رأيت مجرذاً يُكثِرُ يديه في السد الحفر ، ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن غمر الغمر^(٢) » وأن قد وقع الأمر . قال : وما هذا الذى تذكرين ؟ قالت : « وعد من الله نزل ، وإطل بطل ، ونكال بنا نكسل ، فبغيرك يا عمرو فليكن الشكل^(٣) . »

فانطلق عمرو فإذا المجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً ، (كذا) فرجع إلى طريقة فأخبرها الخبر وهو يقول :

أبصرت أمراً تكدني منه ألمٌ وهاج لي من هوله برح السقم^(٤)
من مجرذ كفحتل رخنير الأججم أو كبش رصرم من أفاديق الغنم^(٥)

(١) قال فيلا : نام في القائلة ، وهى نصف الثمار ، والمراد هنا الإقامة والمكث .

(٢) الغمر : الماء الكثير .

(٣) الشكل : كسبب وقتل الموت والهلاك . (٤) البرح : الشدة .

(٥) الأججم : جمع أجمة ، وهى الشجر الكثير الملتف ، والعصرم : البجعة والفرقة تجمع على فرق ، وجمع البجع أفرق ، وجمع جمع البجع أفريق ، والجلاميد : جمع جلود كمصفور الصخر .

يسحبُ صخرًا من جلاميد العرم له مغاليبٌ وأنيابٌ^(١) فغم

ما قامه سحلاً من الصخر فغم^(٢)

فقال طريفة : وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر بزجاجة
فوضع بين يديك ، فإن الريح تملأها من تراب البطحاء^(٣) ، من سهلة^(٤)
الوادى ورملة ، وقد علمت أن الجنان مظلمة لا يدخلها شمس ولا ريح .

فأمر حمير بزجاجة فوضعها بين يديه ولم يمكث إلا قليلاً حتى امتلأت من
تراب البطحاء ، فأخبر حمير طريفة بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الأسد ؟
قالت له : فيما بينك وبين سبع سنين . قال : ففي أيها يكون ؟ قالت : لا أعلم بذلك
إلا الله ، ولو علمه أحد لعلمته ، ولا تأتى على ليلة فيما بيني وبين سبع سنين
إلا ظننت الهلاك في غدها ، أو في مساتها ، ثم رأى حمير في نومه سيل العرم ،
وقيل له : آية ذلك أن ترى الحصباء في سعف النخل ، فتظن إليها ، فوجد
الحصباء فيما قد ظهرت ، فلم أن ذلك واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فسكنم
ذلك وأخفاه ، وأجمع على بيع كل شيء له بأرض مأرب^(٥) وأن يخرج منها

(١) العرم : الأسد يعترض به الوادى (ومن معانيه أيضاً المطر الشديد ،
والجرذ ، وواد جاء الصيل من قبله) .

(٢) سحله كنع : قشره ونحته ، وقصته : كسره .

(٣) البطحاء والأبطح : مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

(٤) السهلة بالكسر : تراب كالرمل .

(٥) مأرب : مدينة باليمن ، وكانت في الزمان الأول قاعدة التبايع ، وهى مدينة
بلقيس ، بينها وبين صنعاء نحو أربع مراحل ، وتسمى سبأ ، بإسم بابها سبأ
ابن يشجب بن يعرب بن قحطان .

هو وولده ^(١)، نخرج، ثم أرسل الله تعالى على السد ^(٢) السيل فهدمه .
(شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدر بن ص ٩٨)

* * *

(١) وقد خشي أن يستنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذخادماه لما يدهوه إليه أن يتأني عليه ، وأن يفعل ذلك به في الملأ من الناس ، وإذا لطمه يرفع هو يده ويلطمه ، ثم صنع طعاماً ، وبعث إلى أهل مأرب أن همراً صنع يوم مجد وذكر ، فاحضروا طعامه . فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذي أمره بما أمر ؛ فجعل يأمره بأموه فيتأني عليه ، وينهيه فلا يتهنى ، فرفع عمرو يده فلطمه على وجهه ، فلطمه ابنه ؛ وكان اسمه ملكا ، فصاح عمرو : واذا له ، يوم نخر عمرو بهيجه صبي ويضرب وجهه ، وحلف ليقتلانه ، فلم يزالوا يعمره يرضون إليه حتى تركه ، فقال : والله لا أقيم بموضع صنع بي فيه هذا ، ولا يمين أموال حتى لا يرث منها بعدى شيئا ، فقال الناس بعضهم لبعض : اغتصبا عمرو ، واشتروا منه أمواله قبل أن يرضى ، فابتاع الناس منه كل أمواله التي بأرض مأرب ، وفشا بعض حديثه فيها بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا أموالهم ، فلما أكثروا البيع استنكر الناس ذلك ، فأمسكوا أيديهم عن الشراء ، ولما اجتمعت إلى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن سيل العرم ، ولما خرج عمرو من ابنه خرج لخروجه منها بشر كثير ، فذلوا أرض دك ، لخارتهم دك . فارتحلوا عنها ، ثم اصطلموا وبقوا بها حتى مات عمرو بن حامر ، وقرعوا على البلاد ، فنهض من صار إلى الشام ، وهم أولاد دجفة بن عمرو بن حامر ، ومنهم من صار إلى يثرب ، وهم أبناء قبيلة الأوس والخزرج ، وأبوها حارثة ابن ثعلبة بن عمرو بن حامر ، وصارت دزد الشراة ، إلى أرض الشراة ؛ وأزد عمان إلى عمان ، وصار ملك ابن فهم إلى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو يسير من أرض ابن طيء ، فنزلت جليل طيء : أجا وسلي ، ونزلت ربيعة بن حارثة ابن عمرو بن حامر تهامة ، وسبوا خرواعة ، لانفواهم من لغواتهم ، وتمزقوا في البلاد كل ممزق .

(٢) كان السد فيما يذكر قد بناء لقمان الأكبر بن عاد ، وكان وصفه بالحجارة =

وقال أبو الفرج الأصهباني في الأغانى :

وسارت القبائل من أهل مأرب حين غافوا سبل الحرم ، وغلبهم مزيقياء ،
ومعهم طريفة السكاهنة ، فقالت لهم :

« لا تؤمّسوا مكة حتى أقول ، وما علمنى ما أقول إلا الحكيم المحكم ،
رَبُّ جميع الأمم ، من عرب وعجم » .

قالوا لها : ما شأنك بطريفة ؟ قالت : خذوا البدير المُسَدَّم^(١) ، نخضبوه
بالدم ، تسكن لكم أرض جُرم^(٢) ، جيران بيته المحرم .

(الأغانى ١٣ : ١٠٥)

* * *

وردى الميداني في جمع الأمثال قال :

ألفت طريفة السكاهنة إلى عمرو بن طامر الذى يقال له : « مزيقياء »
ماء السباء ، وكانت قد رأت في كهاتها^(٣) أن سدَّ مأرب سينخرَب ، وأنه

« السد بالزصاص والحديد ويقال : إن الذى بناء كان من ملوك حِمْيَرَ ، وذلك
أن الماء كان يأتى أرض سبأ من الشجر وأودية اليمن ، فردموا ردماً بين
جبلين ، وحبسوا الماء ، وجعلوا في ذلك الردم ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض .

(١) الواسع الشفق .

(٢) وكانوا يسكنون مكة ، فأرسل إليهم عمرو : أن افسحوا لنا في بلادكم
حتى نقيم قنطرة ما نستريح ، ونرسل رواداً إلى الشام وإلى الشرق ، لحينما بلغنا أنه
أمثل لحقنا به ، فأبى ذلك جرم إباء شديداً ، وقالوا : لا ، والله ما نحب أن ينزلوا
فيضيّقوا علينا مراتبنا ومواردنا ، وكانت الحرب بين الفريقين ، وانهرمت جرم
فلم يفلت منهم إلا الشريد .

(٣) كهن كهانة بالفتح ، فهو كاهن ، وسحرته السكاهنة بالكسر .

سبأني سبل العرم ، فيخرَّب الجنتين^(١) ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه حتى انتهوا إلى مكة ، فأقاموا بمكة وما حولها ، فأصابهم الحمى ، وكانوا يبلد لا يبدون فيه ما ألقى ، فدعوا طريفة فشكوا إليها الذي أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابني الذي تشكون ، وهو مفرق بيننا . قالوا : فما تأمرين ؟ قالت :

« من كان منكم ذا ثم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد^(٢) جديد ، فليلق بقهر ممان المشيد^(٣) ، فسكان أزد عمان .

ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقمر^(٤) ، وصبر على أزمات الدهر ، فعليه الأراك^(٥) من بطن ممر^(٦) ، فسكان خراة .

ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوحل ، المطنخيمات في المحل^(٧) ، فليلق يئرب ذات النخل ، فسكان الأوس والمخزج .

ثم قالت : من كان منكم يريد الحمر الخمر ، والمك والتأخير ، ولبس الديباغ والحريز ، فليلق يئمرى وغوير ، (وهما من أراض الشام) ، فسكان الذين سكنوها من آل كجفتة من غسان .

(١) قال تعالى : ولقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ،

(٢) المزاد والمزاید : جمع مزادة ، وهي الراوية .

(٣) المشيد : المرفوع ، قال مسلم بن الوليد في رثاء يزيد بن يزيد :
أما هدت لمصره نزار بلى ، وتقوض المجد المشيد

(٤) قمره على الأمر : قهره .

(٥) الأراك : القطة من الأرض ، وموضع بمرقات ، وجبل .

(٦) بطن مر : مر بن أد بن طابخة .

(٧) المحل : الجذب والقحط .

ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والحيل العنقا ، وكثوز
الأرناق ، والدّم المهرق ، فليدخ بقادس العراق ، فكان الذين سكنوها آل
سجذيمة الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل عموق^(١) .
(جمع الأمثال ١ : ١٨٩)

ونلاحظ من حديث طريقة الخمر الآتي : أن العرب كانوا يعرفون علم
الآحياء فهم يعرفون الحيوان وسلوكياته والرياح ونواحيها واتجاهاتها ،
وما يستدل من هذه العلوم من نتائج تخبر عن حدوث أمر ما وهذا يتضح في
قولها : « لقد رأيت سلعفاً تحرف التراب جرفاً ، فدخلت الحديقة » فإذا
الشجر من غير ريح بتكفا ، وقولها : « فإذا رأيت جرداً يكتر بيديه في السد
الحفر فاعلم أن غمر الغمر » .

وقولها في صفة الرياح « وإن من علامات ما ذكرت لك أن تجلس فتأمر
بجاجة فتوضع بين يديك ، فإن الريح يملؤها من تراب البطحاء النخ » .

ومن هنا نرى أن الأمر ليس مرتبطاً بالسكينة ، ولكنه نتيجة مستنبطة
من خلال دراسات عملية للبيئة وما تحتويه من جبال وأشجار وغيرها يستدل
بها على التوقعات المنتظرة ، وشبه هذه الأوصاف المذكورة ما يحدث في
عصرنا الحديث من تحركات بعض الأشياء ، والهزات الحقيقية التي تحدث غالباً
قبل الزلازل .

كما نلاحظ أن الحاكم في هذه الفترة كان يحترم رأى الكاهنات ويقدمهن
وفي هذا اعتراى بمكانة الكواهن ومنزلتهن العلمية في هذا الزمان .

(١) هو عمرو بن هند لأنه سرق مائة من بني نعيم .

حديث زبراء الكاهنة مع بنى رثام من قضاة

كان ثلاثة أبطن من قضاة مجتوبين^(١) بين الشجر وحضر موت :
بنو ناعب ، وبنو داهي ، وبنو رثام ، وكانت بنو رثام أقلهم عدداً ، وأشجعهم
لقاءً ، وكانت لبنى رثام عجوز تسمى خويلة ، وكانت لها أمة من مولدات
العرب ، تسمى زبراء ؛ وكان يدخل على خويلة أربعون رجلاً ، كلهم لها
محرم ، بنو إخوة ، وبنو أخوات ، وكانت خويلة حقيماً ، وكان بنو ناعب ،
وبنو داهي متظاهرين على بنى رثام ، فاجتمع بنو رثام ذات يوم في عرس لهم ،
وهم سبعون رجلاً ، كلهم شجاع بئيس^(٢) ، فطعموا وأقبلوا على شراهم ،
وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة : انطلقى بنا إلى قومك أنذرهم ،
فأقبلت خويلة تنوكة على زبراء ، فلما أبصرها القوم ، قاموا لإجلالها ، فقالت :
يا تمر الآكباد ، وأنداد^(٣) الأولاد ، وشجاء^(٤) الحساد ، هذه زبراء ،
تخبركم عن أبناء ، قبل انحساد الظلباء ، بالمؤيد^(٥) الشعاء ، فاسمعوا ما تقول ،
قالوا : وما تقولين يا زبراء ؟ قالت :

« والوحي^(٦) الخافق ، والليل ، الفاسق ، والصباح الشاذق ، والنجوم
الطارق ، والمزني الوادق^(٧) ، إن شجر الوادي ليأدو ختلا^(٨) ،

(١) أنداد : جمع نَد بالكسر ، وهو المثل والنظير .

(٢) الشجاء : ما اعترض في الحلق من عظم ونحوه .

(٣) المؤيد : الدامية والأمر العظيم .

(٤) اللوح بالضم والفتح (والضم أعلى) : الهواء بين السماء والأرض .

(٥) غسق الليل كجلس : اشتدت ظلمته .

(٦) الطارق : في الأصل ، كل من أتى ليلاً ، ثم استعمل في النجوم لطوعها ليلاً ،

(٧) المزن : السحاب أو أبيضه أو ذو الماء ، والراقد من ودق المطر

كروعد : قطر . (٨) أدوت له أدو أدوا إذا ختلته وخدعته

(ودأيت له ، ودألت له أيضا) والغتلت : الخدع .

ويحرق أنياباً عَصَلاً^(١) ، وإن صخر الطوفان لينذر ثكلاً^(٢) ، لا تجدون عنه مَعْلًا^(٣) .

فوافقت قوماً أشارى^(٤) سكارى ، فقالوا : « ريجٌ خجوج^(٥) » ، بعيدة ما بين الفروج ، أتت ذرأً بالأبلى التوج^(٦) .

فقال ذرأ : « مهلاً يا بنى الأعزّة ، والله إنى لأشتم ذفر^(٧) الرجال تحت الحديد » ، فقال لها فتى منهم يقال له مهذيل بن منقذ : « يا خذاق^(٨) ، والله ما تشتمين إلا ذفرَ إبطيك » ، فانصرفت عنهم ، وارتاب قوم من ذوى أسنانهم ، فانصرفت منهم أربعون رجلاً ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مشربهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب ، فقتلوا أجمعين .

(١) حرق أنيابه : إذا حك بعضهما ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يضرب الرجل على صاحبه : « هو يحرق على الأرم » ، والأرم كسر : الأضرار ، والعصل : المعوجة جمع أصل .

(٢) الطود : الجبل ، والشكل : النقد . (٣) الملل : المنهى .

(٤) الأشر محركة : المرح . (٥) الخجوج : السريمة المر .

(٦) الأبلق . وصف من البلق محركة ، وهو ارتفاع البياض في قوائم الفرس إلى الفخذين ، والأبلق لا يكون نتوجاً ، والعرب تضرب هذا مثلاً للشيء الذى لا ينال ، تقول « طلب الأبلق المعقوق » ، فلما فاته أراد يبيض الأنوق ، والمعقوق كعبور : الحامل ، والأنوق كعبور أيضاً : الذكر من الزنم ولا يبيض له ، هذا قول بعض الثوريين . فالمعنى أنه طلب ما لا يمكن ، فلما لم يجد طلب أيضاً ما لا يكون ولا يوجد ، وطامتهم يقولون : الأنوق الرخمة وهى تبيض في مكان لا يصل فيه إلى يبيضها إلا بعد عناه . فالمعنى أنه طلب ما لا يقدر عليه ، فلما لم ينله طلب ما يجوز أن يناله .

(٧) الذفر : حدة الريح ، يكون في الثن والياب .

(٨) خذاق : كناية عما يخرج من الإنسان . يقال : خذاق ، ومزق ، وذرقي .

وأقبلت خويلة مع الصباح ، فوقفت على مصارعهم ، ثم عدت إلى
خناصرهم ، ففصلتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقها في عنقها ، وخرجت
حتى لحقت برضاوى بن سمرة المهرى ، وهو ابن أختها ، فأناخت بفنائه ،
فاستمدته على بنى داهن وبنى ناعب ، فخرج في منسرى^(١) من قومه ، فطارقهم
فأوجع فيهم .
(الأمالي ١ : ١٢٦)

وفي حديث الزبراء ، نلاحظ أنه مع الاعتراف بـ: كانه السكواهن ، واحترام
رايين ، إلا أن هناك بعضاً من العرب ، كانوا يعتبرون ذلك من قبيل الدجل
والشعوذة ، وهذا ما نراه من موقف هذيل بن منقذ والله ما تشمين إلا ذفر
إبطيك ، مفتداً قول الزبراء : « لاني لأشم ذفر الرجل تحت الحديد » كما نلاحظ
في حديث الزبراء السكاهنة ، مدى تأثير المرأة العربية ، وأهميتها الاجتماعية
في قومه ، وأنها بكلمة واحدة تثير الحرب الضروس ، وهذا ما نشاهده
في موقف « خويلة » وأنها تعدد إلى خناصر القتلى وتنظم منها قلادة واحدة
تلقها في عنقها ، ثم تذهب إلى ابن سمرة المهرى فتقيم في داره وتستعديه على
« بنى داهن » و « بنى ناعب » ، فأعلن الحرب عليهما ، وأهد جيشاً من قومه
وقاتلهم وأعمل فيهم القتل والتشكيل .

(١) المنسرى من الخيل : ما بين الثلاثين إلى الأربعين ، أو من الأربعين إلى
الحسين ، أو إلى الستين ، أو المائة إلى المائتين ، وقطعة من الجيش تمر قدام
الجيش الكبير .

كاهنة ذى القلصة تتكهن بما فى بطن رقية بنت جشم
 زعموا أن رقية بنت جشم بن معاوية ، ولدت نعيماً وهلالاً وسواء ،
 ثم اعتاطت ^(١) فأنت كاهنة بذى القلصة ^(٢) ، فأرتها بطنها ، وقالت : إني
 قد ولدت ، ثم اعتطت ، فنظرت إليها ومست بطنها ، وقالت :
 « رُبَّ قِبَائِلَ فِرْقٍ ، وَجَائِلَ خَلْقٍ ، وَمُطْعٍ ^(٣) حُرْقٍ ^(٤) ، فى
 بطنك ذوق ^(٥) » .
 فلما غضت ^(٦) بريمة بن حامر ^(٧) ، قالت : إني أعرف ضرطى بهلال ؛
 « أى هر غلام ؛ كما أن هلالاً كان غلاماً » .
 (مجم الامثال ١ : ٣٢١)

-
- (١) اعتاطت المرأة : لم تحمل سنين من غير عقر .
 (٢) ذى القلصة حركة وبضتين : بيت كان يدهى السكبة الجابية لخنم ، كان
 فيه صنم اسمه القلصة .
 (٣) الطعن والظمان : جمع ظعينة ، وهى الهودج سواء كان فيه امرأة أم لا ،
 والمرأة ما دامت فى الهودج ، ويقال : الظعينة فى الأصل وصف للبرأة فى هودجها ،
 ثم سميت بهذا الاسم ، وإن كانت فى بيتها ، لأنها تصير مظلومة (أى يظعن بها
 زوجها ، فهى فميعة بمعنى مفعولة) .
 (٤) الحرق والحزقة (بكسر الحاء) والحازقة ، والحزيق ، والحريقة ، والحزاقة
 (بالفتح) : الجماعة ، والجمع : حواقي وحزيق وحرق (بضتين) .
 (٥) أى وضع ، وأصل الذوق : رعى الطائر بذوقه .
 (٦) غضت كسبح ومنع وعنى : أخذها الطلق
 (٧) هو : ربيعة بن حامر بن صحصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور
 ابن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر ، ومن نسله بنو كلاب بن ربيعة
 ابن حامر ، وبنو جعفر بن كلاب بن ربيعة .

وفى حديث كاهنة ذى النخلة ، أرى أن كلامها هذا لا يعد من قبيل الكهانة ، إذ أنه لا يمدو أن يكون من باب البشارة التى يسوقها النساء عادة فى مثل هذه المواقف ، والغرض منها إسعاد النساء ، بكلام محبب إلى قلوبهن ، وهو أسلوب من أساليب التفاوض ، وتوقع الخير ، وهذا يحدث فى كل العصور لافى العصر الجاهلى وحده .

كما أننا نلاحظ فى حديثها اعتزاز العرب بالولد فهو يحمل اسم القبيلة ، ويدافع عن ذمارها ، ومن ذريته يأتى المحامون والمدافعون عن بيضة العشيرة والقبيلة .

* * *

رأى سلمى الهمدانية فى حريم الماردى

كما نلاحظ أهمية مشورة المرأة فى العصر الجاهلى وأن الملوك كانوا ينزلون عند رأيها ومشورتها ويستنبهون راجع عقلمها كما بدا واضحاً فى استرشاد عمرو بن براقة برأى سلمى الهمدانية وبلغ من تأثير رأيها فيه أنه أثار على حريم الماردى وقائله واستأق كل شيء له ، وكان كل شيء يسير بناء على توجيهات سلمى وإرشاداتها .

وكان أثار رجل من دمراد ، يقال له دسحريم ، على إبل عمرو بن براقة الهمداني وخيل له ، فذهب بها ، فأقى عمرو بن سلمى الهمدانية ، وكانت بنت سيدهم ، وعن رأيها كانوا يصددون ، فأخبرها أن حريم الماردى أثار على إبله وخيله ، فقالت : د والخفور والوميض^(١) ، والشفق كالإحريض^(٢) ، والقلة والحضيض^(٣) ، إن حريم الماردى الخبير^(٤) ، سيد مزير^(٥) ذو معقل حريز

(١) الخفور : اللعان الضعيف ، والوميض : أشد من الخفو .

(٢) الإحريض : المصفر . (٣) القلة : أهل الرأس ، والجبل ،

وكل شيء . والحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٤) الناحية . (٥) مزير : فاضل ، من قولهم هذا أمر من هذا أى أفضل منه .

غير أنى أدى الحجة^(١) ستظفر منه بهثرة ، بطيئة المجبرة ، فأغر^ه
ولا تُسكع^(٢) .

فأخذ عمرو ، فاستاق كل شيء له ، فأق حريم بعد ذلك يطلب إلى عمرو
أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع حريم .
(الأمالي ٢ : ١٢٣)

تنافر العجفاء بنت علقمة وصواحبها إلى الكاهنة السمعية
كان العرب يفتخرون بالأنساب ، ويشيدون بمآثر الآباء والأجداد
متمثلين بقولهم :

إن الفقى من يقول كان أبى ليس الفقى من يقول ها أنذا^(٣)

ونرى هنا أن المرأة العربية سلكت مسلكاً آخر مغايراً لما كان عليه الحال
قبل ذلك ، فتقدم لنا العجفاء - فى حديثها الآتى - الرجال فى صورة عملية
تسجيلية ، نرى من خلالها النخال الطيبة والمكارم المحمودة للرجال ، كأننا
نراها ونلمسها ، نحفز على الخير ، ونحرض على الفضائل فلم تمد الصورة مجرد
نظر ومنافرة بل كرماً يبعث على الكرم ، ومروءة ، تدفع إلى المروءة ، وصدقاً
ينهى عن الكذب ، وفضائل خيرة تنهى عن الرذائل المشينة :

* وبضدها تتميز الأشياء *

(١) الحجة : القدر (محركة) ، وقيل : هى واحد الحمام (بالكسر) .

(٢) سكع عن الأمر (كنع) منه ودفعه .

(٣) أى أنهم عكسوا قول الشاعر :

ليس الفقى من يقول كان أبى إن الفقى من يقول ها أنذا

وكان قد روى أن العجفاء بنت علقمة السعدية ، وثلاث نسوة من قومها ، خرجن فالتعنن بروضة يتحدثن فيها ، فوافين بها ليلا في قر زاهر ، وليلة طليقة ساكنة ، وروضة معمشة خصبة ، فلما جلسن قلن : ما رأينا كالأيلة ليلة ، ولا كهذه الروضة روضة أطيب ريحا ولا أنضر .

ثم أفعنن في الحديث ، فقلن : أى النساء أفضل ؟ قالت إحداهن : الحرود^(١) الودود الولود ، قالت الأخرى : خيرهن ذات الفناء^(٢) ، وطيب الثناء ، وشدة الحياة . قالت الثالثة : خيرهن السموع الجوع ، النفوع غير المنوع ، قالت الرابعة : خيرهن الجامعة لأهلها ، الوادعة الرافعة ، لا الواضعة . قلن : فأى الرجال أفضل ؟ قالت إحداهن : خيرهم الحظي^(٣) الرضى ، غير الحظيل^(٤) البطي . قالت الثانية : خيرهم السيد الكريم ، ذو الحسب العميم ، والمجد القديم . قالت الثالثة : خيرهم السخي ، الوفي الرضى ، الذى لا يذير^(٥) الحرّة ، ولا يتخذ الضرّة . قالت الرابعة : وأيكن ، إن فى أبى لنعشكن ، كرم الأخلاق ، والصدق عند التلاق ، والفالج^(٦) عند السباق ، ويحمده أهل الرفاق . قالت العجفاء عند ذلك : كل فتاة بأبيها معجبة .

(١) الحرود ، والخريد ، والخريفة : الحمية الطويلة السكوت ، الخافضة الصوت ، المسترة .

(٢) الكفاية والمنفعة .

(٣) الحظي : ذو الحظوة والمكانة عند زوجه ، والحظية كذلك .

(٤) رجل حظال ككثف وشداد وصبور : مقتر ، يحاسب أهله بما ينفق عليهم ، وفى جمع الأمثال ، غير الحظال ، ولا التبال ، والتبال بالتشديد من التبل بفتح فسكون) وهو الحقد .

(٥) أغار امرأته : تزوج عليها .

(٦) الفوز والظفر .

وفي بعض الروايات أن إحداهن قالت : إن أبي يكرم الجار ، ويمعظم الخطار^(١) ، وينحر العشار^(٢) ، بعد المحوار^(٣) ، ويحمل الأمور السكار ، ويأنف من الصفار ، فقالت الثانية : إن أبي عظيم الخطر ، منيع الوزر^(٤) ، عزيز النسر ، يحمده منه الورد والصدّر ، فقالت الثالثة : إن أبي صدوق اللسان ، حديد الجنان ، وقوم^(٥) الجفان ، كثير الأعران ، يروى السنان عند العاصمان ، قالت الرابعة : إن أبي كريم النزال ، ممزيف المقال ، كثير الغوال ، قليل السؤال ، كريم الفعال .

ثم تناهون إلى كاهنة معين في الحى ، فقلن لها : اسمى ما قلناه ، واحكى بيننا واعدلى ، ثم أعدن عليها قولهن ، فقالت لمن : دكل واحدة منكن ماردة^(٦) ، بأبيها واجدة^(٧) ، على الإحسان جاهدة ، لصواحبها حاسدة ، ولسكن اسمن قولى : خير النساء للبقية على بعلها ، الصابرة على الضراء مخافة أن ترجع إلى أهلها مطلقة ؛ فهي تؤثر حظ زوجها على حظ نفسها ؛ فذلك السكرية الكاملة ؛ وخير الرجال الجواد البطل ، القليل الفشل ، إذا سألته الرجل ، ألفاه قليل العلل ، كثير النفل^(٨) ، ثم قالت : كل واحدة منكن بأبيها معجبة .

(جمع الأمثال ٢ : ٥٤ وجمهرة الأمثال ٢ : ١٢٣)

-
- (١) الخطار : جمع خطر كسب وهو السبق يتراهن عليه .
 (٢) العشار : جمع عشار كنفساء وهي من النوق التي مضى لحملها عشرة أشهر أو ثمانية .
 (٣) المحوار بالعزم وقد يكسر : ولد الناقة ساعة نضجه .
 (٤) الوزر : الملجأ . (٥) الرذوم : القصعة المثلثة تنصبب جوانبها .
 (٦) ماردة : أى بلغت الغاية .
 (٧) وجد به بالكسر : أحبه .
 (٨) النفل : الهبة .

عفراء السكاهنة تعبر عن رؤيا مرثد بن عبد كلال

روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزوة غزاها بفنائم عظيمة ، فوفد عليه زعماء العرب وشعراؤها وخطباؤها يمشونه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتد سروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ قام يوماً فرأى رؤيا في المنام أخافته وأذعرتة وحالته في حال منامه ، فلما انتبه أنسيا حتى لم يذكر منها شيئاً ، وثبت ارتباعه في نفسه بها ، فانقلب سروره حزنًا ، واحتجب عن الوفود حتى أساءوا به الظن ، ثم إنه حشر الكهان ، لجمال يخلو بكاهن كاهن . ثم يقول : أخبرني عما أريد أن أسألك عنه ، فيجيبه السكاهن بأن لا علم عندي ، حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان إليه منذ ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه ، وكانت أمة قد تكهن ، فقالت له : أبيت اللعن أيها الملك ، إن السكاهن أهدى إلى ما تسأل عنه ، لأن أتباع السكاهن من الجان ، ألفت وأطرف من أتباع الكهان ، فأمر بحشر السكاهن إليه ، وسألهم كما سأل الكهان ، فلم يجد عند واحدة منهم علماً بما أراد علمه ، ولما يس من طلبته سلا عنها ، ثم إنه بعد ذلك ذهب بتصيد ، فأوغل في طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، ورفعت له آيات من مخرأ^(١) جبل ، وكان قد لفحه الهجير ، فعدل إلى الآيات ، وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها ، فبرزت إليه منه عجوز ، فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجفنة المدعدة^(٢) ، والعلبة المترعة^(٣) ، فنزل عن جواده ، ودخل البيت ، فلما احتجب بهن الشمس ، وخفقت عليه

(١) أي في كنفه وستره .

(٢) الجفنة : القصعة ، والمدعدة : التي ملئت بقوة ثم حركت حتى تراض ما فيها ، ثم ملئت بعد ذلك .

(٣) العلبة : قدح من جلود الإبل أو من خشب يملب فيها ، والمترعة : الملوثة .

الأرواح^(١) ، نام فلم يستيقظ حتى تصرّم الهجين ، فجلس يمسح عينيه ، فإذا هو بين يديه فتاة لم ير مثله قواماً ولا جمالاً ، فقالت : « أبيت اللعن أيها الملك الهمام ! هل لك في الطعام ؟ » فاشتد إشفاقه وعاف على نفسه لما رأى أنها صرفته ، وتصام عن كتبها ، فقالت له : « لا حسد ، فذاك البشر ، لجدتك الأكبر ، وحفظنا بك الأوفر » ثم قرّبت إليه ثريداً وقديداً وحيساً^(٢) ، وقامت تذبّ عنه ، حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً وضريباً^(٣) ، فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقيمة ومدبرة ، فلأت عينيه حسناً ، وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : اسمي عفراء ، فقال لها : يا عفراء ، من الذى دعوتك بالملك الهمام ؟ قالت : « مرؤد العظيم الشأن ، حاشر الكواهن والكهّان ؛ لمعضلة بعد عنها الجان » ، فقال يا عفراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : « أجل أيها الملك ، إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث^(٤) أحلام » . قال الملك : أصبغ يا عفراء ، فإتلك الرؤيا ؟ قالت : رأيت أحاصير^(٥) زوابع بعضها لبعض تابع ، فيها لب لاعم ، ولها دخان ساطع ، يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيها أنت سامع ، دعاء ذى جرس^(٦)

(١) الأرواح ، والرياح : جمع ريح .

(٢) القديد : اللحم المقدد ، أو أقطع منه طولاً ، والحيس تمر يخلط بسمن وأقط ، فيصن شديداً ثم ينذر منه نواه ، والأقط شيء يتخذ من الخبيث القننى والخبيث : تمر يخلط بسمن .

(٣) الصريف : اللبن ساعة الحلب والضريب : اللبن يحلب من عدة لقاح في إناء .

(٤) أضغاث أحلام : رؤيا لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٥) الأحاصير : جمع عصا وهو الريح التي تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، أو التي فيها العصار بالكسر وهو الغيار الشديد .

صاذيخ : هلبوا إلى المشارع^(١) ، فروى جارع^(٢) . وغريق كارع^(٣) ، فقال الملك : أجل ، هذه رؤى ، فما تأويلها يا عفيرة ؟ قالت : د الأماصير الزوابع ، ملوك تباع^(٤) ، والنهر علم واسع ، والداعى نبي شافع ، والجارع ولى تابع ، والكارع عدو منازع . فقال الملك : يا عفيرة ، أسلم هذا النبي أم حرب ؟ فقالت : د أقسم برفع السماء ، ومنزل الماء من السماء^(٥) ، وإنه لمطبل^(٦) الدماء^(٧) ، ومنطق العقائل تطق^(٨) الإمام^(٩) . فقال الملك : إلام يدعو يا عفيرة ؟ قالت : د إلى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام : وتعطيل الألام^(١٠) ، واجتناب آثام ، فقال الملك : يا عفيرة ، إذا ذبح قومه

(١) المشارع : جمع مشرعة وهى مورد الشاربة .

(٢) جارع : قائل من جرح الماء كسمع ومنع إذا بله .

(٣) كارع : قائل من كرع فى الماء كسمع ومنع تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفيه ولا بإثاء . (٤) التبايع : جمع بيع كسكر : ملوك اثنين .

(٥) الماء : السحاب الكشيف .

(٦) انظر قوله عليه الصلاة والسلام فى خطبته فى حجة الوداع « وإن دماء

الجاهلية موضوعة » .

(٧) العقائل : كرائم النساء جمع عقيلة ، والنطق : جمع نطق ككتاب ،

والنطاق والمنطقة : ما تشد به المرأة وسطها للينة ، وتلقها تنطقا : ألبسها النطاق فتنطقت وانتطقت ، ومنطق النساء أى يسبين فيبعدن النطق على أوساطهن للخدمة كالإمام .

(٨) الألام : جمع ذلم ، كسب : قداح كان العرب يستسمون بها

فى الجاهلية (أى يطلبون معرفة ما قسم لهم) وذلك أنهم كانوا إذا قصدوا فعلا من تجارة أو سفر أجلاوا ثلاثة قداح (القداح جمع قدح بالكسر ، وهو : السهم قبل أن يرش) وكانت عند أصنامهم ، أحدها مكتوب عليه : أمرى ربى ، والثانى نهانى ربى ، والثالث : غفل . ويتصرف الواحد منهم حسب ما هو مكتوب .

(٦ - أدب النساء)

فمن أعضاده^(١)؛ قالت : أعضاده غطارييف^(٢) يمانون ، طائرهم به مبسون ،
يغزيمهم فيغزون ، ويمدست^(٣) بهم الحزون ، وإلى نصره يعمزون ، فأطرق
للملك يوازم^(٤) نفسه في خطبتها ، فقالت : دأيت اللن أيها الملك ! إن تابعي
ضيور ، ولأمرى محبوب ، وناكحي مثبور ، والسكاف بي ثبور^(٥) ، فنهض
الملك وجمال في صهوة^(٦) جواده ، وانطلق ، فبعث إليها بمائة ناقة كوما .
(بلوغ الأرب ٣ : ٢٩٦)

ومن كلام عفيفاء السكاهنة — نرى أن هناك من النساء في الجاهلية من
تنصف بالشفاعة وصفاء الروح ، فقد تلبأت عفيفاء بوجود النبي الكريم
ووصفته بأنه مطال الدماء ، ومنطق القبايل نطق الإماء ، ولعلها في تنبؤها هذا
قد اطلعت على هذه الأخبار عن طريق اتصالها بالأخبار والزهبان والحنفاء
كوردقة بن نوفل وأمية بن أبي الصلت وغيرهما .

كما يدل حديث عفيفاء على وجود ما يسمى « بلم تفسير الأحلام » ، كعلم
له قواعد وأصوله عند العرب وبخاصة السكاهنة .

وأياً ما كان فإن أدب السكاهنة موسوعة أدبية وتاريخية وعلمية ، قدمت
لنا وصفاً تسجيلياً ، لعادات العرب وطبائعهم ، وأخلاقهم وعلومهم وثقافتهم
في باقة مسجوعة موسيقية ترتاح لها النفس ، وبهفو لها القلب .

- (١) الأعضاء : الأنصار جمع عهد ، والذبح معروف ، والمراد هنا إذا
قطعوه وتركوا نصرته . (٢) الغطارييف : جمع غطريف وهو السيد الشريف .
(٣) يسهل ، والحزون : جمع حزن كشمس وهو ما غلظ من الأرض .
(٤) يشاور . (٥) الثبور : الهلاك . (٦) الصهوة : مقعد الفارس .

الفصل الثاني

الحكمة والمثل

العرب - كغيرهم من الشعوب الشرقية عامة والسامية خاصة - شديدوا الميل إلى إرسال الحكمة والمثل وهما على لسانهم في كل حال ، يذمّون بهما أقوالهم ، ويملأون بهما أعمالهم فيطلقونها عند كل فرحة وراحة ، ويوردونها في جميع أحداثهم متضمنة تجاربهم ، وخبرتهم في حياتهم وجمتمعهم ، فهي عندهم من ذخائر الدهر ، وحكم الزمان ، وثمار الشيخوخة المحنكة التي توجه الناس إلى الطريق الأقوم في تنظيم شئونهم القبلية والحضرية وللحكمة عند العرب مكانة عالية ، ومنزلة مرموقة وهي (وهي الكلام ، وجوهر اللفظ وحلّ المعاني) وهي أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة لم يصر شيء مسيرها ، ولا عم صومها حتى قيل « أسنير من مثل » .
وقال الشاعر :

ما أنت إلا مثل سائر يعرفه الجاهل والخبير

وقد ضرب الله عز وجل الأمثال في كتابه ، وضربها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في حديثه . قال الله تعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له »^(١) ومثل هذا كثير في القرآن الكريم .
وجاء في المناظرة التي جرت بين النعمان بن المنذر ، وكسرى أنوشروان في شأن العرب :

(١) آخر سورة الحج .

« قال النعمان : وأما الأمم التي ذكرت فأية أمة تفرنها بالعرب إلا فضلتها .

قال كسرى : بماذا فضلتها ؟

قال النعمان : بمرها ، ومنعتها ، وحسن وجوهها ، وبأسها ، وسخامتها وحكمة أسنتها .

وأما حكمة أسنتهم فإن الله تعالى أعطاهم في أشعارهم وروثق كلاهم وحسنه ووزنه وقوافيه ، مع معرفتهم بالآشياء وطربهم « الأمثال » وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيء من السنة الأجناس^(١) ، ومن ثم ترى أن الحكمة والمثل من موضوعات نظر العرب لأنهما دليل الحصافة والفهم ، ولا عجب في ذلك فإنهما فلسفة الحياة وعصادة خبرة الدهور وخلاصة نور العقل ، ونور اليقين ، بل إنهما عينتا النفس العربية ومرآة ما يحول فيها ، وطريق الاستقامة إلى المثل العليا .

ومن زعماء الحكمة والمثل أكرم بن صيفي وقل من جاداه من حكام عصره في ضرب الأمثال وسوق الحكمة ، وكان في خطبه قليل « المجاز حسن الإيجاز » ، حلو الألفاظ ، دقيق المعاني مولعاً بالأمثال يقول : « حسبك من شر سماعة » ، « الصمت حكم وقليل فاعله » ، وزهير بن أبي سلمى المزني ، وقد أكثر من الأمثال والحكم بما لم يفقه شاعر جاهلي ، وبما فتح به باب الحكم والأمثال في الشعر العربي فكان كلامه المدب الذي سلكه الشعراء لبلوغ الحكمة ومن أمثلته :

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
ومن يحمل للعروف في غير أهله يكن حمداً ذمّاً عليه ويندم
وليبيد بن ربيعة ، وهو من أبدعوا في الحكم والأمثال ، وقد ثبت في

الصحيحين شهادة النبي ﷺ له بقوله : أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد :

• ألا كل شيء ما خلا الله باطل •

وطرفة بن العبد الشاب الذى أنهالت عليه المصائب فأنطقته بالحكمة التى
أثرها فى ديوانه فكانت مصبوغة بصبغة الوعى والحسنة :

الحخير خبير وإن طال الزمان به والشر أخيب ما أوعيت من زاد
وأمية بن أبى الصلت الذى يمتاز شعره بتضمنه دوائع الحكمة والمثل يقول :
عطائك زين لامرئ قد حبوته بخير وما كل المطاء يزين
وليس بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

وعدى بن زيد اللباضى يقول من قصيدة نظمها فى السجن ووجهها إلى النعمان
أبى قابوس يتظلم من بئسه (وكان قد وشى بعض الخاقدين به إلى النعمان فسنجه) :

أيها الشامت المعير بالدهر أنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام بل أنت جاهل مفرور
من رأيت للنون خلدن أم من ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى ، كسرى للماء -وك أبو ساسان أم أين قبله سابور

وأسلوب عدى ساذج لينته الحاضرة ، وجعلته ناعم الجرس رائع التشبيه
والتصوير أحياناً ، وإنك لتشعر أن لغة الشاعر تتأقل ولا تنقاد له ناصية
القوافى ، ولهذا لم يعد العلماء الأقدمون حجة فى الشعر (١) .

وقد شاركت المرأة الأدبية الرجال الأدباء فى ضرب الأمثال والحكم ،
وكن أمثلة رائعة فى هذا الفن ، ومنهن عنترة بنت مطرود البعلبية ، والحمرام

بنت ضمرة بن جابر وحبي بنت مالك العدوانية ، والمجفأ بنت علقمة السعدى
والحنساء بنت عمرو بن الشريد ، والأمثلة التى أرسلتها المرأة العربية من الوجهة
الأدبية والفنية تقوم على التشبيه والاستعارة والتشليل ، وهى لا تعدو الأمثال
العربية الأخرى التى ساقها الحكماء - ووصلت صورة الكلام فيها إلى الغاية
القصوى فى البلاغة من حيث إيجاز اللفظ وحمّة المعنى ، وحسن البيان ، ولطف
الإشارة وإصابة الغرض ، وصدق التجربة ، وتحمل النفوس ترتاح لها وتنشط
لحفظها ، ليسير مثوتها ، وحسن وقعها ، وسهولة الاحتجاج بها ، ولأنها تودث
ما تنخلله من الكلام رواجاً ، وتكسبه قبولاً ، كما أنها مستقاة من حياة البداوة ،
ومستوحاة من رمال الصحراء ، وطبيعة أرضها وسماتها وحيوانها ونباتها ،
وحدات العرب وتقاليدهم وحرورهم وغزواتهم ، وحلهم وترحالهم وشجاعتهم
وجودهم ، وعزمهم وشرفهم وسائر أخلاقهم العربية ؛ فإن رأت زوجها تخلف
عن لقاء العدو واعتكف فى منزله ، هم اغتاض من نظرها وإعجابها بالمقاتلين
الشجعان ، انطلقت قائلة :

• أغيرة وجنبا •

فذهبت مثلاً ، وإن سئلت ما ليس فى بيتها ، فلما مر عليها عطاؤه ،
وقبل لها : أتبخلين ؟ انطلقت قائلة :

• بيتى يبخل لا أنا •

وقولها :

ترى الفتيان كالتنخل وما يدريك ما الدخيل

• • •

وقد ظهرت فى العصر الجاهلى أدبيات حكميات اشتهرن بضرب المثل
والحكمة ، فذهب كلامهن مثلاً دائماً ، يشتمل به فى جميع المواقف ، والمرأة
من طبيعتها تمنح دائماً إلى الحكمة وعدم التسرع فى بعض الأمور ، ولأنها

كثيراً ما تهتدى عن طريق شعورها وبصيرتها إلى حقائق قد لا يستطيع الرجل أن يهتدى إليها بعقله وتفكيره المجرد^(١).

وقد نبغ في مجال الحكمة نساء كثيرات ، ومنهن عثمة بنت مطرود البجليه والحرثاء بنت ضمرة ، وحبي بنت مالك العدوانية ، وعصام السكتية ، والمعجفاء بنت علقمة السعدى ، والخنساء ، بنت عمرو بن الثريد ، ودقذور ، بنت قيس بن خالد الشيباني ، والأمثلة الآتية : تبين مدى ما بلغت إليه المرأة من الدقة للمتناهية في صوغ الأمثال ، فجاءت أمثلة معبرة عن روح العصر الذى يعشن فيه كما تضمنت خلاصة تجاربهن في الحياة وصارت أمثلة غالبة تعبر عن أدبهن ونبوغهن :

(لا تعدم الحسناء ذاماً)^(٢)

قالته نجى بنت مالك العدوانية .

(لا عتاب على الجنادل)

يعترب في الأمر إذا وقع لا مرد له .

وأصله ما حدثوا أن إحدى ملكات سبأ ، وفد إليها قوم يطلبونها . فقالت : ليصف كل رجل منكم نفسه ، وليصدق ، وليوجز . لأنقذم إن تقدمت ، أو أذع إن تركت على علم . فتكلم رجل منهم يقال له مدرك ، فقال : إن أبى كان في الدرب الباذخ ، والحصب الشامخ . وأنا شرس الخليفة ، غير رعديد عند الحقيقة^(٣) ، قالت . لا عتاب على الجنادل . فأرسلتها مثلاً . ثم تسكلم

(١) ديكلوجية المرأة ، الدكتور ذكريا إبراهيم ، مكتبة مصر - الفجالة ص ٣٥

(٢) الذام : العيب .

(٣) الرعديد : الجبان المستطار القلب ، والحقيقة : ما يحق على المرء أن يجنيه ،

وقد يريدون بها اللواء .

آخر منهم يقال له ضبيس ابن شريس . فقال : أنا في مال أمييت ، ومخلقي غير خبيث ، وحسب غير عنيث ، أحسذو الفعل بالفعل ، وأجزي القرض بالقرض ^(١) . فقالت : لا يسرك غائباً ، من لا يسرك شاهداً ، فأرسلتها مثلاً . ثم تكلم آخر منهم يقال له شماس بن عباس . فقال : أنا شماس بن عباس ، معروف بالندی والباس ، حسن الخلق في سجية ، والعدل في قضية ، مالى غير محظور على القل والكفر ، وبالى ^(٢) غير عجوب على العسر والبسر . قالت : الخير متبع ، والشر محذور . فأرسلتها مثلاً . ثم قالت : اصنع بامدك ، وأنت يا ضبيس : لن يستقيم معك معاشرة لعشير حتى يكون فيك لين المريكة . وأما أنت يا شماس فقد حلت منى عمل الأهرج ^(٣) من الكنانة ، والواسطة من القلادة ، لدماثة خلقتك ، وكرم طباطك ، « ثم اسع بخير أودع » . فأرسلتها مثلاً وتزوجت شماساً .

(لو ترك القضا ليلاً لنام)

يضرب لمن حُمل على مكروه من غير إرادته .
وأول من قاله « حذام بنت الريان » . وذلك أن طاطس بن خلاج سار إلى أبيها في حمير وخشم وجمعى وحمدان . ولقيهم الريان في أربعة عشر حياً من أحياء اليمن ، فاقبلوا قتالاً شديداً ، ثم تهاجروا .
وإن الريان خرج تحت ليلته هو وأصحابه هرباً ، فسادوا يومهم وليلتهم ، ثم عسكروا . فأصبح طاطس ، ففدا لقتالهم فإذا الأرض منهم بلاقع ، مجرد

(١) القرض : القطع ، والقرض : الحز ، يريد أنه لا يصبر على ضم ، بل يهوى الشر بأشد منه .
(٢) البال : زعماء العيش .
(٣) الأهرج : خير السهام وأفضلها تدخراً لشديدة .

خيله . وحث في الطلب ، فأتوها إلى عسكر الريان ليلاً ، فلما كانوا قريباً منه ،
أثادوا القطلا ، فرت بأصحاب الريان ، فخرجت حذام بنت الريان إلى قومها فقالت :
ألا يا قومنا ارمحلوا وسهروا فلو ترك القطلا ليسلاً لنا
أى إن القطلا لو ترك ما طار هذه الساعة ، وقد أتاكم القوم . فلم يلتفتوا
إلى قولها ، وأخذوا إلى المضاجع لما نالهم من التعب . فقام ديم بن طارق ،
وقال بصوت عال :

إذا قالت حذام فصدّ قوما فإن القول ما قالت حذام
وئار القوم ، فلجئوا إلى واد قريب منهم ، فأنحازوا به ، حتى أصبحوا ،
وامتنعوا منهم .

(مَرعى ولا كالسعدان)

يضرب للشئ يفضل على أقرانه وأشكاله .

وأول من قال ذلك : الغنماء بنت عمرو بن الشريد . وذلك أنها أقبلت
من الموسم - في عكاظ - فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن
ربيعة . فخرجت عليها ، وهي تلثد مرائي في أهل بيتها . فلما دنت منها قالت :
على من تبكين ؟ قالت : أبكى سادة معنوا . قالت : أنشدني بعض ما قلت .
فأنشدت هند أبيتاً . فقالت الغنماء : مَرعى ولا كالسعدان .

(ماء ولا كصداء)

يضرب للرجلين لما فضل ، ولسكن أحدهما أفضل .

والمثل لقذور بنت قيس بن خالد ذي الجدين الشيباني . وكان من حديثها أن
زُارة بن عدس رأى ابنه لقيطاً يتخال ، فقال له : كأنك أصبحت ابنة قيس بن
خالد ، ومائة من هجان المنفد بن ماء السماء ! خلف لقيط لا يس الطيب ،

ولا يشرب الخمر ، حتى يصيب ذلك . فسار حتى أتى قيس بن خالد — وهو سيد ربيعة — وكانت عليه يمين لا يخطب لإنسان إليه علانية إلا أصابه بسوء . فخطب إليه لقيط في مجلسه ، وقال : عرفت أني إن أأثنتك لم أشنك ، وإن أناجلك لم أخدعك . فزوجه ابنته القذور ، وساق المهر عنه ، وهداها إليه من ليلته . فاحتمل بها إلى المنذر ، فأخبره بما قال أبوه . فأعطاه مائة من هجانه ، فرحل إلى أهله . فقالت : ألقى أبي وأودعه . فلما جاءته قال لها : يا بنية ، كوني له أمة يكن لك عبداً ، وليسكن أطيب طيبك الماء . إنه فارس معتر ، وبوشك أن يقتل ، فإن كان ذلك فلا تخمشي له وجهاً ، ولا تحلقى شعراً . فقتل لقيط ، فاحتملت إلى قومها ، فتزوجها بعده رجل منهم ، فحملت تكبر ذكر لقيط ، فقال لها : وأى شيء رأيت منه كان أحسن في عينك ؟ قالت : كل أموره حسن ، واسكني أحدك إنه خرج إلى الصيد في يوم دُجن^(١) . وقد تطيب وشرب ، فرجع إلى ولقمعه نضح من دماء صيد ، والمسك يضوع من أطرافه ... فسكنت عنها ، حتى إذا كان يوم دجن شرب ، وتطيب ، وركب ، وصرع من الصيد ، وأتى وبه نضح من الدم والعليب ، فقال لها : كيف ترى ؟ أنا أحسن أم لقيط ؟ فقالت : دماء ولا كصداء .

* * *

أسلوب الأمثال الدنابية : يتسم أسلوب الأمثال بشدة الإيجاز ، وهذا ما يميز صيغة الأمثلة كما تتميز بالفكرة الصائبة ، وروعة التعبير ، وهذا ما جعلها أسير على الزمن ، كما قالوا قديماً : أسير من مثل ، إذ أن إيجازها وجعلها يسهلان استظهارها وذبوعها ، وتمثل الناس بها في شتى أنحاء الدنيا . كما فلاحظ أن الأمثال يكثر فيها الحذف والإيحاء ، وتنصف صموماً بمتانة

(١) الدجن : المطر الكثير .

السبك وجودة التقسيم مع الميل إلى النسق الإنشائي العالى من تقديم القيود على المقيدات والمسند على المسند إليه ، ومع أنها ليست إلا فقرات قصيرة يصعب الحكم بها على النسق الإنشائي في ذلك العهد ، فإننا نتعرف بها ما بلغته العربية منذ العهد النبوي أو ما قبله من التطور في بناء الجمل ، وتركيب الألفاظ ويمكن استخدامها للحكم على ما نقل لنا من آثار ذلك العهد البعيد (١) .

كما نلاحظ أن الأمثلة مبنية على الاستمارة التصريحية قد شبت فيه حالة المضرب بحالة المورد إذ يعبر عن حالة المضرب بالعبرة التي قيلت في حالة المورد على سبيل الاستمارة التصريحية الفخيلية إلا إذا كان المثل صيغة تفضيل فيكون ضرب المثل تشبيهاً عادياً .

والأمثلة النسائية السابقة كلها ترتبط بحادثة أو قصة ، وقعت وهي — كما قدمنا أولاً — تعبر عن خلاصات لتجارب صدرت في أكثرها عن ذكاء ودقة ملاحظة ونفاذ بصيرة ، كما نلاحظ ارتباطها بالبيئة العربية ، وأنها صدى لها وتعبير عنها تعبيراً فطرياً صادقاً ، لا تكلف فيه ولا تصنع إذ هو إحساس الأمة وشعورها وقلبها النابض ، ولذلك قيل (المثل صوت الشعب) .

وأغراض الأمثلة التي قالت فيها المرأة العربية متشعبة وكثيرة فمنها ما يتصل بالحرب كقول الخراء بنت خزيمة : «صارت الفتيان حمداً ، وقول حذام بنت الريان : «لو ترك القطا ليلاً نيام ، ومنها ما يكون في مقام المفاضلة كقول عفود بنت قيس «ماء ولا كصدا ، « و «مرعى ولا كالسعدان ، ومنها ما يضرب في افتخار الرجل بشيرته وقومه كقول العجفاء : «كل فتاة بأبيها محبة » .

ومنها ما يمثل النهي عن صفة مذمومة أو ممدوحة كقولها : «أضيرة وجبنا ، و «يئى ييخل لا أنا ، و «لا تأمى الأحق وفي يده سكين » و «رمنى بدائها

وانسلت ، ومنها ما يمثل منهج خاصاً أو اتجاهات معينة أو أغراض أخرى تفهم من السياق المتقدم ، هذا وتتخذ الأمثلة في الدراسات الحديثة مفاتيح لمعرفة طبيعة الشعب واتجاهاته وميوله العميقة المستقرة في نفوس أبنائه ^(١) .

وما من ريب في أن هذه الأمثال تستحوذ على ضروب من الجمال الفني يرجع بعضها إلى اختيار ألفاظها وصيغها ويرجع بعضها الآخر إلى ما تعتمد عليه من تصوير أو سجع وتوقيع ، وهذا هو معنى ما نذهب إليه من أن الأمثال الجاهلية تتحوى في بعض جوانبها آثاراً من الصنعة ، ولعل ذلك ما جعل الفارابي يقول : إنها من أبلغ الحكمة ، ويقول ابن المقفع أنها آتق للسمع ينينا يقول النظام أنها نهاية البلاغة ، لما تشتمل عليه من حسن التشبيه وجودة الكناية ، وطبيعى أن تظهر الصنعة في بعض الأمثال الجاهلية ، فقد كان العرب حينئذ مشغوفين بالبيان والبلاغة وصوّر القرآن الكريم هذا الجانب فيهم ، فقال جل شأنه « ولتعرفنهم في لحن القول » ، وقال : « وإن يقولوا تسمع لقولهم » ، وقال : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » .

وفي جميع آثار نثرهم وشعرهم نجد آثار هذه الرغبة الملحة في استمالةهم الأصماح بجمال منطقهم وخلاصة ألسنتهم ، وقد دفعتهم تلك الرغبة دفعاً إلى تحسين كلامهم وتجميل ألفاظهم حتى في أمثالهم ، وهياً لذلك أن كثيراً من بلغاتهم وفصحاتهم أسهموا في صناعة هذه الأمثال ؛ فكان طبعياً أن تظهر فيها خصائصهم الفنية التي يستأثرونها في بيانهم وتدييج عباراتهم حين ينظمون أو يخطلون .

(١) النصوص المقررة ١ / ١٤٥ - الأهرام - القاهرة .

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي ص ٣٦ .

الباب الثاني

النثر في العصر الإسلامي وعصر بني أمية

كان للمرأة العربية في صدر الإسلام وبني أمية نشاط ملحوظ ، ونبه شأنها في النثر ونقده ، وكان للنساء دور هام في تحميس المقاتلين في الحروب والغزوات بخطبهن الرنانة ، وألفاظهن الضخمة المجلجلة ، وكان خطبهن في التحميس سحر بابل ، يقذفن بالخطب الحارة ، كالفحول تهدد في الشفاشق مثل : عكرشة بنت الأطرش ، وأم الخير بنت الحريش البارقية ، والزرقاء بنت عدى الهمدانية .

كما كانت لغيرهن في مواقع أخرى مواقع مشهورة ، وخطب وأقوال مشهورة ، فقد شهدت أسماء بنت أبي بكر اليرموك مع زوجها الزبير بن العوام ، وابنتها عبد الله بن الزبير ، وكان موقفها من ابنها ، ونصحها له بالقتال حتى الموت في حربه مع الحجاج بمكة قدرة تفوق قدرة الرجال . وشهدت السيدة عائشة موقعة الجمل ، وخطبها في هذا المقام مدوية ومعروفة ، كما شهدت الغزاة موقعة القادسية ، وحدثها في هذه الموقعة لبئها بأسر القلوب ويحرك الوجدان ، فسكانت تهمضهم على الجهاد والصبر والثبات ، بكلماتها الأسيرة وعباراتها البليغة بما كان له الأثر الأكبر في إذكاء نار الحماسة في قلوب المجاهدين ، فهبوا يدفعون عن بيضة الإسلام ، في عزم وثاب ، ونفس متطلعة إلى النصر ، وحقق الله أملهم ، فغازوا بالنصر المبين ، والظفر العظيم .

كما لا تنسى منتديات الأدب والشعر مجالس سكتة بنت الحسين فقد كان يفد إليها الأدباء والشعراء والنقاد فيحتكون إليها فيما أنتجته عقولهم وأفكارهم من النظم والنثر ، وتناقشهم مناقشة أدبية مجادة ، وتقنعهم بوجهة نظرها ،

في غير حيف ولا شطط ، حتى شهد لها علماء الأدب برسوخ قدمها في هذا الميدان .

وغيرهن كثيرات ممن شيدن صروح الأدب ، ورفعن منار العرفان ،
وكن معلمات لجيل متأدب بأداب الإسلام ، وناهل من فيض القرآن
والحديث .

وأفضل كلام نبدأ به نثر النساء ؛ حديث النسوة الذي رواه الشيخان
البخاري ومسلم .

بلاغة النساء (كما رواها الشيخان)

(حديث أم زرع)

فقد أخرج البخاري ومسلم^(١) والترمذي في الشئال وأبو عبيد القاسم ابن سلام والبيهقي بن عدى والحريث بن أبي أسامة والإسماعيلي وابن السكيت وابن الأباري وأبو يعلى والزيبر بن بكار والطبراني وغيرهم ، واللفظ لمجموعهم .

عن عائشة رضى الله عنها ، قالت :

جلست إحدى عشرة امرأة من أهل اليمن ، فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً .

فقلت الأولى : زوجى لحم جهل غث ، على رأس جبل وعك ، لا مهل فيرتقى ، ولا سمين فينتقل .

قالت الثانية : زوجى لا أبث خبره ، إنى أخاف أن لا أذره ، إن أذكره أذكر هجره وبجره .

قالت الثالثة : زوجى العسكـنـنـق ، إن أنفاق أطائق ، وإن أسكت أعلق ، [على حد السنان المذلق] .

قالت الرابعة : زوجى كليل نهامة ، لآخر ولا قر ، ولا وجامعة ولا سامة ، [والنيت خيت غمامة] .

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فهد ، وإن خرج أسد ، ولا يسأل عما عهد [ولا يرفع اليوم لغد] .

(١) راجعنا هذا الحديث على صحيح مسلم ١٥ : ٢١٢ والتجريد الزبيدي ٢ : ١٣٢ وفيما بين الأقواس زيادة ليست في هذين الكتابين .

قالت السادسة : زوجي إن أكل التف^(١) ، وإن اضماجم التف^(٢) [وإذا ذبح اغتث] ولا يوجب الكف ، ليعلم البث .

قالت السابعة : زوجي غياها ، أو عياها طباقاها ، كل داد له داد ، شحك [أو يحك] أو فلك أو جمع كلاك .

قالت الثامنة : زوجي المس^٣ مس أدنب ، والريح ريح زر^٤نب [وأنا أغلبه والناس يغلب] .

قالت التاسعة : زوجي رفيع العماد ، طويل النجاد ، عظيم^(٥) الرماد ، قريب البيت من الناد [لا يشيع ليلة يضاف ، ولا ينام ليلة يخاف] .

قالت العاشرة : زوجي مالك^(٦) ، وما مالك^(٧) مالك خير من ذلك ، له إبل قايلات المسارح ، كثيرات المبارك ، إذا سمعن صوت المِزهر أيقن أنهن هوالك ، [وهو إمام القوم في الممالك] .

قالت الحادية عشرة : زوجي أبو ذرع ، وما أبو ذرع ؟ أناس من حلى أدنى^(٨) [وفرعى] وملأ من شحم عضدى^(٩) ، وبجشحي فبجحت^(١٠) نفسي إلى^(١١) ، وجدني في أهل غنيمة بشق ، فجعلني في أهل صهيل وأحيط ودارئس ومُنتق ، فعنده أقول فلا أنبش ، وأردد^(١٢) فأصبش ، وأشرب فأثقش ، وآكل فأمنش .
أم أبي ذرع : فما أم أبي ذرع ؟ عكوها رداح ، ويبتها فساس .

(١) في رواية البخاري ومسلم : لف .

(٢) في رواية البخاري ومسلم : رفيع .

(٣) في رواية البخاري ومسلم : وما مالك .

(٤) في رواية البخاري ومسلم : فحجحت إلى نفسي .

ابن أبي ذرع : فما ابن أبي ذرع ؟ كسل شطبة ، ونشبهه ذراع الجفرة ،
وترويه فيفة اليعسرة ، ويمس في حلق الثرة] .

بنت أبي ذرع : فما بنت أبي ذرع ؟ طويع أبيها ، وطويع أمها [وزين
أهلها ونسائها] ومله كسانها [وصفر ^(١) رداها] وعقر ^(٢) جارتها [قباء
مضيعة الحشا ، جائلة الوشاح ، عكناء ، فعماء ، نجلاء ، دجاء ، رجساء ،
زجساء ، قنواء ، مؤنفة مئنفقة ، برؤود الظل ، وفي الآل ، كريمة الخيل] .
جارية أبي ذرع : فما جارية أبي ذرع ؟ لا تبست حديثنا تبشيشاً ،
ولا تنفست ميرتنا تنقيشاً ، ولا تملأ بيتنا تمديشاً .

[ضيف أبي ذرع : فما ضيف أبي ذرع ؟ في شبع وري ورتع ^(٣)] .
[طهارة أبي ذرع : فما طهارة أبي ذرع ؟ لا تفر ولا تمرى ، تقدح وتنصب
أخرى ، فتلحق الأخيرة بالأول] .

[مال أبي ذرع : فما مال أبي ذرع ؟ على الجهم مكوس ، وعلى العفاه
محبوس] .

قالت : خرج أبو ذرع من عندي والأوطاب فخص ، فأتى امرأة معها
ولدان لها كالفهمدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فنسكحها فأعجبته ^(٤)
فلم تول به حتى طلقني [فاستبدلت وكل بذكر أعور] فنسكحت بعده رجلاً

(١) قال ابن الأثير : صفر رداها ومله كسانها ؛ أى أنها ضامرة البطن ،
فكان رداها صفر ، أى عال ، والرداء ينتهى إلى البطن فيقع عليه .
(٢) وعقر جارتها ، أى هلاكها من الحسد والقيظ ، ورواية البخارى ومسلم :
وغيط جارتها .

(٣) الرتج : التمتع .
(٤) عبارة البخارى ومسلم : يلعبان من تحت خصرها برمانتين ، فطلق
ونسكحها ، فنسكحت بعده رجلاً سوريا ، وركب سوريا .

سرياً ، شرياً ، ركب وأخذ خطايا ، وأراح على نعمة ثريا ، وأعطاني من كل راحة زوجاً ، وقال : كلّي أم زرع ، وميرى أهلك .

قالت : فلو جمعت كل شيء أعطانيه ما يبلغ أصغر آنية أبي زرع .

قالت عائشة : فقال لي رسول الله ﷺ : « كنت لك كأي زرع لأم زرع ، إلا أنه طلقها ، وإنّي لا أطلقك » ، فقالت عائشة : بأبي أنت وأمي ! لأنّ خير لي من أبي زرع لأم زرع .

[الفث : المزيل . والوَحْث : الصمب المرتق . وينتق أي ليس له رِق يُستخرج ، والنَتَق : المنخ . وأرادت بعجره وبحره عيوبه الظاهرة والباطنة . والعشيق : السبي الخلق ، والمذلق : المحدد . والرعاة : الثقل . وفهد وأسد : فعل فعل الفهود من اللّين وقلة الشر ، وفعل الأسود من الشّهمة والصرامة بين الناس . واقتف : جمع واستوعب . واشتف : استقصى . وغيايا (بالمعجمة) المنهمك في الشر . وعيايا (بالمهملّة) الذي تمويهه مباحضة النساء . وطباقاه : قيل : الأحق ، وقيل : الثقل الصدر عند الجماع . وشجك : جرح رأسك . وبجك : طعنك . وفلك : جرح جسدك . والأرنب : دُويبة لينة الملس ناعمة الوبر . والزّرنب : نبت طيب الريح . والشّجاد : حمائل السيف . والمزهر : آلة من آلات اللهو . وأناس : أثقل . وفرع : يدي . وبجحنى : عظمى . وغنيمه : تصغير غنم . وشق (بالكسر) جهد من العيش . وأهل صهيل : أي خيل ، وأطيح : أي ليل . ودائس : أي زرع . ومنيق (بضم الميم وكسر الهمزة وتشديد القاف) أي أهل نقيق ، وهو أصوات المواشي ، وقيل الدجاج . وأنصبج : أنام الصّبيحة . وأنقح : لا أجد مساعفاً . وأنمّج : أطعم غنمى . والمكوم : الأعدال . ورداح : ملأى . وفساح : واسع . والشمطية : سمفة النخل أي أنه مهفف خفيف اللحم ويؤخذ منه استحباب حسن الماشرة للأهل وجواز الإخبار عن الأمم الخالية والتنافس في اختيار الأزواج] .

السيدة عائشة ترقى أباهما

قالت عائشة في رثاء أبيها :

ونضر^(١) الله وجهك يا أبت ، وشكر لك صالح سمعك ، فلقد كنت
للدنيا مذلاً ياد بارك عنها ، وللآخرة معزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجل
الحوادث بعد رسول الله ﷺ رزؤك ، وأعظم المصائب بعده فقدك ، إن
كتاب الله ليعسد بحسن الصبر فيك حسن العوض منك ، وأنا أستنجي
موجود الله تعالى بالصبر فيك ، وأستقضي^(٢) بالاستغفار لك ، أما إن قاموا
بأمر الدنيا ، لقد قت بأمر الدين ، لما وهى شعبه^(٣) وتفاقم صدعه^(٤) ،
ورجفت^(٥) جوانبه ، فعليك سلام الله ، توديع غير قابلة^(٦) لحياتك ،
ولا زاوية^(٧) على القضاء فيك ، (٨) .

وفلاحظ من قراءتنا للنص أن السيدة عائشة موفقة في اختيار ألفاظها ،
وعباراتها المنتقاة تعلى من المعاني ما لا يعطى غيرها فقد بدأت الموضوع
باختيار موفق (نضر الله وجهك يا أبت) لجاء لفظ نضر براعة استهلال
للكلمة ، وقد عبرت عن جميعتها بكلمات موجزة بليغة ، أعطت لنا المعاني
الكثيرة « الشجن والحنين واللوعة والوجد ، والإكبار والإجلال بأنها وقرة
عينها ، والبر والوفاء لمن صنمها على عينه ورأها في رحابه ، وهو الحب غرسه

(١) نضر : حسن . من النضارة والنضرة ، وهى الحسن .

(٢) أستقضي : أطلب قضاءه وما عنده . (٣) وهى شعبه : ضعف جمعه .

(٤) تفاقم صدعه : زاد تشققه . (٥) رجفت : اضطربت .

(٦) قابلة : كرامة . (٧) زاوية : جانب ولائحة .

(٨) البيان والتبيين ٢ / ٢٤٠ . نهاية الأرب ٥ / ١٥٧ .

في مغارسه من الجوانح يد الرحمن ، فإ يستطيع أى إنسان أن ينزعه ، وهو حوب
رسيت أصوله وذبيت فروعه في السماء فهو خالد على الأيام ومر الأوام^(١)

العاطفة الحزينة الجياشة

وقد عبرت السيدة طائفة عن العاطفة الحزينة الجياشة ، أصدق تعبير والنساء
في هذا الميدان كما قد نأ تجدن يستنطقن في هذا الباب أساليب بدئية لم ينتبه
لها الفحول ، لما طبعن عليه من رقة الطباع وشدة الجزع في المصائب وصدق
الحس ، فيبرزن عواطفهن الحزينة في بيان سلس ملتاع ، وكلام حزين أخاذ ،
وهن أكثر من الرجال ذكراً للوعة ، وأكثر حديناً عن البكاء والدموع
والوجيمة ، لأن ضعفهن وأنوثتهن وسرعة انفعالهن كل أولئك يتجلى في
تصويرهن للنرح بالحديث عن البكاء ومخاطبة العيون والندوح ، والنساء أشهى
الناس قلباً عند المصيبة وأشدها على هالك لما ركب الله في طبعهن من الخور
وضعف العزيمة وشدة الجزع ودواعى الرثاء^(٢) .

والعاطفة الحزينة المشبوبة تملأها الخطوب وتشعلها الحوادث والمواقف
العنيفة ، تجمد المجال أمامها فسيحاً في صدور النساء والولدان ، فتترك فيها أحرق
الآثار ، وتدفعها في طريق الانفعال ، فإذا أخذ هذا الانفعال صورة الخطابة
أو الشعر أو المقال ، فهناك الأدب الرفيع ، والشعر الرائع ، والخطابة الباهرة ،
والسحر الحلال ، فالعاطفة القوية هى التى تمنح الأدب الحياة ، وتمبهه أيضاً من
الحرارة والقوة .

وهذا هو ما ترجم عنه الخطبة ، وتعرضه في كل كلبة من كلماتها ، كما تلدهج

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) كتاب العمدة ٢ / ١٢٣ .

من خلالها شخصية السيدة عائشة الحريثة المغنوفة ، البارة الوفية ، المثنية المسكبة المؤمنة الصابرة ، الذاكرة الشاكرة .

وهذا الحزن القوى ، وتلك العاطفة المشبوبة طبعاً الأسلوب بطابعهما ، وقد استمر هذا الفيض من قوة الشعور والعاطفة ، وقوة التعبير ماثلاً في الخطبة كلها ، فاحتفظ بمستوى واحد من بدتها إلى نهايتها ، وأعتقد أنها لو أطالت لبقى كلامها كله على هذا النمط الرفيع الذي هو أليق الانتماء بالرثاء من لفظ شجى إلى عاطفة حرى ، ومن صدق التعبير إلى وضوح المعاني ، ومن سهولة الأسلوب إلى استيفاء الغرض ، ومن شيوع الطبعية في الكلام إلى الأخذ بقدر من جمال الصنعة ، في السجع والعباق والمقابلة والازدواج ونسأوى الفواصل ، وحسن التأليف الموسيقي بين الألفاظ ، المعاني والموسيقى والنغم وجمال الإيقاع ^(١) .

خطبة السيدة عائشة في الفخر بأبيها

ذكروا أنه جاء عائشة أن قرماً يتناولون أبا بكر رضي الله عنه ، فأرسلت إلى جماعة من الناس ، فلما حضروا أسدات أستارها ، ثم قالت :

«أبي وما أبيه ! أبي والله لا تعطوه ^(٢) الأيدي ، ذلك طود منيف ^(٣) ، وفرع مديد ^(٤) ، هيمات ، كذبت الظنون ، أنجح ^(٥) إذ أكذبتم ^(٦) ، وسبق إذ وثبتم ، سبق الجواد إذا استولى على الأمد ^(٧) ، فتي قریش ناشئاً ، وكهفها

(١) الخطابة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٥ .

(٢) تعطوه : تناه . (٣) طود منيف : جبل مشرف .

(٤) فرع : الفرع أعلى الشيء ، والشريف من القوم .

(٥) أنجح : نجح . (٦) أكذبى : لم يعط غيراً .

(٧) الأمد : الغاية والمآلة .

كهلها ، بفك حانيا ، ويريش مملقها ^(١) ، ويرأب شعبها ^(٢) ويلم شعنها ، حتى حليته ^(٣) قلوبها ، ثم استشرى ^(٤) في دين الله ، فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل ^(٥) ، حتى اتخذ بفتاته مسجداً ، يحيي فيه ما أمات المبطلون .

فأكبرت ذلك رجالات من قريش ، ثلبت قسيها وفوقت سهامها ^(٦) ، وامتلوه غرضاً ، فما فلوا له صفاء ^(٧) ، ولا صفوا له قناه ، ومر على سيسائه ^(٨) .

وهنا نلاحظ أن النص يسير على نسق آخر مخالف لنسق بكتائها على أبيها فلكل مقام مقال كما قال أرباب البلاغة ، والسيدة عائشة كما لا يخفى نابعة في الذكاء والفصاحة والبلاغة فاخترت لكل موضع ما يناسبه من الألفاظ والعبارات ؛ فإن مقام الاختيار يتطلب الألفاظ الضخمة ، والعبارات الفخمة الرنانة : استمع إلى قولها تصف أباهما بالطود المنيف والجبل الأشم والفرع المديد وأنه سباق بلغ الغاية ، وأربى على النهاية تجد بلاغة النبوة لشع من لسانها ، وسحر البيان ينبع من ثنائها ثم أسبغت عليه من الصفات الاجتماعية أنبلها ، ومن أفعال المروءات أشرفها وأجدها (بفك العاني ، ويعنى الفقير ، ويلم الشعث ، ويرأب الصدع) .

والسيدة عائشة هنا غاضبة نفورة مدافعة محتجة ؛ فالعوامل على التفتيم والنهيويل متظاهرة ، من أجل ذلك حشدت في خطبتها ما ينبغي لهذا الموقف من عدة ، وشاكلت بين اللفظ والمعنى في الشرف والجودة والنقاء ؛ وعينت بالفواصل

(١) يرش الملق : يعين الفقير .

(٢) رأب الشعب : أصلح الشق والكسر .

(٣) حليته القلوب : وجدته حلواً . (٤) استشرى : غضب وتعمق .

(٥) الشكيمة : الآثمة والإياء .

(٦) فوق السهم : جعل له فوقاً وهو موضع السهم .

(٧) الصفاء : الحجر الصلد . (٨) سيسائه : أى شدته .

وتقصير الجمل ، وترادف التأكيد ، والتأليف بين الألفاظ تأليفاً يوفر لها الإيقاع والوزن وجمال المقاطع ، ومنحت قولها من صدق الإيمان وحرارة الانفعال قوة ووقماً وتأثيراً . والحق أن السر الأكبر فيها لهذه الخطبة من سلطان في النفوس راجع إلى تخيير الألفاظ للشاكلة للعرض ، وحسن موافقتها للمعاني ، ألفاظها من فخامتها وجزالتها وقوتها جلال في القلوب ، وسلطان على النفوس ، إلى ما انضم لذلك من مزايا الأسلوب ، التي أشرنا إليها ^(١) .

وتعنى السيدة عائشة في مفاخر أيها فنقول :

فلما قبض الله نبيه ﷺ ضرب الشيطان رواقه ^(٢) ، ومد طنبه ^(٣) ، ونصب حباله ، وأجلب بحيله ورجله ^(٤) ، واضطرب جبل الإسلام ، وصرج عبده ^(٥) ، وماج أهله ، وبني الفوائل ، فظنت رجال أن قد أكتبت أطعمهم ^(٦) ، ولات حين الذي يرجون . وأنسى والصديق بين أظهرهم ؛ فقام حاسراً مشمراً ، لجمع حاشيته ^(٧) ، ورفع قطريه ^(٨) ، فرد رسن ^(٩) الإسلام على غربه ^(١٠) ، ولم شعثه بطيبه ^(١١) ، وأتاش ^(١٢) الدين فنفضه ،

(١) الخطبة في صدر الإسلام ج ١ : ٣٩٨ .

(٢) الزواق : الخيمة والفسطاط .

(٣) الطنب : الحبل أو الوتد تشد به الخيمة .

(٤) أجلب : صاح . الحيل هنا راكب الحيل . والرجل اسم جمع راجل

أي ماش . (٥) مرج : اختلط واضطرب وقلق وفسد .

(٦) أكتبت : قربت . (٧) الحاشية الجانب والطرف .

(٨) القطر : الناحية . (٩) الرسن : الحبل .

(١٠) الغرب : حد الشيء . والمراد هنا الظهور .

(١١) الشعث : المتفرق . (١٢) أتاش : انشعل نضحه ، وأنمسه : رفقه .

فلما أراح^(١) الحق على أمه ، وقرر الرموس على كواهلها ، وحقق الدماء في
أهلبها^(٢) ، أنه منيته ، فسد ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة
والمعدلة ، ذلك ابن الخطاب ، فله درة^(٣) أم حلت به ، ودرت عليه ، لقد
أوحدت به^(٤) ، ففتخ^(٥) الكفرة وديسها^(٦) ، وشرّد الشرك شذر مذر^(٧) ،
وبيع^(٨) الأرض وبغضها^(٩) ، فقامت^(١٠) أكلها ، ولفظت غبنأها ، ترأه^(١١)
ويصدف عنها ، وقصدى له وبأهاها ، ثم وزع فيها فيثها ، وودعها كما صحبها .
فأروني ماذا ترتثون ؟ وأي يومى أنى تنعمون ؟ أبوم إقامته إذ عدل فيكم ،
أم يوم ظلمته إذ نظر لكم ؟^(١٢) أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم ، .
ثم أقبلت على الناس بوجهها ، فقالت : « أنشدكم الله ، هل أنكرتم
بما قلت شيئاً ؟ قالوا : اللهم لا ،^(١٣) .

وقد جاءت خطبتها فريدة في نوحها وأنت لها البلاغة منقادة طائفة ،
كيف لا وقد تربت في مدرستها ، ورضعت من لبنها ، وقد صودت جهاد أيها
في محاربة المرتدين والوقوف أمامهم أدق تصوير وأبلغه : ما أروع الاستعارات

- (١) أراح الحق : رده . (٢) الأهلب : جمع إهاب وهو الجلد .
- (٣) الدر : اللبن والنفس والعمل . والمراد التعجب ، كأن ذلك لعظمته
- منسوب (لله) . (٤) أوحدت به : جاءت به واحداً لا نظيره له .
- (٥) فتخ : أذل وقهر . (٦) ديسخ : دوح : قهر وأذل .
- (٧) شذر مذر : في كل اتجاه . (٨) بيع الأرض : شقها .
- (٩) بغض : قهرها واستخرج ما فيها من الكنوز .
- (١٠) قامت أكلها : أخرجت خيراتها . والأكل ما يؤكل .
- (١١) ترأه : تعطف عليه . (١٢) نظر لكم : عطف عليكم .
- (١٣) صبح الأعشى : ١ / ٢٤٨ . العقد الفريد ٢ / ٢٠٦ نهاية الأرب ٧ / ٢٣٠

في قولها ، ضرب الشيطان رواقه ومد طنبه ، ونصب حباله ، وأجاب بخيله ورجله ؛ واضطرب جبل الإسلام ، ثم بينت كيف أن الصديق حينما رأى ذلك قام حاسراً مشمراً يدافع عن بيضة الدين ، ويرد كيد المعتدين في عزم وثاب ، وحرمة متطاعة إلى النصر ، وقد حقق الله له أمهه ، فولى المرتدون مذقومين مدحورين وأضحت كلبة الله هي العليا وكلبة الذين كفروا السفلى ثم بينت كيف أنه حق الدماء وردرسن الإسلام على غربه ، ولم الشعث ورأب الصدع .

و إلا أن ما ينبغي أن يلاحظ هنا هو أن أم المؤمنين قد حشدت في هذه الخطبة حشداً من العبارات الغوية الرنانة ، والألفاظ الضخمة ، والكلمات التي لم يؤلف مثلها عند النبي ﷺ ؛ ولا العلماء من بعده ؛ ولم تمنح هي إلى استعمالها في رثائها لأبيها ، حتى صارت الخطبة كلها نسيجاً واحداً ، وهيكلها صلباً مناسكا . وليس العلم باللغة ومفرداتها ، صعباً وسهلها بمستغرب منها ؛ ولكن الذي يزيد أن نذهب إليه هو أن السيدة عائشة قد تعمدت تعمداً أن تسوق خطبتها هذا المساق ، وأن تخرجها على هذه الصورة من الشدة والصلابة والأسر ، لتسترعى انتباه السامعين ، وتفرع أسماعهم وبصائرهم بهذه القسوة الباهرة في القول ، والبلاغة الظاهرة في الخطابة ؛ ورغبة في مفاجأتهم بما يهرم من الإحسان ؛ والعلو عليهم بما يقرهم من الحاجة ؛ وركوبهم بما يشدهم من الفصاحة ، ورميم كاشات بصنم الجنادل ، فتضيف بذلك إلى شخصيتها عاملاً آخر ؛ يضاعف مكانها من نفوسهم ؛ وييسط سلطانها عليهم ، فتصل إلى ما أرادت من طريق قريب ؛ وعلى أحسن وجه ، فلما لا شك فيه أن قوة الشخصية والمقدرة الخطابية تتفعلان وتعاونان ، وقد ساعدها على النجاح فيما قصدت إليه بحشد هذا الحشد من العبارات والتشبيهات والاستعارات والتمثيل والصور ، وروية أتبع لها ، وإعداد وانتها فرصته ، حينما بلغها ما بلغها ، فأدانت هذه المعاني

في نفسها ، واختارت لها من الألفاظ أشباهها ، واستحضرت في ذهنها من الصور والتشبيه والاستمادة ما بلائعها ، حتى إذا دعت من دعت فلبوا دعوتها ، خرجت عليهم بتلك الخطبة التي أعدتها في نفسها وزوتتها ،^(١) .

ولأم المؤمنين خطب وأقوال أخرى أثرت عنها ليس فيها مثل هذا الإيغال في الاستعارات والعبارات النازحة غير للأوفى ، ولا قريب منه ، فالليل إلى السهولة والطبيعة والبعد عن التكلف كان السمة الغالبة على خطب العصر وأقواله وقد نشأت رضى الله عنها أسمع نشأة ، في حمى كهفين للفصاحة ، ومثمين للبلاغ في ظل مدرسة تنشر في الخافقين لواء الإسلام ، ونجمل القرآن إماماً في هديه ومثلاً في سماحة أسلوبه ، وقُدوة في نهج بلاغته ، وما نزع في خطبتها هذا المنزع إلا وقد ترجّح عندها اختيار الأسلوب المشاكل لذلك المرقف ، لما هي فيه من غضب ودقّاق واحتجاج وفخر .

وكتبت إلى معاوية : أما بعد فإنه من محل بما يسخط الله عاد حامده من الناس له ذلماً .

وقالت : من أَرْضَى الله يسخط الناس كفاء الله ما بينه وبين الناس ومن أَرْضَى الناس يسخط الله وكله الله إلى الناس . وقالت : سلوا ربكم حتّ الشيع فإنه إن لم ييسره لم ييسر ، وقالت : يا بني لا تطلبوا ما عند الله من عند غير الله بما يسخط الله .

وقالت : مكادم الأخلاق عشر تكون في العبد دون سيده ، وفي الخامل دون المذكور ، وفي المسود دون السيد : صدق الحديث وأداء الأمانة والصدق والصبر في البأس والتذم للصاحب والتذم للجار ، والإعطاء في النابة ، وإطعام المسكين ، والرفق بالملوك ، وبر الوالدين .

(١) نفس المصدر ص ٤٠١ .

وقالت : كل شرف دونه لؤم فاللؤم أولى به ، وكل لؤم دونه شرف فالشرف أولى به . وقالت : جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها . وقالت : إن الله خلقاً قلوبهم كقلوب الطير كلما خفقت الريح خفقت معها فأفأ للجبناء فأفأ للجبناة . وقيل لعائشة : إن قوماً يشتمون أصحاب محمد ﷺ فقالت : قطع الله عنهم العمل فأحب أن لا يقطع عنهم الأجر .

وقيل لها : أى النساء أفضل ؟ فقالت : التى لا تعرف عيب المقال ولا تهتدى لمكر الرجال ، فارغة القلب لإلأمن الزينة لبعلمها ، والإبقاء فى الصيانة على أهلها . وقالت : إنما الشكاح دق فليُنظر امرؤ من ىرق كرميته .

وقالت : المغول بيد المرأة أحسن من الرمح بيد المجاهد فى سبيل الله .

ورأت عائشة فى بيت امرأة أثر المغول فقالت لها : أبشرى بما لك عند الله عز وجل ، لو رأيتم بعض ما أعد الله لكم معاشر النساء لما أقررتن لىلا ولا نهاراً ، ما من امرأة غزلت لزوجها ولنفسها ولصبيانها إلا أعطاه الله عز وجل بكل طاقة نوراً حتى ملأت مغزلهما ، فإذا ملأت مغزلهما أعطاه الله عز وجل بيتاً فى الجنة أوسع من المشرق إلى المغرب ولها بكل ثوب مائة ألف وعشرين ألف مدينة ، وما على ظهر الأرض تسبيح يعدل عند الله من صوت صرير يخرج من مغزل النساء حتى ينتهى إلى العرش له دوى كدوى النحل ويعدل عند الله عز وجل بمنزلة قول لا إله إلا الله عز وجل . بلغوا عنى النساء ما أقول : ما من امرأة غزلت حتى كسبت نفسها إلا استغفر لها سبع سموات وما فىهن من الملائكة . . . إلى أن قالت : أبشروا معاشر النساء ما لكن عند الله عز وجل بطاعتكن لبعولكن وخدمتكن لأولادكن أنتم المساكين فى الدنيا والسابقون إلى الجنة مع أرواح الأنبياء يفر الله لكن كل ذنب همتن ما خلا الكبائر .

وقالت : التمسوا الرزق فى خبايا الأرض . ورأت عائشة رجلاً متبارتاً

فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : زاهد ، قالت : قد كان عمر بن الخطاب زاهداً وكان إذا قال أسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب في ذات الله أوجع .
ووهبت مالا كثيراً ثم أمرت بثوب لها أن يرقع وتمثلت بهذا المثل ، لا يميز مسك السوء عن عرف السوء (١) .

وقال أبو سلة : أنا أفقه من مال فقال ابن عباس : أجل في المبال . وكان أبو سلة ينازع ابن عباس في المسائل ويماربه فبلغ ذلك عائشة فقالت : إنما مثلك يا أبا سلة مثل الفروج سمع الديكة تصيح فصاح معها ، تعنى أنك لم تبلغ ابن عباس وأنت تماريه .

وقالت : علوا أولادكم الشعر تعذب ألسنتهم .
ولما مات عبد الرحمن بن أبي بكر الحبش (٢) وقفت عائشة على قبره فقالت :

وكنّا كندمانى جذيمة حقة من الدهر حتى قيل لن يتصدقا
فلما تفرقنا كآنى ومالكا لطلول اجتماع لم نبت ليلة مما
أما والله لو حضرتك لدفتنك حيث مت ولو شهدت لأردت .

وقالت رحم الله ليبدأ كان يقول :
فمن اللبانة لا أأ لك واذهب والحق بأسرتك الكرام الغيب
ذهب الذين يماش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجر
فكيف لو أدرك زماننا هذا : ثم قالت : إني لأدري ألف بيت له وإنه
أقل ما أدري لغيره .

وسمع النبي ﷺ وهى تنشد شعر زهير بن حباب :

(١) يضرب هذا المثل في الذي يكتم لؤمه وهو يظهر .

(٢) الحبش : جبل بأسفل مكة .

ارفع ضعيفك لا يحل بك ضعفه يوماً فتدركه عواقب ما جرى
يحربك أو يثني عليك فإن من أننى عليك بما فعلت كن جرى
فقال النبي ﷺ : صدق يا عائشة لا شكرك الله من لا يشكر الناس .

ورأت عائشة بنات طارق يلقن :

نحن بنات طارق نمنى على الفراق

فقلت : أخطأ من يقول الخيل أحسن من النساء .

وبعثت عائشة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية بن أبي سفيان
في حجر بن عدى وأصحابه . فقدم عليه وقد قتلهم فقال له : أين ظب عنك
حلم أبي سفيان ؟ فقال : حين ظب عنى منك من حلباء قوى وحملى ابن سمية
فاحتملت وكانت عائشة تقول : لولا أنا لم نغير شيئاً قط إلا آلت بنا الأمور
إلى أشد مما كنا فيه لغيرنا قتل حجر ، أما والله إن كان ما علمت لمسلماً حجاجاً
معتصراً . ولما حج معاوية مر على عائشة فاستأذن عليها فأذنت له فلما قدم
قالت له : يا معاوية ابن كان حلك عن حجر ؟ فقال لها : يا أم المؤمنين لم يحضرنى
رشيد . فقالت له : أمنت أن أخبأ لك من يقتلك ؟ قال : بيت الأمن دخلت ،
قالت : يا معاوية أما خشيت الله فى قتل حجر وأصحابه ؟ قال : لست أنا قتلهم
إنما قتلهم من شهد عليهم .

وقدم معاوية المدينة فدخل عليها فذكرت له شيئاً فقال : إن ذلك لا يصلح
فقلت : الذى لا يصلح ادعائك زياداً ، فقال : شهدت اليهود . فقالت :
ما شهدت ولكن ركبت الصليعاء . أى السومة أو الفجرة البارزة المكشوفة .

ولما أراد معاوية البيعة ليزيد واده كتب إلى مروان بن الحكم وهو عامله
على المدينة فقرأ كتابه وقال : إن أمير المؤمنين قد كبر سنه وحق عظمه وقد
غالى أن يأتيه أمر الله تعالى فيدع الناس كالغنم لا راعى لها وقد أحب أن يعلم

علماً ويقيم إماماً ، فقالوا : وفق الله أمير المؤمنين وسدده ليفعل . فقام عبد الرحمن بن أبي بكر فقال : كذبت والله يا مروان وكذب معاوية معك ! لا يكون ذلك ، لا تحذثوا علينا سنة الروم كلما مات هرقل قام هرقل . فقال مروان : خذوه : فدخل في بيت عائشة فلم يقدرُوا عليه . فقال مروان : إن هذا الذي أنزل الله فيه ، والذي قال لوالديه أف لكما أنمداًني ، فقالت عائشة من ودام حجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن إلا أن الله أنزل عذري .

ثم كتب بذلك مروان إلى معاوية . فأقبل معاوية ومعه خلق كثير من أهل الشام حتى أتى عائشة وهي بالمدينة فاستأذن عليها بعد أن بايع أهل الشام لابنه يزيد فأذنت له وحده ولم يدخل عليها معه أحد وعندها مولاهم ذكوان فقالت عائشة : يا معاوية أكنت تأمن أن أقعد لك رجلاً فأقتلك كما قتلت أخى محمد بن أبي بكر ؟ فقال معاوية : ما كنت لتفعلن ذلك . قالت : لم ؟ قال : لأنني في بيت آمن ، بيت رسول الله ﷺ ، ثم قامت عائشة لحمدت الله وأثنت عليه وذكرت رسول الله ﷺ وذكرت أبا بكر وعمر وحضنته على الاقتداء بهما والاتباع لأثرهما ثم صمت ، وأما معاوية فلم يخطب وعاف أن لا يبالغ ما بلغت فارتجل الحديث ارتجالاً ، ثم قال أنت والله يا أم المؤمنين العالة بالله وبرسول الله دلتنا على الحق وحضنتنا على حظ أنفسنا وأنت أهل لأن يطاع أمرك وبسمع قولك ، وإن أمر يزيد قضاء من القضاء ، وليس للعباد الخيرة من أمرهم ، وقد أكد الناس بيعتهم في أعناقهم وأعطوا عهودهم على ذلك وموآثيقهم ، أفترى أن ينقضوا عهودهم وموآثيقهم ، فلما سمعت ذلك عائشة علمت أنه سيمضي على أمره فقالت : أما ما ذكرت من عهود وموآثيق فأتق الله في هؤلاء الرهط ولا تمجل أيهم فلعلهم لا يصنعون إلا ما أحببت ... ثم خرج ومعه ذكوان فانكأ على يد ذكوان وهو يمشي ويقول ثاقه إن رأيت كاليوم قط خطيئاً أبليغ من عائشة بعد رسول الله .

وسأل مرة بن أبي عثمان مولى عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق السيدة عائشة أن تكتب له إلى زياد وتبدأ به في عنوان كتابها . فكتبت له إليه بالوصاة به وعنوته إلى زياد بن أبي سفيان من عائشة أم المؤمنين . فلما رأى زياد أنها قد كاتبته ونسبته إلى أبي سفيان سر بذلك وأكرم مرة وألففه وقال للناس : هذا كتاب أم المؤمنين إلى فيه وعرضه إليهم ليقروا عنوانه ثم أقطعه مائة جريب على نهر الأملجة ^(١) وأمره لحفر لها نهراً فنسب إليه .

* * *

وهذه هي الخنساء بنت عمرو السلمي ، لم تخرج كما خرجت هند بنت عتبة مبادرة إلى أحد ، تتأد لقومها ، وتشفي غيظ صدرها ، وتحاد الله ورسوله ، ولكنها خرجت تحارب الشرك ، وتذود عن الإسلام ، وتدافع عن العقيدة وتحاد في سبيل الله ، وقالت لأولادها والحرب تبرى والأسنة تلع :

« يا بني إنكم أسلمتم طائعين ، وهاجرتم غنارين ، والله الذي لا إله غيره ، إنكم لبنو رجل واحد ، كما أنكم بنو امرأة واحدة ، ما خنت أباكم ، ولا فضحت عالككم ، ولا هيجنت حسبيكم ^(٢) ، ولا غيبرت نسبكم ^(٣) ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب العظيم في حرب الكافرين ، واعلموا أن الدار الباقية ، خير من الدار الفانية ، يقول الله عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، وانقوا الله لعلكم تفلحوا » . فإذا أصبحتم غداً فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبشرين ، والله على أعدائه مستصرين » .

(١) الآية : بلدة على شاطئ دجلة ، البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة .

(٢) هجنت حسبيكم : خلطت بمناخركم ما يضرع منها .

(٣) غبرت نسبكم : لطمته بعار وغبار .

فلما أن أضاء لهم الصبح باكروا مواقفهم في حومة الوغى ، فتقدموا إلى الشهادة وهم يشهدون الأراجيز ، وسعوا إلى لقاء دهم مستبشرين^(١) .

وأنشأ أولهم يقول :

يا إخوتى إن المعجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا الباردة
مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة
وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان السكالب النابحة
قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة سالحة
أو ميتة تورث مخنبا رابحة

وتقدم نقاتل حتى قتل ، ثم حمل الثانى وهو يقول :

إن المعجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفى والرأى المسدد
قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها وبرأ بالولد
فباكروا الحرب حماة في المدد إما لفوز بارد على السكبد
أو ميتة تورثكم عز الأبد فى جنة الفردوس والعيش الرغد

فقاتل حتى استشهد ثم حمل الثالث وهو يقول :

وانته لا نصبر المعجوز حرفاً قد أمرتنا حذباً وعطفاً
نصحاً ورأ صادقاً ولطفاً فبادروا الحرب الضروس زحفاً
حتى تلقوا آل كسرى لها أو يكشفوكم عن حماكم كشفاً
لأننا نرى التقصير منكم ضعفاً والقتل فيكم نجدة وزلفاً

فقاتل حتى استشهد ، ثم حل الرابع وهو يقول :
لست لخنساء ولا للأخرم ولا لأمروؤى النساء الأقدم
إن لم أزد في الجيش جيش الأعجم
ماضى على الحول رخصم حنرم
إما نفوز عاجل ومعتم أولوفاة في السبيل الأكرم
فقاتل حتى قتل ، فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم ، وأرجو
من ربى أن يجمعنى بهم في مستقر رحمته .

وهى تصور لنا في خطبتها الصبر والثبات في عبارات قوية مؤثرة تزين
لبها ما أعد الله للمسلمين من الثواب في الآخرة ، والنعم في الجنة ، مهونة في
نظرهم شأن الدنيا مُعلبة شأن الآخرة ، ونلاحظ أنها في أسلوبها تقتبس بعض
آيات من القرآن الكريم للاستشهاد بها ، وما أجل اقتباسها في هذه الخطبة
بآيات الصبر والمراعاة في آل عمران : يأيا الذين آمنوا اصابروا وصابروا
ورابطوا .

ولقد كانت الخنساء صادقة في عقيدتها ، مؤمنة بدهوتها ؛ فلذلك ترى
لكلامها حلاوة الطبع ، وجمال الوقع ، وحسن اللفظ ، وقرب المعنى ، والبعد
من الاستكراه ، والتوفيق في الأداء ، والقدرة على الإثارة ، إلى ما فيه من
بلاغة الإيجاز ، والاستغناء بالقليل عن الكثير من الكلام ، فقد ذكرتهم
بالإسلام ، والهجرة ، ونقاء النسب ، وثواب المجاهدين وجزاء الصابرين ،
ثم دعهم بعد هذا للقتال .

وكان الجاحظ قد عنى هذا الكلام وأمثاله بقوله : وأحسن الكلام
ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكان الله عز وجل
قد ألبسه من الجلالة ، وغشاها من نور الحكمة ، على حسب نية صاحبه ، وتقوى

قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، ومنزهاً عن الاختلال . ومصوناً من التكلف ، صنع في القلب صنيع الغيث في التربة السكرية ، ومنى فصلت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت من قائلها على هذه الصفة ، أحبها الله من التوفيق ، ومنحها من التأيد ما لا يتمتع من تعظيمها به صدور الجبابرة ، ولا يذهل عن فهمها عقول الجبهة ، (١) .

وتلح دقة أساليبها ، وجريانه على ما تقتضيه الفنون البلاغية في إعطائها الكلام فضل تأكيد ؛ عند ما تقرر بنوهم لرجل واحد ، لأن هذا الأمر هو الذي يجوز أن يتشكك فيه متشكك ، لجأت بلام التوكيد مع إن في قولها : « إنكم لبنو رجل واحد ، ولكننا استغنت عنها عندما قدرت بنوهم لامرأة واحدة » ؛ لأن ذلك مما لا يتشكك فيه الناس عادة ، فقالت : « كما أنكم بنو امرأة واحدة » ، إلى آخر غلطيتها البليغة الموجهة .

وقد آثرت الإيجاز هنا لأن المقام يقتضى ذلك فالمقام مقام حرب ودفاع ، والكلمة حينئذ لل سيف والروح ، وليست للقرطاس والقلم ، وكتاباتها تعطى من للمعانى ما لا يعطى غيرها ، فكلمة « وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الشراب العظيم في حرب الكافرين » تعطى معانى كثيرة فلو أنها ذكرت تفصيل ذلك لطال الأمد ، والوقت كما قلنا وقت مبادزة حربية لا مبادزة كلامية ، وقولها « إن الدار الباقية خير من الدار الفانية » ينطوى تحتها الجنة ونعيمها وما فيها من متع يضيق المحصر عن عددها ، كما ينطوى تحتها حقارة شأن الدنيا وما فيها من متاع الفرور وزعارف الحياة ما لو ذكرت ذلك أيضاً لما اتسع الميدان له ، ولكان التطويل عبثاً وضياعاً .

« وإن كان يبدو من الأوفق - في رأيي - لو أنها قالت : « ولا هجنت

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٣ ، والمحطبة ج ١ ص ٤٠٤ .

نسبكم ، ولا غبرت حسبكم ، مكان قولها : « ولا هجنت حسبكم ، ولا غبرت
نسبكم » ، وذلك لأن الهجنة والنهجين في القول والفعل وغيرهما نجى بمعنى
الغيب والغيب ، والقبح والتقيح ، وهى في الحسب ما يضع منه ، ولكنها في
النسب النقص الذى يأتى من قبل الأم ، فالهجين اللثيم ، والعربى ولد من أمة ،
أو من أبوه خير من أمه (١) .

والنسب هو ذلك الجانب المقدس عند العرب ، كانوا يتفاخرون بصراحتهم ،
ويتهاجون بهجنته ، والخساء تحدث أبناءها بما حفظته عليهم من المفاخر في
نسبهم ، وما أعلنت به من قدرهم بين الناس ، فذكرها الشرف الذى جلبته
لهم ، ونفيا عن نفسها وعنهم تهمة النقص الذى كان جائزاً أن يلحقهما من
قبلها دون غيرها ، وهو هجنة النسب التى بقى بهذا المقام ، وأبلغ في المقال .
وإضافتها الهجنة إلى النسب تحقق معنى لا تحققه إضافة التغير إليه .

ويبقى للحسب بعد ذلك شرفه الذى أرادته ، ويريد به الناس لأنفسهم ، حين
تذكر نصاعته وتنفي التغير والتدنيس عنه بقولها ، ولا غبرت حسبكم .
ولن ينقص قولها قدراً بهذا النقد ، لأنها لم ترو فيه ، ولم تعتمد
إلى تحبير .

بل قالت ذلك ارتجالاً دون إعداد سابق (٢) .

(١) انظر القاموس المحيط ، مادة « هجن » .

(٢) وانظر الخطابة في صدر الإسلام ص ٤٥ .

نموذج رائع لحفيدة رسول الله مخاطب أهل الكوفة

حدث ابن أبي طاهر عن خدام الأسدي ، قال :

قدمت الكوفة سنة إحدى وستين - وهي السنة التي قتل فيها الحسين بن علي عليهما السلام - فرأيت نساء الكوفة قياماً يلتدمن^(١) ورأيت علي بن الحسين عليهما السلام وهو يقول بصوت ضليل قد نحل من المرض : يا أهل الكوفة إنكم تبكون علينا فن قلنا غيركم ؟ وسمعت أم كلثوم^(٢) بنت علي عليهما السلام وهي تقول - فلم أر خفيرة^(٣) والله أنطلق منها ، كأنما تنزع عن لسان أمير المؤمنين علي عليه السلام ، وأشارت إلى الناس أن امسكوا ،

(١) التدمت المرأة ضربت صدرها حرقاً ونوحاً .

(٢) أم كلثوم : هي خطيبة قريش وقصبتها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب عليه السلام . وأما سيدة نساء العالمين فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ولدت في آخر أيام العهد النبوي وتزوجها عمر في خلافته وهي حادثة دون البلوغ وما أراد إلا أن يصل نسبه وسببه رسول الله ، وكان رضى الله عنه قد كلم علياً عليه السلام في أمرها ، فقال علي : إنما حبست بناتي علي بنى جعفر ، فقال عمر : زوجنها يا علي فوالله ما علي ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحبتها ما أرصد ، فقال علي : قد فعلت ، ثم خدا علي بيته وأمر ببرد فطواه ، وقال لأم كلثوم : انطلق بهذا إلى أمير المؤمنين فقول له : أرسلني أبي يقرئك السلام ، ويقول : إن رضى الله البرد فأمسكه ، وإن سخطه فرده ، فلما أتت عمر قال : بارك الله فيك وفي أبيك قد رضىنا ، قالوا : فرجعت إلى أبيها فقالت : ما نشر البرد ولا نظر إلا إلى ، فزوجها إياه فأقامت عنده حتى قتل عنها وولدت منه زيداً ورقية ، ثم خلفته علي ابن عمها عوف بن جعفر بن أبي طالب فأتها ثم أعقبته علي أخيه محمد بن جعفر فأتها فخلفته علي أخيه عبد الله بن جعفر - بعد أن ماتت عنه أختها زينب - فأتته عنده . وكان موتها هي وابنها زيد في يوم واحد رضى الله عنهما .

فَسَكَتَ الْإِنْفَاسَ وَهَدَأَتْ ، فَقَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالصَّلَاةُ عَلَى جَدِّي
سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ . أَمَا بَعْدَ :

إِنَّمَا مِثْلُكُمْ كَثَلَ الْإِنْفَاسِ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ
أَيْمَانَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ . أَلَا وَهَلْ فِيكُمْ إِلَّا الصُّلَفُ وَالْهِنْفُ^(١) وَمَلَقَ
الْإِمَاءُ ، وَغَزَرَ الْأَعْدَاءُ . وَهَلْ أَنْتُمْ إِلَّا كَرَمٍ عَلَى دِمْنَةٍ^(٢) ؟ وَكَفَضَةٍ عَلَى
مَلْحُودَةٍ^(٣) ؟ أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ أَنْ يَرْجِيَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَفِي
الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ . أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَأَبْكُوا وَلَكُمْ وَاللَّهُ أَجْرَاهُ
بِالْبَسَاكَةِ ، فَأَبْكُوا كَثِيرًا ، وَاصْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَرَزْتُمْ بِعَارِهَا وَشَنَارِهَا ،
وَلَنْ تَرَحُّصُوهَا بَغْسِلَ بَعْدَهَا أَبَدًا^(٤) وَأَنْتُمْ تَرَحُّصُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتِمِ النَّبِيِّ ،
وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شِبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَنَارِ مَحَبَّتِكُمْ وَمِدْرَةِ حُجَّتِكُمْ^(٥) ،
وَمُحَمَّدٍ مَرْخٍ نَازِلِنَكُمْ ، قَتَمَسًا وَنَسَكَسًا ، لَقَدْ خَابَ السَّمْعَى ، وَخَسِرَتِ الصَّفْعَةُ ،
وَبَقِيَ بَعْضُ مَنْ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الْأَذَلَّةُ وَالْمُسْكِنَةُ ، لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ،
تَحَادَّ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَلْزِقُ الْأَرْضُ وَتَحْمُرُ الْجِبَالُ هَذَا . أَنْتُمْ
أَيُّ كَيْدٍ لِرَسُولِ اللَّهِ فَرِيْتُمْ ؟ أَيُّ كَرِيمَةٍ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ؟ أَيُّ دَمٍ لَهُ سَفَسَكْتُمْ ؟
لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا شَوْهَاءَ خَرَقَاءَ ، شَرَّهَا حُلَاةُ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ، أَمْعَجْتُمْ أَنْ

(١) الصلف الكبير والغيلة والهنف النسكر عن معرفة .

(٢) الدمنة أثر الديار أو فضلاتها ينبت عليها مرعى أبقى الشكل من المذاق
وقد شبهوا بها كل شيء بموه لا خير فيه .

(٣) الملحودة القبر ومثل الفضة على الملحودة كمثل مرعى الدمن وهما جميعاً مثل
الرجل المنافق .

(٤) رحض الثوب غسله .

(٥) المندرة المتقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال .

فطرت السماء دماً ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون ، فلا يستخفونكم
المهل فإنه لا تصفوه المبادرة (١) ولا يخاف عليه فوت النار . كلا إن ربك
لنا ولهم بالمرصاد ؛ ثم ولت عنهم . قال فرأيت الناس حيارى قد ردوا أيديهم
إلى أفواههم . ورأيت شيخاً كبيراً من بني 'جحف' ، وقد أخذت لحيتيه من
دموع عينيه ، وهو يقول :

كم ولهم خير السكول ونسلهم إذا عد نسل لا يبور ولا يجزى (٢)

(١) خزه : أجهده وأزجه .

(٢) بلاغات النساء ٣ ٢٧ - ٢٩ .

خطب المناظرة

تكثر خطب المناظرة حين تنقسم الكلمة وتشهد الفرقة وتتسع دائرة الخلاف بين طائفة وطائفة، أو حزب وآخر، أو بين فردين كل منهما له وجهة خاصة - في موضوع ما - والمناظرة قد تشتمل على لون من المناظرات والمفاخرات استطراداً، فقد يستطرد أحد الفريقين بذكر فضائله أو فضائل قومه إذا عنت له فرصة أثناء المناظرة، وقد اتسعت المناظرة وامتدت أطرافها حينما اشتد النزاع بين علي ومعاوية، وبين العراقيين والشاميين، ومن أبلغ خطب المناظرات تلك الخطبة الرائعة التي رواها الرواة للإمام علي قالها حين كان الخوارج يخاصمون ابن عباس فقال له الإمام : دأبته عن كلامهم ألم أمهك رحمك الله، ثم حمد الله وأثنى عليه وقال :

اللهم إن هذا مقام من أفلج^(١) فيه كان أولى بالعلاج يوم القيامة، ومن أطق فيه وأوعث^(٢) فهو في الآخرة أسمى وأضل سبيلاً، ثم سألمهم عن زعيمهم قالوا : وابن السكواء، قال علي : فما أخرجكم علينا ؟ قالوا حكومتكم يوم صفين، قال : أنشدكم بالله أنعملون أنهم حينما دفعوا المصاحف فقامت : نجيهم إلى كتاب الله، قلت لكم : إنني أسلم بالقوم منكم، إنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، إنني صحتهم وعرقهم أطفالاً ورجالاً فسكانوا ثمر أطفال وثمر رجال، امضوا على حقكم وصدقكم : فإنما رفع القوم هذه المصاحف خديعة وإدھاناً ومكيدة^(٣).

(١) أفلج : فاز وصبر . (٢) أوعث : سار في الوعث، وهو الصمب .

(٣) الطبري ٦ : ٢٧ .

ومثل هذه الخطب داخلة في الخطابة الدينية والسياسية معاً لأنها تعتمد على أصول دينية وتتفرع عن مسائل مذهبية ، وتفرعت منها الخلاقات حول المسائل السياسية .

وإذا رأى بعضهم أن هذا اللون داخل في نطاق الخطابة الاستدلالية التي تعتمد على المدح أو الذم ، وتنبه إلى الحسن والقبح أو الفضيلة والريضة فإنها بشيء من التحوير تتحول إلى خطابة استنادة سياسية (١) .

ومن النصفة للأدب العربي وللمرأة العربية ألا ننفل في هذا المقام ذكر بعض النساء الأدبيات في هذا العصر اللاتي أزعجن من المواقف ما لم يضن التاريخ الأدبي بتسجيله ، ولقد كان للحركة الشيوعية فضلٌ في إظهار بعض الشخصيات النسوية المحاربة الموالية لعل - رضى الله عنه - ولأهل البيت ، وقد امتاز هؤلاء الأدبيات الشيعيات فوق جرائهن وبلاتهن في سبيل العقيدة بمقدرة خطابية لعلها كانت ثمرة ضرورية من ثمار ذلك العهد المقاتل المتنازع الذي اعتمد على قوة السيف من ناحية ، وعلى قوة البيان من ناحية أخرى .

ولقد كانت الحرب بين علي ومعاوية أو بين أهل الشام وأهل العراق ، ميداناً فسيحاً لمواهب المحاربين والخطباء حتى لقد كانت امرأة مثل عكرشة بنت الأعرس متقلدة حوامل السيف في موقعة صفين المشهورة وهي واقفة بين الصفوف تحض على قتال معاوية في فصاحة وبلاغة وقوة عارضة ربما لم نرها لبعض البلغاء : « أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى أن تقول « امضوا على بصيرتكم واصبروا على من يمتكم ، الله الله عباد الله في دين الله » . ولم تكن عكرشة ، هي الخطيبة الوحيدة في الحروب بين علي ومعاوية ، فلقد كانت هناك أم الخير بنت الحريش التي طالما ألبت على معاوية وحرضت على قتاله وانهمته بإذكاه الاحقاد الجاهلية التي عفاها الإسلام ودعت

(١) الخطابة في صدر الإسلام ١ / ٤٣٨ .

إلى الإمام العادل على توحيداً للكلمة ، ورأياً لصديق المسلمين ، وكأني بها وهي على جمل آدمي كلون الرماد ويدها سوط قد انتشرت صفاته وهي تهدر كالفضل من الإبل يهدر في شقشقتها ؛ دأبها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم .

وكان للرزقاء بنت عدى الممدانية موقف لا يقل روعة عن موقف أم الخير في الحث على قتال معاوية حتى أنه لم يلبس خطبتها وهي راكبة الجمل الأحمر ، وحين استقدمها من الكوفة بعد أن صارت إليه الخلافة ذكرها بخطبتها التي تقول فيها : دأبها الناس ، ارعوا وارجعوا لأنكم قد أصبحتم في فتنه ففتسكم جلايب الظلم ، وجاءت بكم عن قصد المحجة ^(١) .

ولعلنا نلاحظ أن أسلوبه في الخطابة اهتدى بنود القرآن سلسلة ووضوح قصد وسمراً في الغرض ، وإصابة للحقائق وأطراً للأحكام وهدوء في اللفظ ، ودعائية في الأساليب وتأنياً بين العبارات ، وتباعداً عن الوحش النافر والسوق المتبذل ، واللفظ الغريب والسجع المفتعل ، وإيجازاً مع الخاصة وإطالة مع العامة وإيماء للمرن وتصريحاً للأجمعي حتى أنك ترى الآية المقتبسة من القرآن تدخل في الأسلوب فتممه نوراً وتفرعه جمالاً ، وتكسوه روعة وجلالاً ، مع قرب المعاني وصدقها وابتداعها وإبتكارها ، وارتياح النفوس إليها في أحكام ^(٢) مسلمة وحجج باهرة ، وبراهين قاطعة ، وتشابه رائعة .

ونسوق فيما يأتي بعض ما قالته أم الخير البارقية والرزقاء بنت عدى ، وبكادة الهلالية .

(١) الخطب والمواظع : محمد عبد القنى حسن ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الخطابة في صدر الإسلام ١ : ٤٤٨ .

أم الخير بنت الحريش البارقية ؛ ترد على معاوية

كتب معاوية إلى واليه بالكوفة : أن أوفد على أم الخير بنت الحريش ابن سراقفة البارقية ، رحلة محمودة الصحة ، غير مذبذومة العاقبة ، واعلم أني مجازيك بقولها فيك ، بالخير خيراً ، بالشر شراً . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها إياه ، فقالت أما أنا فخير زائفة عن طاعة ، ولا معتلة بكذب . ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأموءر تختلج في صدري ، وتجرى بحري النفس يغلي بها على الرجل بحب البُلسُن^(١) يوقد بجحش السم^(٢) . فلما حملها وأراد مفارقتها قال : يا أم الخير ، إن معاوية قد ضمن لي عليه أن يقبل بقولك في : بالخير خيراً ، وبالشر شراً ، فأنظري كيف تكونين ؟ قالت : يا هذا لا يُطعمك والله بركبي في تزويق الباطل ، ولا تؤيسك معرفتك إياي أن أقول فيك غير الحق ، فسارت خير مسير . فلما قدمت معاوية أنزلها مع الحرم ثلاثاً ، ثم أذن لها في اليوم الرابع وجمع لها الناس ، فدخلت عليه ، فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . فقال : وعليك السلام ، وبالرغم والله منك دعوتني بهذا الاسم ! فقالت مه يا هذا ! فإن بديهة السلطان مُدْحَضَةٌ لمسايج علمه^(٣) . فقال صدقت يا عالة ، وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت لم أزل في طافية وسلامة حتى أوفدت إلى ملك جزل وعطاء بذل . فأنا في عيش أنيق ، عند ملك وفيق ، فقال معاوية : بحسن نيتي ظفرت بكم وأعنت عليكم ، قالت : مه يا هذا ! لك والله من دحض المقال ما تُردي طاقبته ، قال ليس لهذا أردناك .

(١) البلسن : العدس .

(٢) الجحش : أصل الشجرة بعد ذهاب الفرع ، والسمر شجر من أشجار البادية .

(٣) البديهة : المفاجأة ومدحضة مججلة .

قالت : إنما أجرى في ميدانك ، إذا أجريت شيئاً أجرته فأسأل عما بدا لك .
قال : كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر ؟ قالت : لم أكن والله رويته
قبل ولا زورته بعد^(١) وإنما كانت كلمات نفثن لسانى حين الصدمة . فإن شئت
أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ذلك . ثم التفت إلى أصحابه
فقال : أيكم حفظ كلام أم الخير ؟ فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا أمير المؤمنين
كحفظى سورة الحمد ، قال هاته اقال نعم ، كفى بها ، يا أمير المؤمنين ، وعليها
بُرد زبيدي^(٢) كتيّف الحاشية ، وهى على جمل أرمك^(٣) وقد أحيط حولها حواء^(٤)
ويدها سوط مُنشر الضففر ، وهى كالफल يُمدر في شقيقته^(٥) تقول :
« يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، إن الله قد أوضح
الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمه ،
ولا سوداء ممدلّمة ، فإلى أين تريدون رحمكم الله ؟ أفراراً عن أمير المؤمنين
أم فراراً من المؤمنين ؟ أم فراراً من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟
أم ارتداداً عن الحق ؟ أما سمعتم الله عز وجل يقول : « ولنبولنكم حتى تعلم
المجاهدين منكم والصابرين وتبلوا أخباركم » . ثم رفعت رأسها إلى السماء وهى
تقول : اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وانتشر الرعب ، ويدك يارب
أزمنة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهدى ، واردد الحق
إلى أهله . هلبوا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والوصي^(٦) الوفي ، والصدّيق الأكبر

(١) رويت في الأسر : فسكوت فيه ، وزورت الكلام ذيلته .

(٢) الأرمك : الرمادى . (٣) الحواء ما يتخذ كالوسادة على الرجل .

(٤) الشقيقة : شيء كالرئة يخرج منه البعور من فيه إذا حاج .

(٥) إنما سمى على عليه السلام بالوصى لقول رسول الله ﷺ له : « أنت منى
بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » فهو بذلك كقول الشيعة - وقد
أوصاه بالمسلمين واستخلفه عليهم .

لأنها لا تحمى بدنية^(١) وأحقاد جاهلية، وضغائن أحمدية، وثب بها معاوية حين الغلبة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس. ثم قالت: قاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعلمهم بقتلهم. صبراً معشر الأنصار والمهاجرين. قاتلوا عن بصيرة من دبتهم وثبات من دينكم. وكأنني بكم غداً لأدلقنم أهل الشام كحُمْسٍ مستنفرة لا تدرى أين يسلك بها من لحاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى، عما قليل ليُصنَّبِحُنَّ نادمين، حتى تحمل بهم الندامة فيطلبون الإقالة. إنه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل النار، أيها الناس إن الأكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها، واستبطلوا مدة الآخرة فسمعوا لها والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتمطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلبة الشيطان، لما اخترنا ورود المنايا على خفض العيش وطيبه. فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله ﷺ وزوج ابنته، خلق من طيبته، ونفزع من كبشعتيه، وخصه بسره، وجعله باب مدينته. وحكم المسلمين، وأبان بيضه المنافقين، فلم يزل كذلك يؤيده الله عز وجل بموته، ويمضي على سنين استقامته لا يعرج لراحته الدأب. هاهو مفلق الهام، ومكسر الأصنام، إذ صلى والناس مشركون، وأطاع والناس مرتابون، فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر، وأفى أهل أحد، وفرق جمع هوازن، فهاها من وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقاً، وردة وشقاقاً. قد اجتمعت في القول وبالفيت في النصيحة، وبالله التوفيق، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

(١) الإحن: جمع أحنة — الأحقاد — وبدنية نسبة إلى بدر وهي أولى الوقائع بين المسلمين والمشركين تريد أن معاوية بإثارته الحرب على علي إنما يقتل من قتل من آله يوم بدر.

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردت بهذا السلام إلا قتلي ! والله لو قتلتك ما سحر جنتي في ذلك . قالت : والله ما يسوءني يا ابن هند أن يجرى الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه . قال : هيات يا كثيرة الفضول : ما تقولين في عثمان بن عفان ؟ قالت : وما عسيت أن أقول فيه ؟ استخلفه الناس وهم عنه راضون ، وقتلوه وهم له كارهون . فقال معاوية : إياها أم الخير ! هذا والله أصلك الذي تبين عليه ^(١) قالت : لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنه بعباده والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً . ما أردت لعثمان نقصاً وإن كان لسباقاً إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة . قال : فما تقولين في طلحة بن عبيد الله ^(٢) قالت وما عسى أن أقول في طلحة ؟ اغتيل في مأمنه وأتى من حيث لم يحدر ، وقد وعده رسول الله ﷺ الجنة . قال فما تقولين في الزبير ^(٣) ؟ قالت يا هذا لا تدعني كرجيع الصبيخ يُعزرك في المراكب ^(٤) قال

(١) يريد أن سوء رأيها في عثمان هو الذي دفعها إلى مناصرة علي .

(٢) طلحة بن عبيد الله أحد السابقين الأولين والأبطال المعبدين وعاشر عشرة بشرم رسول الله بالجنة وسادس ستة أختارهم عمر رضي الله عنه ليكون منهم الخليفة من بعده ، وأول صحابي بايع علياً عليه السلام ثم استحال رأيهُ نفرج عليه وانضم إلى جند عاتقة رضي الله عنها يوم الجمل وهناك أصيب بسهم أودى به رضي الله عنه .

(٣) كان أمر الزبير حياً على شبيباً بأمر طلحة ، وكان قد انضم أيضاً إلى جند عاتقة فأرسل إليه على يذكره بقول رسول الله له : لتقاتلنَّه — يريد قتال هلياً — وأنت ظالم له ، فأنشئ من الموقعة فراراً من الباطل وعوداً إلى الحق ، فلما انتهى إلى واد يقال له وادي السباع أخذه النوم فاغتاله رجل من مجاشع يقال له عمرو بن جرموز .

(٤) الصبيخ : الثوب المصبوغ ، والعرك الدالك والحك ، والمركب الآلية أي لا تتركني كالثوب المصبوغ .

حقاً لتقولن ذلك وقد صومت عليك قالت وما عصيت أن أقول في الزبير ابن حصة رسول الله ﷺ وحواريه ، وقد شهد له رسول الله بالجنة . ولقد كان سباقاً إلى كل مكرمة في الإسلام ، وإنني أسألك بحق الله يا معاوية فإن قریشاً تحدث أنك أحلبها ، وأسألك بأن تسعى بفضل حليك ، وأن تعفين من هذه المسائل ، وخذ فيما شئت من غيرها . قال نعم وكرامة ، قد أعفيتك ، وردتها مكرمة إلى بلدها .

بلاغة الزرقاء بنت عدى

سهر معاوية ليلة فذكر الزرقاء بنت عدى بن غالب بن قيس - امرأة كانت من أهل الكوفة ، وكانت من يعين علياً عليه السلام يوم صفين ؛ فقال لأصحابه أيكم يحفظ كلام الزرقاء ؟ فقال القوم كلنا نحفظه يا أمير المؤمنين ، قال فما تشيرون علي ؟ فما ؟ قالوا تشير عليك بقتلها ، قال بئس ما أشرتكم عنى به ! أيحسن بمثل أن يتحدث الناس أني قتلت امرأة بعد ما ملكت وصاد الأمر لي ؟ ثم دعا كاتبه في الليل فكتب إلى طاعة في الكوفة أن أوفد إلى الزرقاء ابنة عدى في ثقة من محاربيها ، وعدة من فرسان قومها ، ومهدا وطاء لبنا ، واسترها بستر حصيف (١) . فلما ورد عليه الكتاب ركب إليها فأقرأها الكتاب ، فقالت : أما أنا فغير زائفة عن طاعة . وإن كان أمير المؤمنين جعل المشيئة لي لم أؤرم (٢) من بلدى هذا ، وإن كان حكم الأمر فالطاعة له أولى بي ، لحملها في هودج وجعل غشاءه جبراً مبطلناً بعصب العين ، ثم أحسن محبتها فلما قدمت على معاوية قال لها مرحباً وأهلاً خير مقدم قدم وأند . كيف حالك يا غالة ؟ وكيف رأيت مسيرك ؟ قالت خير مسير ، كأنى كنت ربيبة بيت أوطقلاً مهدداً . قال : بذلك أمرتهم فهل تعلمين لم يمشى إليك ؟ قالت سبحان الله أنى لي بعلم ما لم أعلم ؟ وهل أعلم ما في القلوب إلا الله ؟ قال يمشى إليك أن أسألك : ألست راكبة الجمل الأحمر يوم صفين بين الصفين ، توقدين الحرب وتحضين على

(١) الوطاء : الفرائش اللين ، والحصيف : المحكم النسيج . (٢) لم أؤرم : أى لم أتحرك .

القتال ؟ فما حالك على ذلك ؟ قالت يا أمير المؤمنين إنه قد مات الرأس ومُبرّر الذنب والدهر ذو غير ، ومن تفكر أبصر ، والامر يحدث بعده الامر ، قال لها : صدقت فهل تحفظين كلامك يوم صفين ؟ قالت : ما أحفظه . قال واسكني والله أحفظه ! لله أبوك . لقد سمعتك تقولين : أيها الناس ! إنكم في فتنه غشتكم جلايب العالم ، وجارت بكم عن قصد المحجة ، فيالها من فتنة عمياء صماء ، يسمع لقائلها ولا ينظر لسامعها ، أيها الناس ! إن المصباح لا يضيء في الشمس ، وإن السكوكب لا ينفذ في الفخر وإن البفل لا يسبق الفرس ، وإن الزئف لا يوازن الحجر ، ولا يفعل الحديد إلا الحديد . ألا من استرشدنا أرشدناه ، ومن استخبرنا أخبرناه ، إن الحق كان يطلب صلاته فأصابها . فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار ، فسكان قد اندمل شعث الشتات ، وأسمت كلمة العدل ، وغلب الحق باطله ، فلا يعجلن أحد فيقول كيف وأنسى ربي عني الله أمراً كان مفعولاً . ألا إن خضاب النساء الحناء ، وخضاب الرجال الدماء ، والصبر خسرير في الأمور عواقباً . إياها إلى الحرب قدماً غير نا كصين فهذا يوم له ما بعده ، ثم قال معاوية والله ياذرقاه لقد شركت عالياً عليه السلام في كل دم سفك . فقالت أحسن الله بشارتك يا أمير المؤمنين ، وأدام سلامتك مثلك من بشر بخير ، وسر جليسه ، قال لها وقد سرك ذلك ؟ قالت نعم لقد سرتي قولك . فأنسى بتصديق الفعل ؟ قال معاوية : والله لوفاؤكم له بعد موته أحب إلي من حبكم له في حياته . أذكرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين إني قد آليت على نفسي ألا أسأل أميراً أعنت عليه شيئاً أبداً^(١) . ومثلك أعطى عن غير مسألة وجاد عن غير طلب . قال صدقت ، فأقطعها ضيعة أظنّها في أول سنة عشرة آلاف درهم وأحسن صفدها ، وردها والذين معها مكرمين .

(١) الزئف : النظر جمهرة خطب العرب ، الجزء الأول والثاني .

بكرة الهلالية

استأذنت بكرة الهلالية على معاوية فأذن لها . فدخلت وكانت امرأة أسلت وعشى بصرها ، وضعت قوتها ، فهي ترعش بين خاديهن لها ، فسلمت ثم جلست ، فقال معاوية كيف أنت يا خالة ؟ قالت بخير يا أمير المؤمنين . قالت خيرك الدهر ! قالت كذلك هو ذو خير ، من حاش كبر ، ومن مات قبر . وكان هنالك مروان بن الحكم وعمر بن العاص ، فابتدأ مروان فقال : ألا تعرف هذه يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومن هي ؟ قال : هي التي كانت تعين علينا يوم صفين وهي القائلة :

يا زيد دونك فاستر من دارنا سيفاً حساماً في التراب دفينا
قد كان مذخوراً لكل عظمة فالיום أبرده الزمان مصونا

قال عمرو بن العاص : وهي القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا هيمت ذاك وما أراد بعيد
منتك نفسك في الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد
فارجع بانكد طائر بنحوهما لاقت علياً أسعد وسعود

فقال سعيد : يا أمير المؤمنين وهي القائلة :

قد كنت آمل أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أمية غاطبا
فأله أخسر مدق فتناولت حتى رأيت من الزمان عجابا

في كل يوم لا يزال خطيبهم وسط الجموع لآل أحد عابها
ثم سكّ القوم ، فقالت بكارة تبحتني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني
فقهر عجنجني^(١) وكثر عجي ، وعشى بصرى ، وأنا والله فائلة ما قالوا ،
لا أدفع ذلك بتكذيب ، فامض لهُأَنك ، فلا خير في العيش بعد أمير المؤمنين
فقال معاوية : إنه لا يضرّك شيء . فاذكري حاجتك نقض . فقضى حوائجها
وردها إلى بلدها .

وهناك خطيبات كثيرات مثل عكرشة بنت الأطرش وجروة بنت غالب
فقد حدث ابن أبي طاهر عن الشافعي ، قال :

دخلت عكرشة بنت الأطرش على معاوية ويدها عكاز في أسفله زج^(٢)
مستقي ، فسلمت عليه بالخلافة وجلست ؛ فقال لها معاوية : يا عكرشة الآن صرت
أمير المؤمنين ! قالت نعم إذ لا على شيء ، قال ألسنت صاحبة السكور^(٣) المسدول
والوسط المشدود ، والمتقلدة بمخاميل السيف ، وأنت واقفة بين الصفيين يوم
تقولين : يا أيها الناس عليكم أنفسكم لا يضرّكم من ضل إذا اعتديتم . إن الجنة
دار لا يرحل عنها من قطعتها ، ولا يحزن من سكنها ، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها
ولا تنصرم همومها ، كونوا قوماً مستبصرين . إن معاوية داف إلىكم بشيخ
مخلف القلب^(٤) لا يفقهون إلا ، إن ، ولا يدرون ما الحكمة ، دعاهم بالدين فأجاب
واستدعاهم إلى الباطل فلبسوه . فأنه الله عباد الله في دين الله وإياكم والتواكل
فإن في ذلك نقض عروة الإسلام ، وإطفاء نور الإيمان ، وذهاب السنة

-
- (١) اعتورتني : أي تنازعتني من كل جانب ، والمجنج : المصا .
(٢) الزج : الحديدة في أسفل الرمح أو نحوه ويطن به . (٣) السكور الرجل
(٤) غلف : جمع أغلف والقلب الأغلف الذي كأنما غشى خلافاً فهو لا يرى .
(٥ - أدب النساء)

ولإظهار الباطل ، هذه بدر الصغرى ، والعقبة الأخرى . قاتلوا يامعشر الأنصار والمهاجرين على بصيرة من دينكم ، واصبروا على عذبتكم ، فكأنى بكم غداً قد لقيتم أهل الشام كالحمر النفاقة والبغال الشبّاجية . تصقع صقع البعير ، وتزوث روث العناق ثم قال معاوية : فوالله لولا قدر الله وما أحب أن يحصل لنا هذا الأمر لقد انكشفوا العسكران ، فما حملك على ذلك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن اللبيب إذا كره أمراً لم يحب إحداثه . قال : صدقت ، اذكرى حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين إن قد رد صدقاتنا علينا ، ورد أموالنا فينا إلا بحقها . وإننا قد فقدنا ذلك فما أعطى فقير ، ولا يجهز لنا كسبر فإن كان ذلك عن رأيك فما مثلك من استعان بالخونة واستعمل الظالمين ، قال معاوية : يا هذه إنه تنوبنا أمور هي أولى بنا منك ، من بحور تنبتق ونفوق تنفتق . قالت : يا سبحان الله ! ما فرض الله لنا حقاً جعل لنا فيه ضرراً على غيرنا ما جعله لنا وهو علام الغيوب ، قال معاوية هيبات يا أهل العراق فقد فقهكم ابن أبي طالب فلن تطلقوا ، ثم أمر لها برد صدقتها وإنصافها وردها مكرمة .

جروة بنت غالب

احتجم معاوية بمكة ، فلما أمسى أرق أدقاً شديداً ، فأرسل إلى جروة بنت غالب التيمية — وكانت مجاورة لمكة ، وهي من بني أسد بن عمرو ابن تميم — فلما دخلت قال لها : مرحباً يا جروة ، أدرعناك ؟ قالت : إى والله يا أمير المؤمنين ، لقد طرقت فى ساعة لا يطرق فيها الطير فى وكره ، فأرعت قلبى ، وريح صيبانى ، وأفزعت عشتيرتى ، وتركت بعضهم يموج فى بعض ، يراجمون القول ويدبرون الكلام خشية منك وشفقة على . فقال لها : ليسكن دوعك ، ولتطاب نفسك ، فإن الأمر على خلاف ما ظننت ، لى احتجمت فأعقبى ذلك أدقاً ، فأرسلت إليك تخبرينى عن قومك .

قالت : عن أى قومى نسألتى ؟ قال : عن بنى تميم . قالت : يا أمير

للمؤمنين ثم أكثر الناس عدداً ، وأوسعهم بلداً وأبعده أمداً . ثم الذهب الأحمر ، والحسب الأنحر قال : فنزل بهم لى ، قالت : يا أمير المؤمنين أما بنو عمرو بن تميم فأصحاب بأس ونجدة ، وتحاشد وشدة ، لا يتخاذلون عن اللقاء ، ولا يطمع فيهم الأعداء ، سلمهم فيهم ، وسيفهم على عدوهم . قال : صدقت ، ونعم القول لأنفسهم ، قالت : وأما بنو سعد بن زيد مناة في العدد الأكثرون ، وفي اللسب الأظليون . يضرون إن غضبوا ويدركون إن طلبوا ، أصحاب سيوف وسجف^(١) ونزال وزلف^(٢) ، على أن بأسهم فيهم ، وسيفهم عليهم وأما حنظلة قالبيت الرفيع ، والحسب البديع والعز المنيع المكرمون للجار ، والطالبون بالنار ، والناقضون للكرتار . قال : إن حنظلة شجر تفرع ، قالت : صدقت يا أمير المؤمنين . وأما البراجم فأصابع مجتمة ، وكف متمتعة ، وأما طيبة فقوم مهور وقرن^(٣) لجسوج . وأما بنو ربيعة فصخرة صماء ، وحية رقتاء ينزون لغيرهم ، ويقفرون بقومهم ، وأما بنو يربوع ففرسان الرماح ، وأسود الصباح يمتقنون الأفران ، ويقتلون الفرسان . وأما بنو مالك ، فجمع غير مفلول . وعز غير مجهول ، ليوث هرارة ، وخيول كرامة ، وأما بنو دارم ، فكرم لا يداني ، وشرف لا يسامى ، وعز لا يواذى ، قال : أنت أعلم الناس بتميم . فكيف عليك بقيس ؟ قالت : كملى بنفسى . قال : تخبرينى عنهم ، قالت : أما غطفان ، فأكثر سادة ، وأمنع قادة . وأما فزارة ، فبيتها المشهور وحسبها المذكور . وأما ذبيان ، فخطباء أعزة أقوياء . وأما عيس ، فجمرة لا تطفأ ، وعقبة لا تقلى ، وحية لا تزق ، وأما هوازن فحلم ظاهر ، وعز قاهر . وأما مسلم ، ففرسان الملاحم ، وأسود ضراغم . وأما نهم ، فشوك مسمومة ، وهامة مذمومة ، وراية ملبومة ، وأما هلال ،

(١) الحيف — جمع حيفة — التروس من جلد بلا خشب .

(٢) الزلف : الإقدام .

فاسم غنم ، وعوضهم ، وأما بشو كلاب ، فعدد كثير ، ونظر أمير قال :
 لله أنت إفاقولك في قریش ؟ قالت : يا أمير المؤمنين هم خروة السنم ،
 وسادة الأنام ، والحسب القمقام قال : فاقولك في علي - عليه السلام -
 قالت : حاز والله في الشرف حداً لا يومف ؛ وغاية لا تعرف ، والله أسأل
 أمير المؤمنين إعفائي عما أخوف . قال : قد فعلت ، وأمر بضبعة غلثها
 عشرة آلاف درهم .

ونلاحظ أن أسلوب الخطابات هو الأسلوب الذي يساقط الطبع ويؤام
 السايقة ، ولا يعترف في لفظ أو فكر أو خيال ، فهو لين هادي أو ناثر
 طاصف على حسب المقتضيات ووفقاً للأحوال ، مع وضوح اللفظ ، وسهولة
 في الأسلوب ، والانسجام التام في بناء الكلمات ، وترك السجع المرفول وهجر
 الوحش والبعد عن التكلف ، والإيجاز في موضوع الإيجاز والإطناب فيما
 يستدعي الإطناب والإكثار (١) .

كما نلاحظ أن الخطابات وبخاصة الشيعيات كانت خطابين تقوم على الإفناع
 والتأثير في النفوس مدحات خطبين بأدلة عقلية ونقلية ، فيستشهدون بالقرآن
 الكريم وأحياناً بالشعر ومأثور الكلام من حكمة ومثل ، كما في خطبة عكرشة
 بنت الأعرش ، فإننا نرى الآيات القرآنية تشع في جوانبها وتتلألأ في ثناياها
 « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اعتديتم » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسأوا
 عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » ، وقد بدأت خطبتها بالنداء : يا أيها الناس لتحرك
 الأذهان الغافلة وتنبه العقول النائمة كما تشعرهم بالعبء الثقيل الملقى على كاهلهم
 وأنفسهم فتدفعهم دفعا إلى إصلاح أخطائهم ، والإفاقة من الضلال « فأنه
 الله عباد الله في دين الله » ، ثم زين لهم أجر الجهاد وهو الجنة في أسلوب

(١) الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام ، مؤسسة ومكتبة خدمة العلم - الرياض

التوكيد لنحفزم إلى التضحية بأرواحهم وأموالهم ، إن اللجنة لا يرسل من أوطانها ، ولا يهرم من سكنها ولا يموت من دخلها فابتاعوها بدار لا يدوم أنعيمها ولا تنصرم مومها .

كما نحمد من التواكل في استعارات جميلة : « إياكم والتواكل ؛ فإن ذلك ينقض عرا الإسلام ، ويطفىء نور الحق ، كما تسوق التشبهات الرائعة ، فتشبه موقمة « صفين » بموقمة من دعوا أن هذه الموقمة التي يخوضها أنصار علي ، في موقمة صفين تشبه أيضاً بيعة العقبة حين بايع المسلمون الأولون من الأنصار النبي ﷺ ، وعاهدوه أن ينصروه بأموالهم وأنفسهم ، أى أن هذه الموقمة دفاع عن الإسلام ونصرة له كذلك .

ثم نخرج في آخر خطبتها إلى النداء كذلك في أسلوب إنشائي خلاّب أعقبه تشبيهات مثيرة لتبيح حميتهم وتشعل حماسهم ضد معاوية : « يا معشر المهاجرين والأنصار امضوا على بصيرتكم واصبروا على عزيمتكم ، فكأنكم بكم غداً وقد لقيتم أهل الشام كالبحر النافقة تصقع صقع البقر .

كما نلاحظ أن « أم الخير بنت الحريش » تبدأ خطبتها بالأمثال الحكيمة والحكم السائدة لتشعر معاوية بأن حكمها عليه ، حكم صحيح مسلم لا يقبل النقض والإبرام « إن بديهة السلطان مدحضة ولسكل أجل كتاب » .

وخطفت خطبتها استشادات من القرآن الكريم كسائر الخطبات الشيعيات « اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، ولنبأونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ولبأ أخباركم ، « قاتلوا أئمة الكفر لأنهم لا إيمان لهم لعلهم ينتهون » ، وإن هذا الموقف الرهيب بين يدي حاكم قوى كعواوية لم يحل بينها وبين قول الحق ، والجهر بالرأى القويم ، وإصابة سواء للفصل وإقناع معاوية بالحجة والبرهان ، كما تستنبط من حديثها مع معاوية أنها خطيبة قد أوتيت من

قوة العارضة وبلاغة المنطق والتلاعب بالألفاظ ما لم تؤت خطيبية أخرى فهي تستطيع بقوتها الخطابية أن تجعل الحق باطلاً والباطل حقاً ، وأن تغلب ببلاغتها أمة بأسرها ، يدل على هذا ما قالته لمعاوية حينما عنفها على قولها خطيبتها التي أيدت فيها الإمام عليّ : « إنها كليات نفثها لسان عند الصدمة فإن أحببت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت » ، وهذا يدل على قدرتها الخطابية الخارقة العجيبة .

وحينما تنتقل إلى خطبة الزرقاء بدت عدى ترى فيها من سمو التعبير ، وعظمة التأثير ، ما يهز القلوب ، ويملك على عقل الإنسان كل منافذه وأبوابه ، في منطوق منسق وحيج متدافعة متدفقة كما نجد ما تضمن نثرها وخطبها آيات من القرآن الكريم وأمثلة وحكا تتألق من خلال أقوالها تألق الدرر ، في انساق عجيبة ، ونسق بهيج لقولها : « والدمر ذو غير ، من تفكر انصد ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ، والصبر خير في الأمور عواقب » ، وما أدوع استعاراتها في قولها : « إنكم قد أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد المحبة ، فيالها فتنة صماء بكاء ، لا تسمع لنا عقبا ، ولا تنساق لقائدها ، وفي قولها إن المصباح لا يعضد في الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر تشبيهه ضمنى سيدنا علي بالشمس والقمر وقد أخذهما أبو العلاء المعري فقال :

يؤجج في شعاع الشمس ناراً ويقسح في تلبيها زناداً

وفوق ذلك كله تنمي خطيبين بصحة الألفاظ واستقامة الأساليب وبلاغتها ، وقوة المنطق وصدق الحجة إلى ترتيب الأفكار وتلسيق الحجج ، وإلى إصابة المخر وبلوغ الهدف ، كل ذلك يمد من خصائص بلاغة هؤلاء الخطيبات ، ودعوة نثرهن . وروح نثرهن والجزو الذي يسيطر عليه والتأثرات المختلفة فيه ترشد إلى أثر الإسلام والقرآن في بلاغة النساء^(١) كما قدمنا ذلك فيما سبق .

أسلوب المحاورات

يفسر علماء اللغة المحاوره بأنها مراجعة الكلام، يقال حاورته أى راجعته الكلام، وتجاوز القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم فمادة المحاوره تدور حول الرجوع، ويفرق علماء اللغة بين المحاوره والمجادلة، إذ المجادلة تنطلب اللدد فى الخصومة، وما يكون فى نحو من ذلك، ولكنها فى كل صورها تدور حول التخاصم بالكلام .

وأما المحاوره فهى مجرد مراجعة الكلام بين المتكلمين ولا تلزم فيه صور الخصومة، وإنما تغلب عليها صور الكلام للتبادل بين الطرفين فى أسلوب لا تقصد به الخصومة فى حد ذاتها أو لا يراد به بالضرورة الاتهام إلى الخصومة. وهذه التفرقة بين الدلولين إنما استفاهما اللغويون بطبيعة الحال من تتبع الاستعمال العربى، وإذا ذهبنا إلى القرآن الكريم فى استعماله للفظين نجد فيه هذه التفرقة، وذلك فى قوله تعالى : « قد سمع الله قول الذى تمجادلك فى زوجها ونهشكى إلى الله والله يسمع تهاوركنا، (١) » .

لحديث المرأة من زوجها كان خصومة، ولذلك كان التعبير بالمجادلة، ولكن حديثها مع النبى صلى الله عليه وسلم كان مراجعة للكلام، ولذلك كان تسميه بالمحاوره (٢) .

ونلاحظ أن المحاوره التى وردت بين معاوية والتخليات الشيعيات أنصار على كانت من قبيل المحاوره لأنه كان مراجعة فى الكلام والفرض منه الوصول إلى الحق الذى يعتقد كل طرف .

(١) أول سورة المجادلة .

(٢) أسلوب المحاوره، دكتور عبد الحليم حنفى ص ١١، ١٢

والحوار من ألوان الخطابة ، ويعد أعلى مراتب الكلام ، وأوعر مسالك القول فافضل فيه مذكور لصاحبه ، والإحسان شامد لربه ولذلك يقل فيه أثر الصنعة ويكون الاعتماد فيه على الطبع والدرية والحوار يكشف عن طاقة بلاغية ومقدرة خطابية ، وبديهة وادرجال ، لأن الجانبين كليهما يقلان فيما لم يعداله ، ويفاجيء كل منهما صاحبه بما لم يعلمه ، ومن كان عند البديهة والادرجال قادراً على الإجابة والإحسان فهو عند الروية والسعة أكثر قدرة وأرفع في الفصاحة قة ، وقد قوى فن الخطابة وازدهر بالحوار والجهد ومحاولة الإفتاع في الدين والسياسة والخصومات المختلفة ، وكان أن اتبع الخطباء في هذا سبل القرآن وحاكروا أساليبه في إيراد الحجج الخطابية وسوق الأدلة المقنعة وعرض القضايا المنطقية السليمة . وقد أصبح هذا اللون قسماً متخماً من أقسام الخطابة الإسلامية يمكن أن ينسب إليه جانب كبير من النهضة الخطابية ، وهذا ما مهد لقيام الخطابة الاستشارية السياسية ، ولم تسكن معروفه قبل الإسلام بمفهومها الواضح الصحيح ، وما كانت قريباً منها في بعض منازعات الجاهليين فإنه لم يكن شيئاً يذكر لأنه كان يتمثل في صورة غامضة من القول في الخصومات البدوية تترادى في ثوب المماخرة والمناظرة المصطنعة بالعصية القبلية من غير ملاحح واضحة أو كيان متميز يميزه كأسلوب المحاوره والمناظرة التي ظهرت فيما بعد في لون متميز .

ومن صفات المحاور أن يكون لبقاً مرناً ذا كياسة وذكا . وحذق يدعم رأيه بالأدلة الساطعة والبراهين القاطعة ، وأن يكون ذا أسلوب رقيق سلس يستولى به على قلوب محاوريه ، وينتزع منهم إقتناعهم وإعجابهم ، وكذلك كان شأن النساء المحاورات مع معاوية ، كسودة بنت حمارة الحمدانية ، وأم سنان بنت خيشمة ، وبكارة الهلالية ، وأروى بنت الحارث وأم البراء بنت صفوان والحجوينة كما يظهر في أدبهن الاعتداد بالرأى ، والاعتزاز

بالنفس ، والجسرة في الحق مهما كلفهن ذلك من ثمن ، نرى ذلك ونلاحظه في رد سودة بنت عمار على معاوية معلة خروجها ضده بحب الإمام على وآل بيته ، حينما قال لها ما حملك على ذلك ؟ قالت : « حب على عليه السلام واتباع الحق » .

وكثيراً ما تدعم المحاورات محاورتهن بالاستشهاد بالشعر كقولها متثلة بقول الخنساء في موقف الدفاع عن أخيها :

وإن صخرأ لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

ثم أخذت تشكو إلى معاوية ظلم بسر بن أرطاة وأنه أحمل في قومها الظلم والفسوة ، لحصم حصاد السنايل وداس على أجسامهم دوس البقر واستولى على أموالهم ، وقتل أغاب رجالهم ؛ ثم أخذت تمدح الإمام علياً بأبيات ساقها :

صلى الإله على جسم تضمنه قبر فأصبح فيه العدل مدفوناً
قد حالف الحق لا يفي به بدلاً فصار الحق والإيمان مقروناً
وفي آخر المحاور تصف رقة قلب الإمام على وبكائه من أجل نصرة المظلومين والتفاني في سبيل رد الحق إليهم

وسودة في محاورتها أكسائر الشيعة المحاورات تمثل نزعة جديدة قوية ، وجرأة عارفة في سبيل نصرة الحق والمبدأ والعقيدة في ألفاظ رصينة وعبارات قوية جولة تمثل شجاعة القلب ومضاء المرومة تتدافع وتتدفق ، تجلجها حرارة الإيمان وتسيطر عليها روح الحب للإمام على رضي الله عنه .

وفي محاوره أم سنان نرى استشهادها بالشعر ما بين الفينة والفينة كطبيعة أسلوب محاوره الشيعة في هذه الفترة ، وتتلأ في محاورتها صور من

من الاستعارات والتشبيهات والكنايات التي تملك شغاف القلوب وتأسر المشاعر ، فهي تصور الإمام عليا وقد أحاط به أصحابه من كل جانب ، كالحلال تهيئ به النجوم من كل ناحية وهكذا في كل صورة من صورها البيانية ، لا ترى إلا بحر بيان وإبداع صوغ وتحليق خيال ، كما يظهر في المحاورة أثر الثقافة الإسلامية وما تطبعه في نفس الفرد من قيم عظيمة يدافع عنها بدافع من دينه وعقيدته ، فقد تصدت لروان لأنه لا يحكم بعدل ولا يقضى بسنة ويتبع عورات المسلمين ويكشف سورات المؤمنين في دفاع مرير وإصرار عنيد وتلك هي سمة المنتشيعات لآل علي : تراهن يصدعن بالحق دون خوف من حاكم أو خشية من آمر تسيطر ، عليهم روح الحاسة التي تقضي في النهاية إلى غايتها من الإنارة والتأثير وتنتهي إلى فرضها من الاستجابة والانقياد .

كما رأينا بكارة الهلالية شجاعة جريئة تدخل على معاوية وتعاوده في رباطة جأش وثبات قلب تنطق بالحكمة السائرة « الدهر ذو غير ، من هاش كبر ، ومن كبر قبر ، » .

كما قدمت لنا صوراً مختلفة من أوان البيان الرائعة « نبحني كلابك يا أمير المؤمنين واعتورني ، » « فقصر عجمي ، وكثر عجمي ، وعشى بصرى ، » . كما تمثلت باستشهادات شعرية مختلفة بما زاد الحوار جمالا وتأثيراً ، كما تبدو فيها حلاوة الازدواج والموازنة بين الألفاظ والجل في عبارات سهلة وأساليب مختارة برمت من كل صنعة وزخرف وتكلف ، وقصفت إلى غايتها من أقرب طريق في تنوع يضفي عليها حلاوة الجدة ويسكبها مريداً من التشويق والتأثير ما جعل معاوية يتأثر بأسلوبها ويعجبها مكرمة مجازاة إلى بعدها .

ومحاورة أدوى بنت الحارث تنسم فروة البلاغة بما قبست في خطبتها من أضواء القرآن الكريم ، وأخذت من سنائه ورشفت من رحيقه والذى

يطالع خطبتها يحس الأثر الواضح للبيان القرآني والاقتباسات المضيئة من آياته فيجلى ذلك في قولها : « وكانت كلبتنا هي العليا ، ورد الحق إلى أهله ولو كره المشركون » .

كما استشهدت بأبيات شعرية في غير موضع من الخطبة كمادة الخطيبات الشيعيات ، واشتملت الخطبة على تعنيف معاوية لانتزاعه السلطة من يد الإمام علي ، وأخذته غير حقه من غير جدارة واستحقاق ، ثم أخذت تمدح الإمام وتضفي عليه حالات المدح والثناء ، وأنه بعد النبي ﷺ بمنزلة هارون من موسى وفرقت بين ظبي علي ومعاوية ، وأن غاية الإمام الجنة وغاية معاوية النار ، ولقد بلغت بها جرأتها النادرة ، وشجاعتها الغدة أن شتمت معاوية ولم ترهب سطوة السلطان ، وهيبة الحسك لباطلة جاهشها ، ولذلك جاءت خطبتها آية في البلاغة لأن آلة البلاغة كما يقول أبو هلال العسكري رباطة الجأش فان الحيرة والدهش يورثان الحبسة والحصر وهما سبب الارتجاج والإجبال^(١) ولذا فإن معاوية رغم شنائها ، قد سحرته بلاغتها ، وقوة منطلقها ، ووفرة التضمين من القرآن الكريم والشعر العربي الجيد ، وأمر لها بستة آلاف دينار .

وفي هذا المجال تبرز أيضاً شجاعة أم البراء بنت صفوان تحاور معاوية في شجاعة عارقة وبلاغة نادرة رغم ضعفها ومرضاها حتى شهد لها معاوية ببلاغة منطلقها ، وقوة حجتها حيث قال لها عقب خطبتها له : « قاتلك الله ما تركت مقالة لتافل ، وسر بلاغها يرجع كما قدمنا إلى اقتباسها من القرآن واستدلالها بآيات منه في معرض اعتذارها أمام معاوية كقولها : « عفا الله عما سلف ، ومن عاد فيلتقم الله منه ، واستشهداها بالشعر العربي الجيد في معرض الحماسة والتهبيج كقولها :

باليمنى أصبحت غير قعيدة فأذب عنه صاعك الفجار
وكقولها في بكاء الإمام على :

الشمس كاسفة لموت إمامنا خير الخلائق والإمام العادل

ومما يمتاز به أسلوب الخطبة ذلك الوضوح الذي يكشف عن قصدتها في
غير تعمية ولا تضليل ، وتلك الصراحة الشجاعة في غير موارد أو نفاق .

وما أحسن محاوره دارمية الجحونية حيث تعلل لحبها للإمام على بن
أبي طالب تعليلاً لطيفاً يقوم على الحجية والبرهان والمنطق ، لمدله في الرعية ،
وقسمه بالسوية ولحبه للمساكين ، وإعظامه لأمر الدين .

كما هلت كراميتها لمعاوية . وأرجعت ذلك - في نظرهما - إلى سفسكه
للدماء وشق عصا الطاعة ، والجور في القضاء والحكم بالهوى . وأسلوبها يمنح
إلى السجع المحبب أحياناً وإلى الازدواج والموازنة تارة أخرى ، كما يشيع في
محاورتها ضرب الأمثال الحكيمة ، مالا ولا كصداء ، ، «وه رعى
ولاً كاسمدان» وهذا ما يميز أسلوب الخطيبات الشيعيات بوجه خاص كما بينا
فيما تقدم .

المتحاورات مع معاوية

(محاورة سودة بنت حمارة)

وفدت سودة بنت حمارة بن الأشتر الهمدانية ، على معاوية بن أبي سفيان ،
فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها . كيف أنت يا بنة
الأشتر ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال لها : أنت القاتلة لأخيك
يوم صفين :

شمر كفعل أهلك يا ابن حمارة يوم الطعان وملتقى الأقران
وانصر عليا والحسين ورهطه واقعد لهند وابنها بهوان
إن الإمام آخر النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فقد الجيوش وسر أمام لوائه قدماً بأبيض صارم وسنان^(١)
قالت : إى والله ، ما مثلى من رغب عن الحق ، أو اعتقد بالكذب ،
قال لها : فما حملك على ذلك ؟ قالت . حب على عابه السلام ، واتباع الحق ،
قال : فوالله ما أرى عليك من أثر على شيئاً ، قالت : أنشدك الله يا أمير المؤمنين
ولإعادة ما مضى ، وتذكرك ما قد نسي ، قال : هيات ! ما مثلى مقام أخيك
مبني ، وما لقيت من أحد ما لقيت من قومك وأخيك ، قالت : صدقت
والله يا أمير المؤمنين ، وما كان أخى خفى للمقام ، ذليل المسكان ، ولكن كما
قالت النساء :

وإن صخرأ لنا ثم الهداة به كأنه علم فى رأسه نمار^(٢)

(١) القدم : الشجاع ؛ وفى بلاغات النساء : وقد الخوف وسر أمام لوائه .

(٢) العلم : الجبل .

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الراس وبتر اللذنب ،
وبالله أسأل أمير المؤمنين إعفائي عما استغفرت منه ، قال : قد فعلت ، فقولى
حاجتك ، قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيداً ، ولا مورد
متقلداً ، والله ساء لك عن أمرنا وما افترض عليك من حقنا ، ولا تزال تقدم
علينا من يهن بمرءك ، ويسط سلطانك ، فيحصدنا حصاد الصل ، ويدوسنا
دياس^(١) البقر ، ويسومنا^(٢) الخسيسة ، ويسلبنا الجميلة ، هذا ابن أوطاة^(٣)
قدم بلادى ، وقتل رجالي ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعة لكان فينا عز ومنعة ،
فأما عزك عنا ففسكرناك ، وإما لا ، فمرتناك ، فقال معاوية : إياي تهددين
بقومك ؟ والله لقد حممت أن أحملك على قتب^(٤) أشرس فأردك إليه ، ينفذ
فيك حكمه ، فأطرفت تبكى ، ثم أُنشأت تقول :

صلى الإله على روح قضمته قبر فأصبح فيه المعدل مدفوناً
قد حالف الحق لا ييغى به ثمناً فصار بالحق والإيمان مقروناً

(١) الدوس والدياس والدياسة : الوطء بالرجل .

(٢) يسومنا : أى يذيقنا الخسيسة .

(٣) هو بسر بن أوطاة ، وقيل ابن أوطاة ، وكان معاوية فى أيامه على
سيره إلى الحجاز وابن ليقول شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار إلى المدينة ، ففعل بها
أفعالا شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن العباس من قبل على ،
فهرب عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبيد الرحمن وقثم ابني عبيد الله وهما صنفان بين
يدى أهمها طائفة بنت عبد المدان ؛ فأصابها من ذلك حزن عظيم ؛ فأُنشأت تقول :

يا من أحسن بلى الذين هما كالدرتين تشظى هتما الصدف
يا من أحسن بلى الذين هما سمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم عطف
يا من أحسن بلى الذين هما خ العظام ، ففى اليوم مردف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على ؛ أو سنام البعير .

قال : ومن ذلك ؟ قالت : عليّ بن أبي طالب ، رحمه الله تعالى ، قال : وما صنع بك حتى صار عندك كذلك ؟ قالت : أئبته يوماً في رجل ولاء صدقائنا ، فكان يئتنا ويئنه ما بين الفث والسمين ، فوجدته قائماً يصلي ، فأنفل من الصلاة ، ثم قال برأفة وتعطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكي ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد عليّ وعليهم ، إني لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب فكتب فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : وقد جاءكم بيضة من ربكم ، فأوفوا الكيل والميزان بالقسط^(١) ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تعثوا^(٢) في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، إن أناك كتابي هذا فاحفظ بما في يدك من عملنا ، حتى يأتي من يقبضه منك والسلام . »

فأخذته منه والله ما خوره بخزام ، ولا ختمه بختام^(٣) فقرأته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإصاف لها ، والعدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن القحشاء واللؤم ، إن لم يكن عدلاً شاملاً ، وإلا يسعني ما يسع قوى ، قال : هبات ! لمظلمكم^(٤) ابن أبي طالب الجرأة على السلطان فبطيئاً ما تقطعون ، وغركم قوله :

(١) القسط : العدل .

(٢) صا يمشو عثوا : افسد .

(٣) الخزام : جمع خزيمة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجعل في أحد جانبي منخري البحر ، وخزيمة النمل : سحر رقيق يحرم بين الشراكين ، الختام : العائن يحتم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على العليقة) .

(٤) التلظ : التذوق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فيه بعد الأكل ، يتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيمسح به شفتيه ، واسم علم ما بقى في الفم اللماظة بالضم ، ويقال : لظ فلاناً (بالتشديد) لماظة : أي شيئاً يتلظ به ، ولظله من حقه .

فلو كنت يوماً على باب جنة لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وقوله :

ناديت همدان والأبواب مغلقة ومثل همدان سقى فتحة الباب
كالهندوان لم تغفل مضاربه وجه جميل وقلب خير وجاب
أكتبوها ولقوها^(١) .

محاورة أم سنان بن خيشمة

حبس مروان بن الحكم ، وهو والى المدينة ، في خلافة معاوية ، غلاماً
من بني ليث في جنابة جناها ، فأنته جدة الغلام ، وهي أم سنان بنت خيشمة^(٢)
المدحجية ، فكلمته في الغلام فأغفل لها مروان ، فخرجت إلى معاوية ، فدخلت
عليه فأنشبت فعرفها ، فقال لها : مرحباً بك يا بنت خيشمة ، ما أقدمك أرضنا ،
وقد عهدت لك تضيئنا^(٣) وتخصين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف
أخلاقاً طاهرة ، وأعلاماً ظاهرة ، وأحلاماً وافرة ، ولا يجهلون بعد علم ،
ولا يسفهون بعد حلم ، ولا يلتقمون بعد صفو ، وإن أولى الناس اتباع
ما سن أبائهم لأنهم ، قال : صدقت ، نحن كذلك فكيف قولك :

عرب الرقاد ، فقلتي لا ترقد^(٤) واللبل يصدد بالمعوم ويورد^(٥)
يا آل مذحج ، لا مقام ، فشمروا إن العدو لآل أحمد يقصد

(١) المقد الفريد ١ : ١٢٩ ، وبلاغات النساء ص ٣٥ .

(٢) في صبح الأمل : حشمية ، وهو تحريف : وتحريره : ما ذكرنا .

(٣) وفي بلاغات النساء : د تضيئين قري ، أى تضيئين .

(٤) عرب : بعد .

هذا على كالهلال تحفه وسط السماء من الكواكب أسعد^(١)
 خير الخلاق وابن عم محمد إن يهدكم بالنور منه تهتدوا
 ما زال مد شهد الحروب مظفراً والنصر فوق لوائه ما يفقد
 قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلقاً بعده ،
 فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة :
 إما هلكت أبا الحسين فلم تول بالحق تعرف مادياً مهدياً
 فاذهب، عليك صلاة ربك مادعت فوق النصوص حماة قرياً^(٢)
 قد كنت بسم محمد خلقاً كنا أرضى إليك بنا ، فكنت وفيأ
 واليوم لا خلف يؤمل بعده هيات فأمل بعمده إنسياً
 قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك
 ما ظنناه ، لحطك الأوفر ، والله ما أوردك الشئان في قلوب المسلمين إلا هولاء ،
 فأدحض مقالاتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك ترد من الله قرباً ،
 ومن المؤمنين حباً . قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبعان الله ، والله
 ما مثلك من مدح يامل ، ولا اعتد إليه بكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ،
 وخير قلوبنا ، كان والله على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك ،
 قال : من ؟ قالت : من مروان بن الحكم وسعيد بن العاص . قال : دويم
 استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسمة حليك ، وكريم عفوك ، قال : وإنهما
 يطمعان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل ما كنت عليه لثمان

(١) سمود النجوم عشرة : سعد بلح (بضم ففتح) وسعد الأنخية ، وسعد
 المذابح ، وسعد السمود ، وهذه الأربعة من منازل القمر
 (٢) القمرى : حشر من الخيام .

ابن عفان رحمه الله تعالى . قال : والله لقد قاربت ، فما حاجتك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان بن الحكم بالمدينة يبتشك من لا يريد منها البراح ، لا يحكم ببدل . ولا يقضى بسنة ، يتبع عثرات المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ، حبس ابن ابني ، فأثبته ، فقال : كيت وكيت ، فألقته أخشن من الحجر ، وألقته أمر من الصبر . ثم رجعت إلى نفسي بالسلامة ، وقالت : لم لأصرف ذلك إلى من هو أولى بالمعروف ، فأثبتك يا أمير المؤمنين لتسكون في أمرى ناظراً ، وعليه مُعدياً ، قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت : يا أمير المؤمنين ، وأنسى لي بالرجعة ، وقد نفدت زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها برحلة موطأة ، وخمسة آلاف درهم^(١) .

محاورة أروى بنت الحارث بن عبد المطلب مع معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً بأهنة ، فكيف كنت بعدنا ؟ فقالت : « يا ابن أخي ، لقد كفرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك الشَّجبة ، وتدميت بغير اسمك ، وأخذت غير حقك ، من خير بلاء كان منك ولا من آهلك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم بما جاء به محمد ﷺ ، فأنس الله منكم الجسد^(٢) » ، وأضرع^(٣) منكم الحسدود ، ورد الحق إلى أهله ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، وديننا ﷺ هو المنصور ، فوليت علينا

(١) العقد الفريد ١ : ١٢١ ، وصحح الأحمدي ١ : ٢٥٧ ، وبلغات النساء ص ٦٧

(٢) جمع جد : وهو الحظ .

(٣) أذل ، وفي بلغات النساء « وأضرع » .

من بعده - وتحتجون بقرابتكم من رسول الله ﷺ ، أقرب إليه منكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بنى إسرائيل في آل فرعون ، وكان على بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا ﷺ بمنزلة هرون من موسى (١) ؛ فغابتنا الجنة ، وغابتكم النار .

فقال لها عمرو بن العاص : كفى أيتها العجوز الضالة ، واقصرى من قولك ، وغضى من طرفك ، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو ابن العاص ، قالت : يا ابن اللخناء (٢) النابغة تتكلم ، وأنت كنت أشهر امرأة تغنى بمكة ، وأخذت من لأجرة اذبيع على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ؛ فوالله ما أنت من قرش في اللباب من حسبا ، ولا كريم منسبها ، ولقد اذعاك خمسة (٣) نفر من قرش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسئلت أمك عنهم ، فقالت : كلهم أناني ، فانظروا أشبههم به ، فالحقوه به ، فغاب عليك شبه العاص ابن وائل ، فلمحق به ، ولقد رأيت أمك أمام منى بمكة مع كل عبد طامر (٤) ، فأتم بهم فإنك بهم أشبه .

(١) ورواية بلاغات النساء : فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين حظاً ، ولصديقاً وقدرأ ، حتى قبض الله عليه ﷺ ، مغفوراً ذنبه ، مرفوعاً درجته ، شريفاً عند الله مرضياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم موسى من آل فرعون ، يذبحون أبناءهم ، ويستحيون نسائهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا بمنزلة هرون من حيث يقول : « يا ابن أم » إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني .

(٢) رجل الخن وأمة الخن : لم يحنأ ، ولحن السقاء ، وغيره كفرح : أنتن ، والجرزة فسدت ، ومن شتم العرب « يا ابن اللخناء » كأنهم يقولون : يا ذنء الأصل ، أو يا لثيم الأم ، والنابغة أم عمرو ، وقد تقدمت .

(٣) وفي بلاغات النساء « ستة » .

(٤) طاجر .

فقال مروان : كفى أيتها العجوز ، وأفسري لما جئت له . ساخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يا ابن الزرقاء تنكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كعدة أشبه منك بالحكم ، وإنك أشبهك في زُرقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمايته ^(١) ، ولقد رأيت الحكم ماد ^(٢) القامة ، ظاهر الإمامة ^(٣) ، سبط ^(٤) الشعر ، وما ينسكا قرابة إلا كقرابة الفرس الضامر من الأنان المشرب ^(٥) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أبيك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جراً على هؤلاء خيرك ، وإن أمك للقائلة يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه :

نحن جزيناكم يسوم بذر
والحرب بعد الحرب ذات مسمر
ما كان عن عتبة لي من صبر
أبي وحشي وأخى وصهرى
شفيت (وحشي) غليل صدرى
شفيت نفسى وقضيت نذرى
فشكر وحشي على دهرى
حتى ترم أعظمى في قبرى
فأجبتها :

يا بنت جبار عظيم الكفر
خويت في بند وضير بند
صبحك الله قيل الفجر
بالماشيين الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يفرى
حمزة ليلى ، وعلى صقرى

(٢) بمد القامة ،

(١) الإمامة : التبحر .

(٣) الإمامة بالكسر ويعنى : الشأن والنسبة والهيئة .

(٤) سبط الشعر : طويله .

(٥) الأنان : الحمار

فقال معاوية لمروان وعمره : ويلسكا ! أنتما هرّضتاني لها ، وأسممتاني
ما أكره ، ثم قال لها : يا عمة أقصدي قصد حاجتك ، ودعي عنك أساطير
النساء ، قالت : تأمرني بألني دينار . وألني دينار ، وألني دينار ، قال : ما تصنعين
يا عمة ، بألني دينار ؟ قالت : أشتري بها عينا خرّعة^(١) في أرض خوّارة^(٢) ،
تسكون لولد الحادث بن عبد المطلب ، قال : نعم الموضع وضعها ، فما تصنعين
بألني دينار ؟ قالت : أزوّجُ بها فتيان عبد المطلب من أكفائهم ، قال : نعم
للموضع وضعها ، فما تصنعين بألني دينار ؟ قالت : أستمين بها على حصر المدينة ،
وزيادة بيت الله الحرام ، قال : نعم الموضع وضعها ، هي لك نعمٌ وكرامة ،
ثم قال : أما والله لو كان عليّ ما أمر لك بها ، قالت : صدقت ، إن علياً أدى
الأمانة ، وعمل بأمر الله ، وأخذ به ، وأنت ضيعت أمانتك ، وخنت الله في
ماله ، فأعطيت مال الله من لا يستحقه ، وقد فرض الله في كتابه الحقوق لأهلها
وبيّنها ، فلم تأخذ بها ، ودعانا (أي عليّ) إلى أخذ حقنا الذي فرض الله لنا
فغفل بمرّك عن وضع الأمور مواضعها ، وما سألتك من مالك شيئا فمنّ به ،
إنما سألتك من حقنا ، ولا نرى أخذ شيء غير حقنا ، أتذكر علياً ؟ فضّ الله
فأك^(٣) ، وأجهد بلاءك ، ثم علا بكأوها وجعلت تندب علياً ، فأمر لها
بسة آلاف دينار ، وقال لها : يا عمة : أنفق هذه فيما تحبين ، فإذا احتجبت
فاكتبني إلى ابن أخيك يحسن صفدك^(٤) ومعوتك ، إن شاء الله^(٥) .

(١) أي تخرّ الماء . (٢) خوّاره أي ضيقة .

(٣) تدعو عليه : أي نرا الله أسنانك .

(٤) الصفد : العطاء .

(٥) العقد الفريد ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢

محادثة أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ؛ فدخلت عليه وعليها ثلاثة دروع^(١) (بروذ) تسحبها ذراعاً ؛ قد لاثت^(٢) على رأسها كوراً كالمنسف ، فسلبت وجلست ، فقال لها معاوية : كيف أنت يا بنت صفوان ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : كيف حالك ؟ قالت : خففت بعد سجد ، وكسبت بعد نشاط ، قال : شتآن بينك اليوم وحين تقولين :

يا زبدٌ دونك صارماً ذارونقٍ عصبَ المبرة ليس بالخصواري
أسرج جوادك مسرعاً ومشعراً للحرب غير معرٍّ لفرار
أجب الإمام وذبحٌ تحت لوائه واللق العدو بصارمٍ بتار
يا ليتني أصبحتُ لست قعيدة فأذب عنه صاكر الفجار

قالت : قد كان ذلك ، ومثلك من عفا ، والله تعالى يقول : عفا الله عما سلف ، ومن عاد فينتقم الله منه ، قال : هيأت ، أما والله لو عاد لعنت ، ولكنه اخقرم^(٣) منك ، قالت : أجل ، والله إني لعل بينة من ربي ، وهدى من أمري قال : كيف كان قولك حين قتل ؟ قالت : ألسيته ؟ قال بعض جلسائه : هو حين تقول :

يا للرجال لعظم هول مصيبة قدححت ، فليس مصابها بالخالل^(٤)
الشمس كاسفة لفقده إمامنا خير الخلائق والإمام العادل

(١) درع المرأة : قيصها (مذكر) ودرع الحديد مؤنث وقد يذكر .

(٢) اللوث : عصب العامة ، والكور : لوث العامة .

(٣) اخقرم : هلك .

(٤) المتحول المتغير .

يا خير من دركب الملقى ومن مثنى فوق التراب لمحتفٍ أو ناهل
 حاشا النبي لقد هددت قواءنا فالحق أصبح غاضعاً للباطل^(١)
 فقال معاوية : قاتلك الله ! فما تركت مقالاً لقاتل ، اذكرى حاجتك ،
 قالت أما الآن فلا ، وقامت فمئرت ، فقالت : تعيس شافىء على^(٢) ، فقال
 زعمت أن قالت هو كما علمت ، فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة . وقال :
 إذا ضيعت فمن يحفظه ؟^(٣)

محاورة دارمية الحوئية ومعاوية

وحج معاوية سنة من سنه ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت
 بالحجون^(٤) ، يقال لها دارمية الحوئية . وكانت سوداء كثيرة اللحم ، فأخبر
 بسلامتها ، فبعث إليها لثي بها ، فقال : ما حالك يا بنته حام ؟ فقالت : لست
 لحام إن عيته إنما أنا امرأة من بنى كنانة ، ثم من بنى أبيك ، قال : صدقت ،
 أتددين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا أعلم الغيب إلا الله ، قال : بعثت إليك
 لأسألك : علام أحببت علي وأبغضتي ، وواليتي وعاديتي ؟ قالت : أو تعفيني
 يا أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، قالت : دأماً إذا أبيت فإني أحببت علياً على
 عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أدنى منك
 بالأسر ، وطلبتك^(٥) ما ليس لك بحق ، وواليت علياً على ما عقد له رسول الله
 ﷺ من الولاء^(٦) ، وعلى حبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ، وعاديتك

(١) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالماء للضرر .

(٢) أى مبهضه . (٣) صبح الأعي ١ : ٢٦١ بلاغات النساء ص ٧٨

(٤) الحجون : جبل بعمالة مكة .

(٥) الطلبة : الطلب .

(٦) تشير إلى قوله : دالهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

على سفكك الدماء ، وشقك العضا ، وجورك في القضاء ، وحككك بالهوى ، .

قال : فذلك انتفخ بطنك ، وعظم ثدياك ، وركبت عجزتك ، قالت : يا هذا جهنم ^(١) ، والله كارت يضرب المثل في ذلك لأبي ، قال معاوية : يا هذه اربعى ^(٢) ، فإننا لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطن المرأة ثم خلق ولدها ، وإذا عظم ثدياها تروى ^(٣) رضيعاً وإذا عظمت عجزها رزن مجلسها ، فرجعت وسكنت ، فقال : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيته ، قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتتك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك ، قال : فهل سمعت كلامه ؟ قالت : نعم والله فسكان يحملو القلوب من العسى ، كما يحملو الزيت الطست من الصدأ ، قال : صدقت . فهل لك من حاجة ؟ قالت . أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت : تعطى مائة ناقة حمراء فيها لحولها وراعيها ، قال : قصصهم بها ماذا ؟ قالت : أغدو بألبانها الصغار وأستحييها السكار ، وأكسبها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحل عندك محل حلى بن أبى طالب ؟ قالت : ما عا ولا كعداء ^(٤)

(١) هى أمه هند بنت عتبة .

(٢) ارتوى .

(٤) عداء : هين لم يكن عندهم ماء أحذب من مائها . وبرى عن ابنة هانئ ابن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن ذرارة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنى أحنك أنه خرج إلى الصيد مرة ، وقد ابتنى في فرجع إلى بقميصه نضح من دماء صيد ، والمسك يضرح من أعطافه ، ورائحة الشراب من فيه ، ففضى شمة ، وشنى شمة . فلبتنى مت شمة .

فقتل زوجها مثل ذلك ، ثم ضمها وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ماء ولا كعداء .

ومرعى ولا كالسعدان^(١) ، وفقى ولا كالك ، سبحان الله أودونه ؛
فأنشأ يقول :

إذا لم أعد بالحلم منى عليكم فن ذا الذى بعدى يؤملُ للحلم
مخذيها هيتاً ، واذكرى فعل ما جد جزاك على حرب العداوة بالسلم
ثم قال : أما والله لو كان على حياً ما أعطاك منها شيئاً ، قالت : لا
ولا وبرّة واحدة من مال المسلمين^(٢) .

(١) السعدان : بنت ذو شوك ، وهو من أفضل مراعى الإبل ، ولا تمنح
على بنت حسننها عليه ، وأول من قال ذلك الحنساء بنت عمرو بن الشريد ، وذلك
أنها أقبلت من الموسم ؛ فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت حنبل بن ربيعة ؛
ففرجت عنها وهى تنفدم سراقة فى أهل بيتها ؛ فلما دنت منها قالت : هل من
تبيكين ؟ قالت : أبكى سادة مضوا ؛ قالت : فأنتدينى بعض ما قلت ؛ فأنتدتها ،
فقالت الحنساء : مرعى ولا كالسعدان ، ثم أنتدتها ما دنت به أعماها صخرأ ،
وقيل إن المثل لامرأة من طيء .

[(٢) العقد القرئيد ١ : ١٣٢ وصحيح الأصبى ١ : ٢٥٩ وبلغات النساء ص ٩٧]

الأدبيات في العصر العباسي والأندلسي

الأدب العربي في ذلك العصر خصب إلى أبعد حدود الخصوبة ؛ ولقد بلغ الأدب شأواً عظيماً ، ومكانة عالية لم يحلم بها من قبل ، ويرجع السبب في ذلك - كما أسلفنا - إلى حب الخلفاء والولاة للأدب وبذلهم النفيس للأدباء والشعراء وهذا ما دفع الأدباء إلى أن يحسنوا إنتاجهم ويتقنوا أدبهم كي يفوزوا بالجوائز الثمينة فضلاً عما يحظون به من القربى للخلفاء والأمراء إذا صادف أدبهم قبولاً لديهم ، فظهر جيل عظيم من الأدباء الأفاضل ، كابن الزيات ، وابن المقفع ، والجاحظ ، وعمر بن مسعدة ، والمأمون وغيرهم ، وفي الأندلس أبو طاهر بن شهيد ، وابن زيدون ، وابن جنيتر ، وابن عبد ربّه وغيرهم ، وقد نبغ في هذه العترة من النساء أدبيات شهد لهن التاريخ بالقدرة الفائقة في الأدب ، وكن أمثلة تحتذى في الأدب والنقد ، يتلاعبن بالفصاحة ويتصرفن في فنون القول وينقاد لهن عصى المعنى وليداً جديداً في البيان واللسان والجمال والحسن والإبداع والتصوير والروعة والألافة والجرس الموسيقي ، ومن هؤلاء : أم جعفر وقد كانت أديبة ناقدة ، وذات ذوق مرهف في قول الأدب ونقده .

يقول صاحب ~~كتاب~~ الأغانى :

لما جلس الأمين في الخلافة أنشده أبو العتاهية :

يا ابن عم النبي خير البرية إنما أنت رحمة للرعية

يا إمام الهدى الأمين المصطفى بلباب الخلافة الهاشمية

لك نفس أمارة لك بالخير وكف بالمكرمات نديه

إن نفساً تحصلت منك ما حملت للمسلمين نفس قوية

ثم خرج إلى دار أم جعفر فقالت له أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين
فأنشدها فقالت أين هذا من مدائحك في المهدى والرشد فغضب وقال : إنما
أنشدت أمير المؤمنين ما يستملح وأنا القائل فيه :

يا عمود الإسلام خير عمود والذي صيغ من حياء وجود
والذي فيه ما يسلى ذوى أحزان عن كل هالك منقود
والأمين المهنذب المشمشى القرم محض الآباء محض الجدود
إن يوماً أراك فيه ليوم طلعت شمس بشمس السعود

فقالت له : الآن وفيك المديح حقها وأمرت له بمشرة آلاف درهم^(١)
وكما كانت أم جعفر أديبة ناعقة كانت عليّة بنت المهدي كذلك فقد قال عنها
الحصري : وكانت عليّة تعدل بكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل وحسن
المقال لها نثر رائق وغناء رائع وشعر ذائع^(٢) .

(١) الألفان ٢٠ ص ١١ .

(٢) كانت أمها مكنونة ، المغنية ، أنضر جوارى المدينة وجهاً ، وأسمحن
منظراً وقد اشتراها المهدي في حياة أبيه المنصور (٧٧٥ - ٧٨٥ م) بمائة ألف
درهم . وقد وهبها من قلبه أكثر من هذا المال وشغف بها . وكان قد أخفى أمرها
حتى وفاة المنصور ، فولدت له عليّة .

فنانة ومتعبدة :

نفاّت عليّة ، أميرة تستقبل خلافة بعد خلافة . فن خلافة الأب والجد ،
إلى خلافة الأخ وابن الأخ . فشبّت ذهرة يانعة مدللة ، بين مقاصير الذهب وبسط
الحوبر . وثققت بما هو جدير بأمثالها . تقول الشعر الجليل ، وتصوره لحناً أجمل ،
وتؤديه بأعذب صوت وأبرع أداء . ولها إلى جانب ذلك ملاحاة طبع ، وإيمان
روح ، وجمال طبقة .

ثم فضل الأدبية الشاعرة ، فلقد كانت على بعد مرابها في الشعر بعيدة
العاية في النشر ، وما قاله إبراهيم بن المهدي فيها : كانت فضل الشاعرة من أحسن
خلق الله خطاباً وأفصحهم كلاماً ، وأبلغهم في مخاطبة ، وأنبههم في محاوره ،

وقد جمعت د عليّة ، بين شخصية الفنااة البارة ، وصفات المتعبدة المصلية .
فما تكاد تال نصيبها من الفناء ، حتى تنصرف إلى تلاوة القرآن وقراءة الكتب
وإنك لتعجب إذا علمت أن هذه الموهظة الجميلة القصيرة قد صدرت عن هذه
الموسيقارة الشاعرة المبدعة حيث قالت : « ما حرم الله شيئاً إلا وقد جعل منه
حوراً ، فأبى شيء يحتاج صاحبه والمنتهك لحرماته ، . وكان لإيمانها بطهارة تاريخها
ينطفئ بهذا الاعتزاز والفخر إذ تقول : لا غفر الله لي فاحشة ارتكبتها قط . »

معلّية وأخوها إبراهيم :

وقد كتب التاريخ الكثير عن أنباء أخيه إبراهيم بن المهدي ومكانته من
الفناء ، تلك المسكاة التي ساء بها لصق وأباه إبراهيم الموصلي ، وما كان له من
براعة الابتداع والإنشاء في هذا الفن . وما نحن أولاء نرى المؤرخين يقومون
د عليّة ، على أخيها فيقولون : « ما اجتمع في الإسلام أخ وأخت أحسن غناء من
إبراهيم بن المهدي وأخته عليّة ، وكانت تقدم عليه ، . وإنما غلبت شهرة إبراهيم
عليها ، لأنه كان أكثر ظهوراً في المجالس والمناظرات ، ويستطيع للتنقل في حرية
وانطلاق ، بينما هي محبسة لا تقف إلا حين يطلب إليها الخليفة . وهي كثيرة التعبد ،
غنية عن الشهرة ، وليست بحاجة إلى أن يعرف الناس عنها تلك المسكاة في الفناء . »

غنى د البيان ، المغنى المشهور لحناً وبدعاً في حضرة المعتصم (٨٢٣ - ٨٤٢ م)
فابتسم أحد أقطاب الفن عن شهداء ذلك المجلس . وسأل المعتصم عن بواعث ابتسامه
فأجاب : إن سبب اجتماع الشرف من ثلاث جهات على هذا العمر : في قائمه وملحنه
ومستمعه ، أما قائمه فالرشيد ، وأما ملحنه فعليّة ، وأما مستمعه فأنت يا أمير
المؤمنين . وهذه القصة القصيرة تضع أيدينا على المستوى الذي ارتفعت إليه
الموسيقى في ذلك العصر الزاهر ، ونهتفنا عند مكاة عليّة الأدبية وصيتها الأدبي الذائع

ومنهن زهون الغرناطية فلقد كانت أدبية فضلاً عن كونها شاعرة دقيقة ، وكانت سريعة المحاضرة ، حلوة النادرة .

ومن نوادرها أن ابن قزمان الشاعر جاء لينظرها ، وكان يلبس غفافة صفراء على ذى الفقهاء ، فلما رآته قالت إنك اليوم كبقرة بنى إسرائيل صفراء قانع لونها ، ولكن لاسر الناظرين ، فضحك الحضور ، وثار ابن قزمان وانذفع يسب ، وتدافع القوم عليه حتى طرحوه في بركة أمام البستان الذى احتفل المجلس به ، وحديث الأدب في هذا العصر حديث شيق ، وإذا قلت لك إن هناك أستاذات من النساء كن يدارسن بنات الأسر الشريفة ، وروينهن الشعر فلا تظن هؤلاء على قدر محمود فيما أخذن فيه من درس وتحصيل ، ولكن كن مع أهلام هذا العصر وأقدار رجاله على سواء واحد من العلم والأدب والفهم والتخرج^(١) . وأول أستاذة للأدب في هذا العصر ولادة بنت المستكفي ، فلقد كان قصرها مهبطاً رحباً ، ومنتدى خصيباً يأوى إليه كل مبدع منقطع النظير من الكتاب والأدباء ، ومن هؤلاء الوزراء والأمراء والعلماء والقضاة والولاة ، فيتجاذبون الأدب ، ويتناولون النقد ، وولادة بمثابة الحكم الذى يقف الأدباء عند حكمه ، ويخضع الشعراء ، لوجهة نظره ورأيه .

== وقد عاشت عليّة في صون حجابها ، على معهود عصرها ، مغنية حاذقة شاعرة ملحنة مبتكرة ، معلقة متعلقة . كما عاشت ناسكة في صومعة فقها ، وخلوة عبادتها . فقد صامت وحجبت ورتلت القرآن ، ثم قالت الشعر الرقيق السهل الممتنع ، وأرسلت الغناء الساحر الذى إن لم نسمعه ، فقد سمعنا عنه ما يكفى .

وقضت وعليّة سنة عشر ومائتين من الهجرة (٥٢٨ م) ، ولم تتجاوز الحسين ربيعاً ... حياة كلها صبا وشباب ، حاصرت فيها الرشيد وقاطعت بعده الغناء ودواحيه حزناً عليه ، ثم ألح عليها الأمين في خلافته فشكلت ، وبعد أن قتل الأمين وانتصر المأمون ، عادت أيضاً إلى الغناء في قلة ، حتى مات بين يديه ، وصلى عليها بنفسه .
(انظر مجلة دائرة المعرفة ، - مؤسسة الأهرام) .

طبيعة أدب المولدين

إن الأدب الذى ساد هذه الحقبة يسمى الأدب المولد لأن معظم الأدباء فى تلك الفترة كانوا مولدين ، أو يدعونهم بالأدب المحدث أى أنه حدث ووجد بعد العصر الجاهلى ، وعصر صدر الإسلام وبنى أمية .

فالأدب بهذا المعنى صار مولداً محدثاً أى لم يكن عربياً خالصاً فى معانيه وأساليبه فقد أصبح المعنى دقيقاً ، والأسلوب جميلاً والخيال رائعاً خلافاً ، إذ أن هذا الأدب وليد حضارة عظيمة تعتمد على ثقافة علمية وأدبية لقحت العقل العربى ، ووسعت آفاق المتأدبين بما تعج به من خيالات بارعة ، وتصورات بديعة ، هذا إلى ما جادت به طبيعة بلادهم من مناظر ذات بهجة ، وجنان ذات بهاء ورواء فأضفت على أسلوب أدباء بغداد وقرطبة رقة وحرراً وجمالاً ، وقد تلفت أدباء قرطبة وبغداد فوجدوا منافع على بعد قرارها أجرى من السلسال وأصق من الزلال ، ولذلك جروا فى مبدانه ، وطاردوا فى سمائه إلى مدى بعيد ، أنتج ألواناً مبدعة فى الأدب والدمر ما جاء فتنة للناظرين كما نلاحظ (١) أن الأدب فى هذه الفترة صار أدباً مرن الأسلوب .

ونظرة واحدة نلقها على هذا التراث الأدبى نرى أن البيئة البغدادية هى التى أعطت اللغة العربية مرونة الأساليب ، وأداء المعانى الدقيقة وهى التى وضعت نماذج التعبير البغامى البليغ فقد كانت تنفى الألفاظ للمنووعة الوحشية عن كلامها كما كانت تنفى الساقط الهوى فاختارت بذلك لغة متوسطة تقوم على الألفاظ الرشيدة ذات المخادج السهلة ، كما تقوم على ضرب من التلاؤم الموسيقى يكسو الكلام كسوة الازدواج والترادف الصوق البديع .

(١) الأدب العربى فى العصر البغامى : ٥٤ د / محمد بنر

وكان كبار الأدباء في القرن الثاني للهجرة يتخذون هذا الأسلوب الوسط لإمامهم ومثلهم ، وهو أسلوب كان يوازن موازنة دقيقة بين طرافة المعاني وإثارة الجمال في نفس القارئ والسامع ولكن بدون كد ومجاهدة ، فهم لا يباليون في تكلفهم ولا يستدعون الألفاظ من بعيد ^(١) .

ونلاحظ أن أدب المرأة في هذه الفترة كان يميل أحياناً إلى السجع وتارة إلى الازدواج والموازنة ، والتوازن طلاوة ورواق ، وسببه الاعتدال لأنه مطلوب في جميع الأشياء ، وإن كانت مقاطع الكلام معتدلة ، وقعت من النفس موقع الاستحسان ^(٢) .

ويظهر لنا من مطالعة ما جادت به أقلام الأدبيات في ذلك العهد أن التوازن كان الطابع لثثر ذلك العهد ، ولا يعني ذلك أننا لا نجد فيه شيئاً من السجع أو البديع فيه . ولكنهما لم يكونا منهجاً عاماً بتقيد به الأدباء ، وذلك ما نلاحظه في كلام ونثر المحدثين ، كما نشاهده في مثل المحاورة التي جرت بين الرشيد وأم جعفر ، فأحياناً نجد فيها جمماً ، وتارة أخرى نجد ازدواجاً وتوازناً ، وهذا ما يعنيه قول ابن أبي الأصم .

ولا تجعل كلامك كله مبلياً على السجع فتظهر عليه الكلفة ، وتبين فيه أثر المشقة ، ويتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط واللفظ النازل ، وربما استدعيت كلمة للقطع ، رغبة في السجع . لجأت نائرة من أخواتها ، قافقة في مكانها ، بل اصرف كل النظر إلى تجويد الألفاظ ، وصحة المعاني ، واجهد في تقويم المباني ، فإن جاء الكلام عفواً من غير قصد وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عر ذلك فانزكه وإن اختلفت أجهاده ، ^(٣) .

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي ١٣٣ . (٢) المثل السائر : ١٦٩ .

(٣) صبح الأعشى ٢ : ٢٣٦ .

وهذا ما جرى عليه المحدثون ، وسارت على ضوئه الأدبيات المحدثات ،
وحديث الأدب النسوي في هذه الفترة حديث شيق أليف ، وخصوصاً إذا
تكلمنا عن أستاذات الأدب والشعر في هذه الفترة كعلية ، والعباسة ، وأسماء ،
ولبابة بنات المهدي ، وفاطمة أم جعفر والأديبة المروضية إحدى فتيات
« بالنسيه » فقد فافت علما دهرها ، وكانت تحفظ كتاب الكامل للبرد
والأمل للقال وتشرحهما شرحاً مبيناً ، ولقد يمتد بنا الطريق إذا استوفينا
رسائل تمثل حب الأدب بياقات من راحته .

نماذج للنثر النسائي في هذا العصر

(وصية السيدة زبيدة لعلي بن عيسى بن ماهان) : نعى الشر بين الأخوين (الأمين والمأمون) واستطار شرره وبعث الأمين جيشاً كثيفاً بقيادة علي بن عيسى ابن ماهان لحرب المأمون، وأعد المأمون للقائه جيشاً بقيادة طاهر بن الحسين؛ فلما أُرِِدَ على الشخصين إلى خراسان، دكب إلى باب السيدة زبيدة والدرة الأمين فودعها فقالت : « يا علي ، إن أمير المؤمنين وإن كان ولدي ، إليه تناهت شفقتي وعليه تكامل حذري ، فإني على عبد الله منه عطفة مشفقة لما يحدث عليه من مكروه وأذى ، وإنما ابني ملك نافس أخاه في سلطانه وطاراه على ما في يده ، والكريم يؤكل لحمه ، وبميته غيره ، فأعرف لعبد الله حق والده ، وأخوته ، ولا تجهه^(١) بالسلام ، فإنك لست نظيره ، ولا تقسره أقدسار^(٢) العبيد ، ولا ترهنه^(٣) بقيد ولا غل ، ولا تمنع منه جارية ولا غادماً ، ولا تعنف عليه في السير ولا تساوره في المسير ، ولا تركب قبله ، ولا تستقل على دابتك حتى تأخذ بركابه ، وإن شئت فاحتمل منه ، وإن سغه عليك فلا تراده .

ثم دفعت إليه قيداً من فضة ، وقالت : إن صار في يدك فقيد بهذا القيد ؛ فقال لها : سأقبل أمرك وأعمل في ذلك طاعتك .

وهي وصية عظيمة من امرأة عظيمة ملئت عطفاً وحباً على أبنائها لذا تراها في وصيتها صادقة العاطفة ، ولسكلاها حلاوة الطبع ، وجمال الواقع وحسن اللمع وقرب المعنى والبعد عن الاستكراه والتوفيق في الأداء ، إلى

(١) نهجه بالسلام : أن تلقاه بما يكره

(٢) قسره وأقسره : قهره

(٣) لا ترهنه أي لا تضممه : والفعل : القيد

ما فيه من بلاغة الإيجاز فقد ذكرته بحق الآبوة والأخوة وأن يتلطف في معاملته ولا يقسو عليه بقيد أو غل ولا يركب قبله ، ولا يستقل دابته حتى يأخذ بركابه ويمتنع به ، ثم أعلته درساً في الصبر وقوة الاحتمال « إن شمتك فاحتمل منه وإن سفه عليك فلا ترده » .

وقد وفقت زبيدة في أداء المعنى ، وكانت حساسة جداً في استخدام الألفاظ ورسمت الطريق الأمثل في معاملة الأخوة إذا حزنهم أمر أو وجد بينهم مكروه ونسوق نماذج أخرى تمثل قبساً لأدبيات هذا العصر .

إن من البيان لسحراً

كانت أم جعفر بن يحيى - وهي فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطية أرضعت الرشيد مع جعفر - لأنه كان ربي في حجرها ، وغذى برسلها ، لأن أمه ماتت عن عهده ، فكان الرشيد يشاورها مظهر الأكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى وهو في كفالتها أن لا يحجبها ، ولا استشفعته لأحد إلا شفعتها ، وآلت أم جعفر أن لا تدخلت عليه إلا مأذوناً لها ، ولا شفعت لأحد مقنرف ذنباً ، قال مهمل بن هارون : فسكم أسير فككت ، ومهم عنده فرجت ، ومستغلق فتحت .

ولما فتك الرشيد بابنها جعفر ، وقذف بزوجها وبقية أسرته في غياهب السجن بعد إقصاعه بالبرامكة - طلبت الإذن عليه في دار الباقوقة . ومثت بوسائلها إليه فلم يأذن لها ، ولا أمر بشيء فيها ، فلما طال ذلك بها خرجت كاشفة وجهها واضعة لثامها ، محتفية في مشيها ، حتى صارت يباب قصر الرشيد ، فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب فقال : ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى شفقة أم الواحد . فقال الرشيد : ويحك يا عبد الملك أو ساعية ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، وحافية ! قال : أدخلها يا عبد الملك ،

فرب كبد غلظتها ، وكربة فرجتها ، وعودة - سترتها ، قال سهل :
فما شككت يومئذ في النجاة بطلائها ، وإسعافها بحاجتها ، فدخلت ، فلما نظر
الرشد إليها داخلة محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمد المجلس ، وأكب على
تقبيل رأسها ، ومواضع ثديها ثم أجلسها معه فقالت : يا أمير المؤمنين ! أهدو
حليتنا الزمان ، ويحفونا خوفاً لك الأعوان ويحردك بنا اللهم ثان ، وقد ديتك في
حجري ، وأخذت برضاعك الأمان من عدوى ودهرى ؟ فقال لها : وما ذلك
يا أم الرشيد ؟ قال سهل : فأيسئ من رأته تركه لكنيتما آخر ما أطعمني
من بره بها أولاً ، قالت : ظنرك يحيى وأبوك بعد أبيك ، ولا أصفه بأكثر
بما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفائه عليه ، وتعرضه للحتف في
شأن موتى أخيه ، قال لها : يا أم الرشيد أمر سبق وقضاء محم ، وغضب من
الله نفذ ، قالت : يا أمير المؤمنين يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .
قال صدقت اخذنا مما لم يمح الله . فقالت : الغيب محبوب عن النبيين فكيف
عذك يا أمير المؤمنين ؟ قال سهل : فأطرق الرشيد ملياً ثم قال :

وإذا المنية أنشبت أنظفارها ألفيت كل تيممة لا تنفع

فما قلت بغير روية : ما أنا يحيى بتيممة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول :
وإذا افتقرت إلى الدعائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال

هذا بعد قول الله عز وجل : والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله
يحب المحسنين فأطرق هارون ملياً ، ثم قال يا أم الرشيد أقول :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تسكد

إليه بوجه آخر الدهر تقبل

فما قلت يا أمير المؤمنين وأنا أقول :

ستقطع في الدنيا إذا ما قطعني يمينك فانظري أي كف تبدل

قال هرون : رضى ، قالت فبه لى ، فقد قال رسول الله ﷺ : (من ترك شيئاً لله لم يرهده الله فقهه) . فأكب هرون ملياً ، ثم رفع رأسه يقول : لله الأمر من قبل ومن بعد . قالت يا أمير المؤمنين : « يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء » وهو العزيز الرحيم ، « واذكر يا أمير المؤمنين ألتك ما استشفعت إلا شفعتى » . قال : واذكرى يا أم الرشيد ألتك « أن لا شفعت لمقترى ذنباً » ، قال سهل : فلما رأته صرح بمنعها ، ولاذى طلبها ، أخرجت حقاً من زمردة خضراء فوضعت بين يديها . قال الرشيد : ما هذا ؟ فتحت عنه قللاً من ذهب فأخرجت منه ذوابه وثناياه قد غسخت جميع ذلك فى المسك ، فقالت يا أمير المؤمنين استشفع إليك ، وأستمع بالله عليك ، وبما صار معى من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ، ليحيى عبدك فأخذ هارون ذلك فلكه ثم استعبر وبكى بكاءً شديداً ، وبكى أهل المجلس ، ومر البشير إلى يحيى وهو لا يظن إلا أن البكاء رحمة له ، ودجوع عنه . فلما أفاق رى جميع ذلك فى الحق وقال لها : لحسن ما حفظت الوديمة ، قالت : وأهل الكفاة أنت . فسكت وأقبل الحق ودفنه إليها وقال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . قالت والله يقول : « وإذا حكمت بين الناس أن تحكم بالعدل » . ويقول : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » . ثم قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : ما أقسمت لى به أن لا تهجنى ولا تمتهنى . قال : يا أم الرشيد أئثر به حكمة فيه ؟ قالت : أنصفت ، وقد فعلت خير مستقبلة لك ، ولا راجعة ذلك . قال : بكى ؟ قالت : برضاك من لا يستخطك قال : يا أم الرشيد أما لى عليك من الحق مثل الذى لهم ؟ قالت : بلى ! أنت أحر على وم أحب لى . قال : فتحكى فى ثمنه بغيرم . قالت : بلى قد وهبتك وجعلتك فى حل منه وقامت عنه ، وبقي مبهوتاً ما يحير لفظه . قال سهل : وخرجت فلم تعد ولا والله ما رأيت لها حبرة ، ولا سمعت لها أنث .

هذى صودة من طائفة الأمور الجياشة الصادقة في ودها وعطفها وقد جاءت هذه المحورة دون تكلف أو تصنع في عبارات مليئة بالحدب والحنان وهي تصور قلب الواله لنا كل حين تأخذها على أبنائها الشفقة بهم والخوف عليهم ، من جراء مسئولية شاقة ألقيت عليه ، أو حمل ثقل ناه به كاهله في حالة حزينة بأئسسه تغلب شمانية الحاسد إلى حين الوالد ، وشفقة أم الواحد . والمحورة لوحة فنية مؤثرة استخدمت فيها الأدبية أم جعفر كل أدوات البلاغة المؤثرة لعلها تنفذ بها إلى قلب الرشيد من استفهام جز شفاف القلوب د أو يعدو علينا الزمان ، ويجفون خوفاً لك الأعوان ويحرك^(١) بنا الهتان ، إلى اقتباسات واستشهاد بالقرآن الكريم : د يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ، كما تدرى في جوانب المحورة ، وبين ثنائها الاستعارات والكنائات والتشبيهات اللطيفة :

وإذا المنية أنشبت أظفارها أنفيت كل تيمة لا تنفع
وإذا اعتقرت إلى الدعائر لم تعد ذخراً يكون كصالح الأعمال

وتظهر في المحورة سمات الأدب في هذه الفترة من طابع ديني يسيطر على المحورة والاستمانة بالقرآن الكريم اقتباساً وباشعر العربي استشهاداً كما تبدو فيها السهولة البادية في وضوح مفرداتها وسلاسة تراكيبها مع جزالة في الأسلوب وقوة في الأداء ، ومن لسرى القول ورائعه ، وجيد القول وبلغه د بعد أولئك الذين ارتضعوا أفريق البلاغة ، وارتشفوا رحيق البيان وغذوا بلبان الأدب وتوارثوا عن آبائهم وأجدادهم ملكة أصيلة ، وذوقاً صحيحاً ، يعلمهم يتعلمون ناصية اللغة ويحتلون منها المسكان العلى والذدرة الرفيعة ،^(٢).

(١) يحرك أى ينعطبك .

(٢) تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الأول : ١٧٥ والظر بلاغات النساء .

ألوان أخرى من أدب النساء

حدث الأصمعي قال : سمعت امرأة من العرب تخاصم زوجها وهي تقول :
والله إن شربك لاشتفاني ، وإن ضجعتك لاندجاف ، وإن شملتك لالفتاف
وإنك لنشبع ليلة تضاف ، وتنام ليلة تخاف ، فقال لها : والله إنك لسكرواء
الساقين ، قهواء الفخذين مقام الرفذين مفاضة الكشجين ، ضيفك جائع ،
وشرك شائع .

ولما قتل الفضل بن سهل دخل المسلمون على أمه فوجدها تبكي فقال لها :
أنا ابنك مكانه ، فقالت إن ابنا ترك لي ابنا مثلك لجدير أن يبكي عليه .

وقال الأصمعي : دفعت في بعض تطوافي إلى امرأة من ولد ابن هرمة^(١)
فسألتها القيرى ، فقالت : إني والله ممرمة ممسنة ما عندي شيء ، فقالت :
أما عندك جزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ، ولا دجاجة ، ولا بيضة ، فقلت
أما ابن هرمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ، إني لمن صميمهم ، قلت : قاتل الله
أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

لا امتع العود بالفصال ولا أبتاع إلا قرية الأجل^(٢)
إني إذا ما البخيل آمنها بأت ضموراً مني على ووجل
ووليت فنادت : ادبع أيها الراكب ، ففعله والله ذلك أقله عندنا^(٣) ،
فقلت : إلا تسكوني أوسعتنا قرى فقد أوسعتنا جوارباً .

(١) أحد الثعراء الأجواد الفرسان .

(٢) العود من النياق الحديثات النتاج يقول له لا يبقها حتى يعظم فصيلها
وكلا شطري البيت كناية عن تكرمه بذيخ الإبل فلا يبق منها شيئاً .

(٣) تقول هذا التكرم أقل ما عنده من الطعام .

حدث ابن المراج قال : أخبرني بعض الإخوان أن بعض البصريين أخبره قال : كنا لثمة تجتمع ولا يفارق بعضها بعضاً ، ففصرنا من المقام في المنازل . فقال بعضنا : لو عزمت فخرجنا إلى بعض البساتين ، فخرجنا إلى بستان قريب منا ، فبينما نحن فيه إذ سمعنا ضجعة راعتنا ، فقلت للبستاني : ما هذا ؟ فقال هؤلاء نسوة هن قصة ، فقلت له أنا دون أصحابي : وما هي ؟ قال العيان أكبر من الخبر ، فقم حتى أريك وحدك ، فقلت لأصحابي أقسمت ألا يبرح أحد منكم حتى أعود ، فنهضت وحدي فصعدت إلى موضع أشرف عليهم وأراهن ولا يريني ، فرأيت نسوة أربعاً كأحسن ما يكون من النساء وأشكهن ، ومعهن خدم هن وأشياء قد أصلحت من طعام وشراب وآلة ، فلما اطمان المجلس بين جاء خادم هن ومعهن خمسة أجواء من القرآن فدفع إلى كل واحدة منهن جزءاً ووضع الجزء الخامس يمينهن فقرأن أحسن قراءة ، ثم أخذن الجزء الخامس فقرأت كل واحدة منهن ربع الجزء ، ثم أخرجن صورة معهن في ثوب ديبق فبسطنها يمينن فيسكين عليهن ودهون لها ثم أخذن في الدوح فقالت الأولى :

خلس الزمان أعز عفتلس	وبد الزمان كثيرة الخلس
لله هالكة لجمت بها	ما كان أبصدها من الدنس
أنت البشارة والنعي بها	يا قرب مأتمها من العرس

ثم قالت الثانية :

ذهب الزمان بألس نفسي عنوة	وبقيت فرداً ليس لي من مؤنس
أودى بملك لو تفادى نفسها	لفديتها بمن أعره بأنفس
ظلت تكلمني كلاماً ثمطمعاً	لم أسسترب فيه بشيء مؤنس
حتى إذا فتر اللسان وأصبحت	للوقت قد ذبلت ذبول النرجس

وتسببت منها محاسن وجهها وعلا الآنين تحته بتنفس
جعل الرجاء مطامى يأساً كما قطع الرجاء صحيفة التلس
ثم قالت الثالثة :

جرت على عهدما البالي وأحدثت بعدها أموز
فاعتضت باليأس منك صبراً فاعتدل اليأس والسرور
فلمت أرجو ولست أخشى ما أحدثت بعدك الدهور
فليبلغ الدهور في مساتي فأعنى جهده يضير
ثم قالت الرابعة :

خذن نقيس من الدنيا لجمعت به أقضى إليه الردى في حومة القدر
توَجَّعَ النالاً أما تنفك أسهمها مملقات بصدر القوس والوزر
يبلى الجديان والآلام بالية والدهر ميثلى وتبلى جذة الحجر
ثم فن فقلن بصوت واحد :

كننا من المساعدة نحيا بنفس واحدة
فات نصف نفسى حين توى فى الرمس
فأبقائى بسدة وشطر نفسى عنده
فول سمعتى قبلى فبين معنى بمثل
عاش بنصف رُوح فى بدن صحيح

ثم تسبحين وقلن لبعض الخدم : كم عندك منهن ؟ قال : أربعة ، فلن :
انت هن ، فلم ألبث إلا قليلاً حتى طلع يقفص فيه أربعة غريبان مكتفات فوضع
القفص بين أيديهن فدعون بعيدان فأخذت كل واحدة منهن عوداً فغنت :

لعمري لقد صاح الغراب بينهم فأوح قلبى بالحديث الذى يبدى
فقلت له أفصحت لا طرد بعدها بريش فهل للقلب ويحك من رد
ثم أخذن واحداً من الغربان ففتنن ديشه حتى تركته كأن لم يكن عليه
ريش قط ، ثم ضربته بقضبان مهن لا أدرى ما هو حتى قتله ، ثم غنت :
أشأقك والليل ملأنى الجحرا غراب ينوح على غصن بان
أحص الجناح شديد الصباح ييكى بعينين ما تمحلان
وفى نعبات الغراب اغتراب وفى البان بين بعيد التدا
ثم أخذن الثانى فشددن فى رجله خيطين وبعدن بينهما وجعلن يقلن له :
أبىكى بلا دمع وتفرق بين الآلاف أفن أحن بالقتل منك ؟ ثم فعلن به
ما فعلن بصاحبه ، ثم غنت الثالثة :

ألا يا غراب البين لولئك شاحب وأنت بلوعات الفراق جدير
فبين لنا ما قلت إذ أنت واقع وبين لنا ما قلت حين تطير
فإن بك حقاً ما تقول فأصبحت هرومك شتى والجناح كسير
ولا زلت مكسوراً عدياً لناصر كما ليس لى من ظالمسى نصير
ثم قالت له : أما الدعوة فقد استجيت ، ثم كسرت جناحه ، وأمرت
فتميل به ذلك ، ثم غنت الرابعة :

عشية مالى حيلة غير أنى بلفظ الحصى والخطف الداد مولع
أخط وأحمر كل ما قد خططته بدمعى والغربان فى الداد وقع
ثم قالت لأخواتها : أى قتلة أقتله ؟ فقلن لها علقيه برجليه وشدى فى رأسه
شيئاً قليلاً حتى يموت ، ففعلت به ذلك ، ثم وضعن عيدانهن ودعون بالغذاء
فأكلن ، ودعون بالشراب فشربن ، وجعلن كلما شربن قدحاً شربن للصورة مثله
وأخذن عيدانهن فغنتن ، فغنت الأولى :

أبكى فراقكم عيني فأرغمها إن المحب على الأحباب بكاءً
لا زال يمدو عليهم ريب دهرهم حتى تغافوا وريب الدهر عداء
ثم غنت الثانية :

أما والذي أبكى وأضحك والذي أمات وأحيا والذي أمره الأمر
لقد تركني أحسد الوحش أن أرى أليفين منها لا يروعهما الدهر
ثم غنت الثالثة :

سأبكي على ما فاتك منك صباية وأندب ألام الأمانى الذواهب
أحين دنا من كنت أرجو دنوّه رمتني عيون الناس من كل جانب ؟
فأصبحت مرحوماً وكنت محسداً فصبراً على مكروه مر العواهب
ثم غنت الرابعة :

سأفنى بك الألام حتى يسرفي بك الدهر أو تفنى حياقي مع الدهر
عزاء وصبراً أسعداني على الهوى وأحمد ما جريت طائفة الصبر

ثم أخذت الصورة فعاينتها وبكت وبكين ثم شكّون إليها جميع ما كن فيه ،
ثم أمرن بالصورة فطويت ، ففرقت أن يتفرقن قبل أن أكلهن ، فرفعت
رأسى إليهن ، فقلت لقد ظلمتن الغريان ، فقلن لو قضيت حق السلام وجمالته
سبباً للسلام لأخبرناك بقصة الغريان ، قال فقلت إنما أخبرتكن بالحق ،
قلن وما الحق في هذا ؟ وكيف ظلمناهن ؟ قلت إن الشاعر يقول :

نعب الغراب برؤية الأحباب فلذلك صرت أحب كل غراب

قالت إحداهن صحفت وأحلت المعنى إنما قال : بفرقة الأحباب فلذلك
صرت عدو كل غراب ، فقلت لهن : فبالذى خصكن بهذا المجلس وبحق صابرة
الصورة لما أخبرتني بخبركن ؟ قلن لولا أنك أقدمت علينا بحق من يجب علينا

حقه ما أخبرناك ! كنا صواحب مجتمعات على الألفة ، لا تشرب منا واحدة ،
البارد دون صاحبها فاخترت صاحبة الصورة من بيننا ، فتمن نصنع في كل
موضع نجتمع فيه مثل الذى رأيت ، وأقسمنا أن نقتل في كل يوم نجتمع فيه
ما وجدنا من الغربان لمة كانت ، قلت وما تلك اللمة ؟ قلن فرق بينها وبين
أنس كان لها ففارقت الحياة فسكانت تذهبن عندنا ونأمر بقتلن ، فأقل ما لها
عندنا أن نمثل ما أمرت به ، ولو كان فيك شيء من السواد لفعلنا بك فعلنا
بالغربان ، ثم نهض فضين ورجعت إلى أصحابي فأخبرتهم بما رأيت ، ثم طلبن
بعد ذلك فسا وقعت لمن على خبر ، ولا رأيت لمن أثرًا .

* * *

وحدث التوزى عن عتبة الغلام قال : خرجت من البصرة والآلة فإذا أنا
بجباء أعراب قد نزعوا ، وإذا أنا بجيعة ، وفي الخيمة جارية مجنونة عليها جبة
صوف لا تباع ولا تشتري ، فدنوت فسلمت فلم تره على السلام ، ثم وليت
فسمعتها تقول :

زهد الزاهدون والعابدون	إذ لمولام أجاجوا البطونا
أسهروا الأعين القريحة فيه	فضى ليلهم وهم ساهرونا
حسرتهم عبدة الله حتى	علم الناس أن فهم جنونا
هم أبا ذؤود عقول ولكن	قد شجهم جميع ما يرفوننا

قال فدنوت إليها فقلت لمن الزرع ؟ فقالت : لنا إن سلم ، فتركها وأتيت
بعض الاخبية فأرخت السماء كأفواه القرب ، فقلت لآتينها فأنظر قصتها في هذا
المطر ، فإذا أنا بالزرع قد غرق وإذا هي قائمة نحوه وهي تقول : والذى أسكن
قلبي من طرف سحر بصفي حبة اشتياك إن قلبي ليوقن منك بالرضا ،
ثم التفتت إلى فقالت يا هذا إنه زرع فأنبتته ، وأقامه فسنبله وركبه ، وأرسل

عليه غيثاً فسقاه ، وطلع عليه لحنظله ، فلإدنا حصاده أماسكه ، ثم رفعت رأسها نحو السماء فقالت : المباد عبادك وأزاقهم عليك ، فاضنع ما شئت ، فقلت لها كيف صبرك ؟ فقالت : اسكت يا عتبة :

إن لمي أنسني حميد لي كل يوم منه رزق جديد
الحمد لله الذي لم يزل يفعل بي أكثر مما أريد
وحدث التوزي أيضاً قال :

رأيت امرأة عند قبرين وهي تقول : بأى لم تمتك الدنيا من لدتها ، ولم تساعدك الأقدار على ما تهوى ، فأوفرتى كذا ، فصرت مطية للأحزان ، فليت شعري كيف وجدت مقيلك ، وماذا قلت وقيل لك ، ثم قالت : استودعتك من وهبك لي ثم سلبنى أسراً ما كنت بك . فقلت لها يا أمه ! ارضى بقضاء الله عز وجل وسلى لأمره . فقالت : هاه ! نعم فجزاك الله خيراً ، لا حرمنى الله أجرى ولا فتلى بفراقك . فقلت لها من هذا أفناك : ابني وهذه ابنة عمه ، كان مسمى بها زفت لإليه ثم أخذها وجع أتى على نفسها فقصت فأتصدع قلب ابني فاحقت روحه روحها ، فدفتها في ساعة واحدة ، فقلت فمن كتب هذا على القبرين ؟ قالت أنا ، قلت وكيف ؟ قالت : كان كثيراً ما يمثل بهذين البيتين تخلفتهما لكثرة تلاوته لهما ، فقلت من أنت ؟ فقالت فرارية ، قلت ومن قالهما ؟ قلت : كريم ابن كريم ، سفي ابن سفي ، شجاع ابن بطل ، قلت من ؟ قالت : مالك بن أسماء بن عارضة يقولهما في أمر أنه حبيبة بنت أبي جندب الأنصاري ، ثم قالت وهو الذي يقول^(١) :

يا منزل الغيث بعدما قنطروا ويا ولى النساء والنن
يكون ما شئت أن يكون وما قدت ألا يكون لم يكن

(١) انظر بلاغات النساء والمرأة العربية ج ٣ : ١٢٦ .

يا جارة الحى كنت لى سكناً إذ ليس بعض الجيران بالسكن
أذكر من جارتى ومجلسها طرافاً من حديثها الحسن
ومن حديث يزيدنى مقة ما لحديث المرموق من ثمن
قال فمكتبتها ، ثم قامت مولية فقالت : شغلتنى عما إليه قصدت لتسكين
ما ، من الأحزان .

وحدث الأصمى قال :

سمعت رجلاً من تميم يقول : أضللت إبلاً فخرجت فى طلبه ، فوردن
بجارية أعشى نورها بصرى ، فقالت ما حاجتك ؟ قلت : إ لى أضللها ، فهل
عندك شيء من عندها ؟ قالت : أفلا أدلك على من عنده عنده ؟ قلت بلى .
قالت الذى أعطاكهن هو الذى أخذهن ، فاطلبهن من طريق التيقن لا من
طريق الاختيار ، ثم تبسمت وتنفست الصعداء ، ثم بكى وأطالت البكاء
والأنشأت تقول :

إنى وإن عرضت أشياء تفحكى	لموجع القلب مطوى على الحزن
إذا دجا الليل أحيا لى تذكره	والصبح يبعث أجنباً على فحن
وكيف ترقد عين حاد مؤنسها	بين التراب وبين القبر والكفن
أبلى الثرى وتراب الأرض جدته	كان حورته الحسنة لم تسكن
أبكى عليه حنيناً حين أذكره	حنين والهة حنت إلى وطن
أبكى على من حنت ظهري مصابته	وطيح النوم عن عيني وأرقى
واقه لا أنس حى الدهر ما يحتم	حمالة أو بكى طهر على فتن

فقلت عند ما رأيت جمالها ، وحسن وجهها ، وفصاحتها وشدة جزعها :
هل لك من لا تدم خلافة وتؤمن بوائقه ؟ فأطرق ملياً ، ثم أنشأت تقول :

كنا كخمينين في أصل غذاؤهما ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه دهر يكر بغرات وثرعات
قد كان عاهدني إن خافني زمن ألا يضاجع أني بعد مثنائي
وكنت طاهدته أيضاً فعاجله ريب المنون قريباً مذ سُليات
فأصرف عنائك من ليس يردعه عن الوفاء خلاب في التحيات
وحدث النوزي أيضاً عن بعض الكتاب قال : دخلت البصرة أنا وصديق لي
فرأيت فتاة قد خرجت من بعض الدور كأنها فلقة قر . فقلت لصاحبي :
لو مات بنا إليها فاستسقيناهما ماء ! ففعل ، فقلنا لها ، جعلنا الله فداءك ! اسقينا
ماء ، فقالت : نعم وكرامة ، فدخلت وأخرجت كوز ماء وهي تقول :
الاحي شخصي قاصدين أدامها أقاما فإن يعرفا مبتغاهما
هما استسقيتا ماء على غير ظمأة ليستمتعا بالاحظ من سقامها
وحدث محمد بن سلام الجمحي يقول : سمعت رجلاً من بني سليم يقول :
هويت امرأة من الحى ، فكنت أتبعها إذا خرجت إلى المسجد ، فعرفت ذلك
منى ، فقالت لى ذات ليلة : ألك حاجة ؟ قلت نعم ! قالت وما هي ؟ قلت
مودتلك ، قالت دع ذلك ليوم التتغان^(١) . قال فأبكتني والله فاعدت ليها
بعد ذلك .

ومن حديث أخرى : أن رجلاً رأى امرأة بمكان عال ، والليل متسدل
الستر فقال : أمان سبيل إليك ؟ فقالت : انظر هل يرانا من أحد ؟ قال
ما يرانا إلا السكواكب ! قالت : وأين مكوكبها ؟ فبهت الرجل وانصرف
ذاهلاً ما يتكلم .

(١) يوم التتغان : يوم القيامة ، سمي بذلك لأن أهل الجنة يغتنون فيه أهل النار.

نثر الجوارى

أثر عنهن قطع نظرية بمسألة تجارى أرقى وأحسن ما عرف للنثر فى هذه الفترة من ضوابط فنية وحسن تعبير وجزالة وسلامة أسلوب وتدقيق فى المعانى ، وكانت ألفاظها نسمات أسرار فى أساليب لا تشبها إلا قائلاتها فى خفة أرواحهن ، وصفاء أذواقهن .

ودار نثر الجوارى بمجمله حول الترتل ، وأخذ صفة التوازن والازدواج وأحياناً نراه يميل إلى السجع الملتزم ، ولكنه جمع مقبول ، أخذ صفاء البيئة وحسن روايتها ، وبعضه قصير الفقرات ، وبعضه طويل غير مسرف فى الطول ، وموضوعاته تدور حول التعليق على شعر نال إعجابهم أو العكس أو التعقيب على قول أو رأى سمعته أثناء انعقاد مجالس الأدب ، ومثندات الشعر أو فى مجالات أدبية أخرى كالتهنئة والاعتذار وغيرهما .

وفى شهادة سعيد بن حميد لبعض الجوارى بالإجادة ، خير دليل وبرهان على ما بلغت الجوارى من إتقان هذا الفن ، فقد قال لعبد الله بن المعتز — وقد ظن أن سعيد بن حميد يكتب الرقاع لفضل فتنسبها لنفسها — قال لابن المعتز : د ما أخيب ظنك ليتها تسلم منى لأخذ كلامها ورسائلها ، والله يا أخى لو أخذ أفاضل الكتاب وأماثلهم عنها لما استغنوا عن ذلك^(١) .

وكان الجوارى يتأثرن بأساليب الكتّاب المشهورين فى هذه الفترة من ذلك ما لاحظته ابن المعتز من أن عريباً أخذت نحو سعيد بن حميد فى الكلام وسلكت مسلكه^(٢) .

(١) الأغانى ١٧/١٥ دار مكتبة الحياة — دار الفكر .

(٢) نفس المصدر

وما كانت الجوادى تلتقي بالنثر كتابةً وتعبيراً ، بل عرف لبعضهن آراء نقدية ، ونظرات صادقة في نقد الكتابة والنثر ، وسجل علماء الأدب لمن مواقف مشهورة نقدت فيها أحسن الأدباء والكتاب ، وأرجهن باعاً وذراعاً في هذا المضمار ، فقد تسكلم ابن السجك يوماً وجارية له تسمع كلامه فلما دخل إليها ، قال لها : كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه !! إلا أنك تسكلم تردده ! قال : أردده حتى يفهمه من لم يفهمه قالت : إلى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد مله من فهمه^(١) .

وأدب عرب الجارية يقف مثلاً حياً ورائعاً على جودة نثر الجوادى وطول باعهن فيه ، فقد عتب المأمون على عريب ، فهجروا أياماً ثم اعتلت فعادها فقال لها : كيف وجدت طعم الهجر ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين لولا حلالة الهجر ما عرفت حلالة الوصل ، ومن ذمّ بدء الغضب ، حمد عاقبة الرضا ، قال : تخرج المأمون إلى جلساته لحدثهم بالقضية ثم قال : أترى هذا لو كان من كلام النظام لم يكن كبيراً ؟^(٢) .

وفي هذا يتبين قدر ما بلغه نثر الجوادى من التقدير والإكبار ، ولا سيما من رجل يقدر الأدباء ويحل العلماء وهو المأمون .

وملاحظة أخرى أحب أن أضيفها كعلامة مميزة بين نثر الجوادى في البيئة البدوية ونثرهن في البيئة الحضرية ، فنثرهن في الأندلس مع ما بلغه من ظرف ورقة لم يبلغ نظيره الذي قيل في البيئة البدوية لأن هذا كان يغذيه طبع المرأة العربية في البادية ، ولكليهما منحى يستغف النفوس والأرواح ، فالمرأة العربية البدوية كانت كأفضل النساء صفاءً في الطبع ، رتقاء في النفس ، وسموياً

(١) العقد الفريد والأندلسية الأدبية : ٢٥٩ .

(٢) الألفاظ : ١٨ ، ٤٣٤ مكتبة الحياة ببيروت .

في الخاطر ، وجلالا في الفرض وروعة في الأسلوب^(١) ، وكانت الجارية الأندلسية مثار الفتنة والسحر ، وأضفت فتنها وسحرها على درر أدبها لجاء مبهراً للعين ، ومستولياً على الوجدان ومسيطرأ على القلوب ، ولو أن المرأة العربية المتحضرة ، اهتمت برواية الشعر والأدب من منبعها الصافي البادية لانعكس أثر ذلك على أدبها ، كما أنها لو أخذت تراث البادية ، وصقلته على غرار الحضارة وغذته بماء ، النعيم لآلت بأطيب الثمرات^(٢) في نثرها وشعرها

نماذج لنثر الجوارى

كتبت عريب :

« بنفسي أنت وسمي وبصري ، وكل ذلك لك ، أصبح يومنا هذا طيباً ، طيب الله عيشك قد احتجبت سماؤه ، ورق هواؤه ، وتكامل صفاؤه ، فكأنه أنت في رقة شمالك ، وطيب محضرك ، لا فقدت ذلك منك ، سرك الله وحفظك »^(٣) .

وللاحظ أن رسالة عريب نحت منحى الإيجاز واتخذت طريق الازدواج والتوازن في كتابتها شأن الكتابة في هذه الفترة ، وفي موسيقاها أثر من آثار البيئة الأندلسية التي أكسبت الرسالة دقة وتهذيباً وجمالاً .

وكتبت ظريفة :

« جفوتنا من غير استحقاق الجفاء ، وملت إلى غير مذاهب الظرفاء ، وإن لم أزل واثقة بإخائك ، راجية لحسن وفائك ، وتحقيق ظن مؤمالك أولى بك من الوقوف على تجنبك »^(٤) .

(١) المرأة العربية ج ٣ نفس المصدر والصفحة .

(٢) الأندلسية الأدبية : ٢٥٩

(٤) الظرفاء والفحاذون في بغداد وباريس ص ٨٤

فهل هناك ألف من هذه المعاقبة ، وأسلم من هذا الكلام ، وأروع من هذا الأسلوب ، ويلاحظ أنها سلكت نفس الطريقة التي سلكتها صاحبها عريب ، إيجاز ، وقصر فقرات ، وظهر فيها التوازن والازدواج .

وقد بلغت السكابة غرضها دون تكلف ومعاناة في رسالة قصيرة بليغة عرضت فيها ، شكاتها وعائبت وأملت ووبخت ، فكان لها ما أرادت بالقول اللطيف والعبارة المهذبة ، والكلمة المعبرة ، والعاطفة الدافقة الفياضة (١) .

وكتبت عريب للكاتب الكبير إبراهيم بن المدبر ، وقد بلغها أنه صام يوم عاشوراء :

« قبل الله صومك ، وتلقاه ببليغك ما التقت ، كيف ترى نفسك نفسي فداؤك ، ولم كدرت جسمك في آب أخرجه الله منك في عافية ، فإنه فظ غليظ وأنت محرود ، وإطعام عشرة مساكين أعظم لأجرك ، ولو علبت لصمت صومك مساعدة ، وكان الصواب في حسنائك دوني ، لأن نيتي في الصوم كاذبة (٢) .

وهي رسالة وجيزة بليغة ، وبلغ من بلاغتها أن ذكرت أمام الكتاب فقال وما يمنعها من ذلك وهي بنت جعفر بن يحيى (٣) .

والتوازن والازدواج صورة بارزة في الرسالة ، وجاءت في عبارات سهلة ، وألفاظ واضحة لا تكلف فيها ، ولا غموض ، ومعان سائغة ، ولكنها أضمت لغة وأدنى أسلوباً من مثيلاتها الجاريات البدويات كما بينا ذلك آنفاً .

(١) انظر الأندية الأدبية : ٢٦٠

(٢) الأغانى ١٥ : ٢٥٥ دار الفكر ببيروت

(٣) الأغانى ٨ : ١٧٨ (مطبعة ساس)

المشكلة بالقرآن

وتقدم لنا كتب التراث العربى هذه الصورة الطريفة للسيدة المؤمنة التى آلت على نفسها ألا تتسكّم إلا بالقرآن الكريم يرويها عبد الله بن المبارك^(١) على أنها واقعة حقيقية حدثت له بعد انتهائه من الحج والزيارة . فيقول :

« خرجت حاجاً إلى بيت الله الحرام وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام فبينما أنا فى بعض الطريق إذ أنا بسراد ، فتدبرت ذاك فإذا هى عجوز عليها درع من صوف وخمار من صوف .

فقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته .

ف قالت : سلام قولاً من رب رحيم .

ف قلت لها : يرحمك الله ما تصنعين فى هذا المكان ؟

قالت : « من يضل الله فلا هادى له » .

ف علمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها : أين تريدين ؟

قالت : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد

الأقصى » .

ف علمت أنها قد قضت حجبها وهى تريد بيت المقدس .

(١) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء ، التميمى الروضى أبو عبد الرحمن الحافظ ، شيخ الإسلام ، المجاهد التاجر صاحب التصانيف والرحلات ، ألقى عمره فى الأستار حاجاً ومجاهداً وتاجراً ، وجمع الحديث والفقه ، والرياسة وأيام الناس والشجاعة والسخاء ، وهو من سكان خراسان ومات (بهيت) ، (على الفرات) منصرفاً من غزو الروم . له كتاب فى الجهاد وهو أول من صنف فيه ، والرقائق مخطوط ، توفي ١٨١ هـ ٧٩٧ م (انظر « الأعلام » للزركلى ، ود لتتنا الجيلة ، لفاروق شوشة .

فقلت لها : أنت مذكم في هذا الموضع ؟

قالت : « ثلاث ليال سويا » .

فقلت : ما أرى معك حماماً تأكلين ؟

قالت : « هو يطعمني ويسقين » .

فقلت : فبأي شيء تتوضئين ؟

قالت : « فإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً » .

فقلت لها : إن معي طعاماً فهل لك في الأكل ؟

قالت : « ثم آتوا الصيام إلى الليل » .

فأدركت أنها صائمة فقلت لها : ليس هذا شهر رمضان !

قالت : « ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم » .

فقلت : قد أبيع لنا الإفطار في السفر .

قالت : « وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون » .

ولما وجدت أنها لا تتكلم إلا بالقرآن الكريم قلت لها : لم لا تكلميني
ولما أكلتك ؟

فقالت : « ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد » .

قلت : « فمن أي الناس أنت ؟

قالت : « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل
أولئك كان عنه مسؤولاً » .

فقلت : قد أخطأت فاجعليني في حل .

قالت : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم » .

قلت : فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة ؟

قالت : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله » ،

يقول عبد الله بن المبارك فأخذت ناقتي .

قالت : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم » .

فغضضت بصرى عنها وقلت لها اركبي فلما أرادت أن تركب قفرت
الناقة فرقت ثيابها .

فقالت : « وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم » .

فقلت لها : اصبرى حتى أعقلها .

قالت : « ففهمناها سليمان » .

فمقلت الناقة وقلت لها : اركبي .

فلما ركبت قالت : « سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين
وإننا إلى ربنا لمنقلبون » .

فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسمى وأصيح .

فقالت : « واقصد فى مشيك واغضض من صوتك » .

فجعلت أمشى دويداً ودويداً وأترم بالشعر .

فقالت : « فافروا ما تيسر من القرآن » .

فقلت لها : لقد أوتيت خيراً كثيراً .

قالت : « وما يذكر إلا أولو الألباب » .

فلما مشيت بها قليلاً قلت : ألك زوج ؟

قالت : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » .

فسكت ولم أكلمها حتى أدركت بها القافلة فقلت لها : هذه هى القافلة
فن لك فيها ؟

فقلت : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » .

فعلت أن لها أولاداً ، فقلت : وما شأنهم في الحج ؟ .

قالت : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون »

فعلت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها القباب والعمارات فقلت : هذه

القباب فن لك فيها ؟ .

قالت : « واتخذ الله إبراهيم خليلاً ، وكلم الله موسى تكليماً يا يحيى ،

خذ الكتاب بقوة ، فناديت : يا إبراهيم يا موسى يا يحيى ، فإذا أنا بشبان

كأنهم الأقمار قد أقبلوا ، فلما استقر بهم المجلس قالت : .

« فابثوا أحدهم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم

برزق منه » .

ففضي أحدهم فاشترى طعاماً ، فقدموه بين يدي .

فقلت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » .

فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تغفروني بأمرها .

فقالوا : هذه أمانة وإن لها أربعين سنة لم تنكلم إلا بالقرآن مخافة أن

تزل فيسخط عليها الرحمن . فسبحان القادر على ما يشاء .

فقلت : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

دراسة وتعقيب

وفي حديث للراة الذي نقله لنا عبد الله بن المبارك يقدم لنا دليلاً

ملبوساً على نبوغ للراة العربية وقوة عارضتها ، وبلاغة منطقتها ، ودقة تمثيلها

بالآيات الحكيمة ، وللخل القرآنى .

فقد أرتنا سمو القرآن ، وعظمته الأدبية ، وقوته البائية بما يزخر من

قوة التصوير ودقته وإحكامه ، فليس هناك تصوير أجمع لأطراف المعنى ،
وأشد مداخلة للإحساس وأبلغ إثارة للشاعر من تصوير القرآن الكريم .

والمنسكمة بالقرآن ، ساقط لنا عن طريق عبد الله بن المبارك درراً غالية ،
ولآلى ثمينة ، وأمثلة رائعة ، ولا تخفى على السامعين قيمة التأثير المثل ، وأثر
الآية الحكيمة في النفس وكيف يودعان في التعبير من الجمال والأسرار
ما يسمو بالمعنى ويصل إلى الغرض منه .

والأمثلة والحكم التي ساقها المرء المنسكمة بالقرآن كلها أمثلة غير
صريحة ، فقد جاءت أمثلة كامنة مطوية وهي تمثل الآيات القرآنية التي
لم يصرح فيها بلفظ المثل ، وإنما يفهم من معناها ما يدل على أنها تعاضى من
من الأمثلة المعروفة عند العرب ^(١) .

فقد حوت القطعة النثرية صوراً عظيمة من أمثلة القرآن : « ومن يضل
الله فإله من هاد » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، « ما يلفظ من قول إلا لديه
رقيب عتيد » ، « واقصد في مشيك واغضض من صوتك » ، « وما يذكر
إلا أولوا الأبواب » ، « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم
تسؤلكم » ، « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ، « وعلامات وبالنجم
هم يهتدون »

وهذه من أمثلة القرآن الرائعة التي تمثل فيضاً من أسلوب القرآن المعجز الذي
تحدى العرب وهم قد تسنموا ذروة البلاغة ، وبلغوا في الفصاحة أوج السكال .
وقد حوى القرآن أمثلة كثيرة ، بحيث إنك لا تجد في الغالب والكثير
مثلاً أو حكمة عند العرب أو المعجم إلا ولهما نظيرهما في القرآن الكريم ،
وقد سئل أحد الحكماء :

(١) القرآن إعجازه وبلاغته ، المطبعة النورانية : ٨٠ دكتور عبد القادر حسين

إنكم ترحمون أن القرآن قد حوى أمثال العرب والمعجم ، فهل نجد في كتاب الله (أنتى شر من أحسنت إليه) فقال أجل ، وما نقموا إلا أن أغنام الله ورسوله من فضله ، قال : فهل نجد : (كما ندين نذان) ؟ قال في قوله تعالى : « من يعمل سوءاً يجز به » (النساء ١٢٣) .

قلت : فهل نجد فيه : (لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين) ؟
قال : « هل آمنكم عليه إلا كما أمتكم على أخيه من قبل » (يوسف ١٤) .
قلت : فهل نجد (من أتان ظالماً سلط عليه) .
قال : « كتب عليه أنه من تولاه فإنه يضله ويهديه إلى عذاب السمير » (الحج ٤) .

قلت : فهل نجد فيه قولهم : (لا تلد الحية إلا الحية) ؟
قال : « ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » (نوح ٢٧) .
قلت : فهل نجد في القرآن قولهم : (للحيطان آذان) ؟
قال : « وفيكم سمعون لهم » (التوبة ٤٧) .
ومن ذلك أيضاً قول على رضي الله عنه (القتل أنفى للقتل) . وفي القرآن :
« ولكم في الفصاحس حياة » (البقرة ١٧٩) ومن ذلك قول العامة : (من حفر لأخيه بئراً وقع فيها) ، وفي القرآن : « ولا يحرق المسكر السوء إلا بأهله » (فاطر ١٣) ، ومن ذلك (مصائب قوم عند قوم فوائد) وفي القرآن :
« وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » (آل عمران ١٢٠) (١) .

وهكذا نجد أن المرأة المتكلمة أهدت لنا باقة بلاغية وأمثلة عظيمة من القرآن الكريم .

وحبذا لو تمثل بذلك فتياتنا وأتقسن تعبيراتهن ومثلن من وحى القرآن ،
واقفدين بأسلوبه الحكيم وآهاته المعجزات .

حديث الجوارى الخمس اللاتي وصفن خيل آبائهن

قال القائل في أماليه (١) :

حدثنا أبو بكر بن دريد قال : حدثني عمي عن أبيه عن ابن السكيت عن أبيه قال : اجتمع خمس جوار من العرب ، فقلن : هل سمعن نعت خيل آبائنا .

فقلت الأولى : فرس أبي وردة ، وما وردة ؟ ذات كفل مخرجات ، ومتن أخلق ، رجوف أخوق ، ونفس مروح ، وعين طروح ، ورجل خروح ، ويد سروح ، مدهاتها لمنذاب ، وعقبها غلاب .

وقالت الثانية : فرس أبي اللصصاب ، وما اللصصاب ؟ غيبة سحاب ، واضطرام غب ، مترص الأوصال ، أشم القذال ، ملاحك الحال ، فارسه مجيد ، وصيده عتيد ، إن أقبل فظي منجاج ، وإن أدبر فظلم هذاج ، وإن أحضر فعيلج هراج .

وقالت الثالثة : فرس أبي محذمه ، وما محذمه ؟ إن أقبلت ففناة مقومة ، وإن أدبرت فأنفسية ملهمة ، وإن أعرضت فذئبة معجزة ، أرساها مترصة ، وفصرها ممسمة ، جريها اندرار ، وتقريبها انكدار .

وقالت الرابعة : فرس أبي خيفق ، وما خيفق ؟ ذات ناهق ممعرق ، وشديق أشدق ، وأديم مملق ، لها خلق أشدق ، ودسيع منفسق ، وتليل مسيف ، وثابه ذكوج . خيفانة رهوج . تقريبها إصماج ، وحذمها ارتيماج .

وقالت الخامسة : فرس أبي هذلول ، وما هذلول ؟ طريده محبول ، وطالبه مشكول ، دقيق الملاغم ، أمين المعاقم ، هبل المحريم ، غند مرجم ،

(١) ارجع إلى المزمع : ٥٣٨ جزء أول .

مئيف الحارِك ، أشمُ السنايك ، مجدول الحُصائل ، سبط القلائل ؛ غوج التليل ، صلصال الصهيل ، أديمه صاف ، وبسببه ضاف ، وعفوه كاف .

قال القالى : المَزْحَلَق : المملَس والأخلق : الأملس . وأخوق : واسع . ومروح : كثيرة المرح . وطروح : بعيدة موقع النظر ، وضروح : دفوع ؛ تريد أنها تضرح الحجة برجلها إذا تحدث . وسبوح : كأنها تسبح في عدوها من سرعتها ، وبداهتها : لجأها ؛ والبداهة والبسة واحد . والإهذاب : السرعة . والعقب : جرى بمد جرى . وغلاب : مصدر غالبت ؛ كأنها تغالب الجرى .

والغبية : الدفعة من المطر . والقاب : جمع غابة ، وهى الأجمة . ومترَص : محكم . وأشم : مرتفع . والقذال : معقد العذار . ومُلاحك : مُداخل ؛ كأنه دُخل بعضه في بعض ، والمحال : جمع محالة وهى فقدان الظهر . ومجيد : صاحب سجود . وهنيد : حاضر ، ومعاج : مسرع في السير . وهذا ج : فعال من الهدج وهو المشى الرويد ؛ ويكون السريع . والعليج : الحمار الغليظ ، وهراج : كثير الجرى .

وحُشمة : فُحْلة من الحُذم وهو السرعة ، وقيل القطع . وقولها قناه مقومة ، تريد أنها دقيقة المقدّم ، وهو مدح في الإناث ، والإنصية : واحدة الأثافي . ومُملبة : مجتمعة ؛ تريد أنها مدورة . وقولها معجزة ؛ قال أبو بكر : العجزة : وثبة كوثبة الظبي ولا أعرف عن غيره في هذا الحرف تفسيراً . وبمحصة : قليلة اللحم قليلة الشعر . وانثراد : انصباب .

وخيفق : يفعل من الخفق وهو السرعة . والناهقان : العظام الشاخصان في خدئ الفرس . ومُحرق : قليل اللحم ، وأشدق : واسع الشدق . وعَلَق : ملبس . والأشدق : العظيم الشخص . والد سبع : مركب العُنُق في الحارِك . ومنقنف : واسع . والتليل : العنق . ومسيّف : كأنه سيف ، وكزكوج : سريعة . والخيفانة : الجرادة التى فيها تقط سود تخالف سائر لونها ، وإنما قيل للفرس :

محيطانة اسرعها ، لأن الجرادة إذا ظهرت فيها تلك النقطة كان أسرع لطيرانها .
ورَهْوج : كثيرة الرَّهْج ، وهو الغبار . والإِهْماج : المبالغة في العدو .
والارتعاج : كثرة البرق وتناوبه .

ومُغْبُول : في حباله ، ومشكول : في أشكال والملاغم : الجحافل . والمعاقم :
المفاصل . وعبل : غليظ والمهزم : موضع الحيزام . وعُجْد : يَجْدُ الأرض ؛
أى يجعل فيها أعاديده أى شقوقاً ومِرْجَم : يرمم الحجر بالحجر . ومُنِيف :
مرتفع والحارِك : مَنَسَج الفرس . والسَّنابك : أطراف الحوافر ، واحدها
سُنْبُك . ومجدول : مفتول . والقليل : الشعر المجتمع ، والفوج : اللِّين
المِهْطَف . والصَّلصلة : صوت الحديد ، وكل صوت حاد ، والسَّيِّب : شعر
الناسية ، وضاف : ساين .

ولعل هذا الطرف الذى قدمناه فى أدب الجوارى يدل على مدى ما كان ابن
من مواهب أدبية خلقة ، وأسهم بإنتاجه مساهمة كبيرة ظهر أثرها واضحاً فى
الأدب العربى كله ، كما أثّر فى شخصيات الآخرين من رواد مجاله من ، وأصحاب
الأنديّة ومجالس الأدب تأثيراً عظيماً برز فيما كان من هؤلاء من إنتاج أدبى رائع ،
ما كان ليصدر عنهم لولا ما أثّر فيه من كوامن العاطفة ومشاهير المرافقة ،
وما كان متهن من جميل القول ودرر النثر مما أثار إعجاب الخلفاء والأمراء
واستولى على لب الأدباء ؛ فكان من هؤلاء وأولئك ، أدب ساحر ، وتنش
عذب ، تودد للجوارى ومجاراة لهن فى الميادين الأدبية المختلفة .

وما أثر هنن من إنتاج لا يقل جودة وإتقاناً عما أثر من غيرهن من كتاب
وأدباء ، وبصرف النظر عما أحاط بهن من ظروف قاسية ، كانت تقسو عليهن

إلى درجة تشويه سمعتهم ، وزعزعة مراكرهم ، وتقليص شخصياتهم ، وإلحاق كل ما هو شائن معيب بهم .

ومع ذلك فقد استطعن بما توفر لهن من ثقة بالنفس ومواهب أدبية وثقافية أن يثبتن في حلبة الصراع ، فإذا كن قد خسرن معركة الحرية الشخصية والكرامة وفقدن كيانهن كنساء محترمات موقرات ، فقد فجرن طاقتهن فيما أتبع لهن من فرص ، فربحن معارك الفن والأدب ^(١) .

(١) الأندية الأدبية ص ٢٦٠ .

خاتمة

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن قبل أن نضع اللمسات الأخيرة لكتابتنا (أدب النساء) فى الجاهلية والإسلام . هذا السؤال هو : لماذا قل نثر النساء وتناجن الأدبى فى فتراته المختلفة وبخاصة فى العصر الجاهلى — باستثناء العصر الحديث الذى نهضت فيه المرأة كاتبة وشاعرة ومفكرة وقصصية ، وخطيبة ومحاضرة ومناظرة .

ورداً على تلك التساؤلات نقول :

١ — فى العصر الجاهلى لم تسكن هناك الإمكانيات المتاحة التى تهيء لظهور هذا الفن النسائى (النثر الفنى) فالرواة كان جل اهتمامهم منصباً على رواية الشعر وحفظه ، لحب العرب للشعر وتعظيمهم للشاعر ، لأن العرب أمة شاعرة يمتزجون بشعرهم ويتخذونه الوسيلة لتخليد ما تروم والإشادة بفضائلهم فهو عندهم كالأثار المشيدة التى خلفتها بعض الأمم ،^(١) وقد سارحوا إلى حفظه — دون النثر — لأنه أسير على الزمن وأبقى على الدهر ، ولأنه أسرع فى الاستظهار والحفظ من النثر ، إذ النفس إليه أميل والفؤاد به أشد علوقاً ، وأكثر رغبة لارتباطه بالموسيقى والغناء لكونه منهما ، بخلاف النثر الذى تجرد من هذا الارتباط بالموسيقى ، فهو معرض للنسيان والترك ، فتراكيه غير منممة ولا تعطى رواته فرصة الترجم والتغنى به ، مما جعله لم يعمر طويلاً ، أما الشعر فعمره أطول لسهولة حفظه والتغنى به .

٢ — ودبما ترجع قلة النثر الفنى النسائى إلى أن الرواة فى عصر الجمع والتحصيل

كانوا حراساً على الغريب فسكانوا يأخذون عن الأعراب لأنهم يقدرون في الشعر قيمته اللغوية^(١) ولم يحفلوا برواية نثر النساء وبما لفته غريبه ، أو لأن فيه ليناً وضعفاً فعدلوا عنه إلى الشعر ولم يعباؤا به .

٣ - لم تكن هناك الوسائل الكافية التي تجمع على تسجيل الكتابة النسائية ، أو النثر الفني النسائي ، فبالرغم من أن الكتابة كانت معروفة في العصر الجاهلي ولكن الأدوات الكتابية كانت بدائية وغير ممكنة التداول وليس هناك من الوسائل الحديثة التي تساعد على انتشارها وتدوّلها وتنتاقها الأجيال تلو الأجيال ، وحتى لو وجدت هذه الوسائل فليس هناك - كما قدمنا - من يشجع النثر ، فالاهتمام كله بالشعر والصمراء لأن الشاعر لسان قبيلته يذيع مجامعها ، ويهجو خصومها ، ولم تكن المرأة لتقوم من القبيلة هذا المقام ، لذلك قل نثر النساء وكثر شعر الرجال .

٤ - النثر بصفة عامة كان قليلاً جداً لأن العرب استخدموا الكتابة في العصر الجاهلي لأغراض سياسية وتجارية ، ولكنهم لم يخرجوا بها إلى أغراض أدبية عالية^(٢) تتبع لنا أن نذهب أنه وجد عندهم نوع من العناية الفنية . ويرى الجاحظ أنهم كانوا يكتبون بعض عهدهم السياسية ، وكانوا يسمون تلك العهد (المبارق)^(٣) .

ويقول الدكتور شوقي ضيف ومما لا شك فيه أنه لا يوجد تحت أيدينا وثائق نستطيع أن ندعى بها أن الجاهليين عرفوا الكتابة الفنية ، إنما الذي نستطيع أن ندعيه أن لهم حقاً عن طريق الوثائق الصحيحة ، هو الأمثال ، فقد أكثروا من ضربها ، وقد سلبت لنا طائفة واسعة من الأمثال تافلتها الرواة

(١) نفس المصدر ٥٠٦ (٢) الفن ومذاهبه في النثر الفني .

(٣) الحيوان ١ : ٦٩ .

جيلا بعد جيل مما أتاح لها أن تحتفظ بصورتها الجاهلية ، ومعروف أن الأمثال لا تتغير بل تظل طويلا على هيئتها اتى صيغت عليها .

وأما الخطابة وجمع الكهان فصاعت نصوصهما إلا قليلا جداً ، إذ بقيت بعض قطع ، وبعض صيغ متشورة في ثنايا الكتب التاريخية والأدبية .^(١)

وإذا كان النثر بصفة عامة قليلا جداً كما بينا ، كان النثر النسائي العفى بصفة خاصة أقل من ذلك بكثير فضلاً عن العوامل الأخرى التي كانت سبباً في قلته وضآلته ، وقد أشرنا إلى ذلك آنفاً .

• - ارتبطت المرأة العربية بالشعر والغناء لأنهما يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، وبواعث الغناء هي بواعث الشعر « وللموسيقى أساس الشعر فهما عنصران أساسيان يكمل كل منهما الآخر ، والنساء ألبق باحتراف الغناء من الرجال لأنهن في الغالب أهدى صوتاً وأحلى ترجيماً ، وأرق نغمًا ، ولأن لجامهن وأنوثتهن أثرًا في الطرب لهن ، وقد ذهب الجاحظ إلى أن « الغناء المطرب في شعر القزل من حقوق النساء » ، ويلبغى أن تغنى بأشعار القزل والتشبيب والعشق والصبابة النساء اللواتي فيهن نطق تلك الأشعار ، وكم بين أن نسمع الغناء من فم تشهى أن تقبله ، وبين فم تشهى أن تهرف وجهك عنه ؟ على أن الرجال دخلاء على النساء في الغناء ، كما رأينا رجالاً ينوحون فصاروا دخلاء على النوائح ، وبعد فأبما أحسن وأملح وأشهى أن يغنيك لحن ملتحف اللحية كثر الدارضين ، أم شيخ منخلع الأسنان مغمض أوجه ؟ أم تغنيك جارية كأنها طاقة زرجس ، أو كأنها باسجينة ، أو كأنها خرطت من ياقوتة أو من فضة مجلوة^(٢) .

(١) المتن ومذاهب في النثر العربي ٢٠

(٢) رسالة العشق والنساء ١٦٥ نقلًا عن المرأة في الشعر الجاهلي ٥٦ .

(٣) نفس المصدر السابق .

لذلك نجد أن ميل النساء إلى الشعر والغناء أكثر من ميلهن إلى النثر وتدييح الإنشاء وبالتالي فإن الرواة أحيوا روايتهما وترديدهما، والرواية عربي يهزه تغريد الطيور ويأسره هديل الحمام ، وهذا هو السر الذي حفظ تراث الغناء والشعر وأعمل النثر التساني ، حتى أن هناك كتباً كثيرة ألقت في الغناء والشعر - وأهمها وأخدها كتاب الأغانى لأبي الفرج الأصفهاني .

٦ - نلاحظ أن أشعار النساء التي نقلتها إلينا الرواة قصائد قصيرة بجمالها أو مقطوعات ، والأظهر أن طبيعة النساء لا تساعدن عادة على إطالة القصائد ، حتى في قصائد الرثاء الذي هو الفن الأقرب لأذواقهن ، فلا نجد لواحدة منهن قصيدة تضارع قصيدة أبي ذؤيب الهذلي في طولها ومتانتها أو مراثية كعب بن سعيد الغنوي ، ولهذا نجد في الكتب التي عثيت باختيار القطع القصائد الخمسة أبي تمام مقطوعات لبن (١) ، وهذا يدل على ضآلة القعدة الشعرية عند النساء ، وضيق نفسهن في هذا المجال ، وإذا قصر بعضهن في المجال الشعري كن في مجال النثر أشد قصوراً وأقل إنتاجاً .

٧ - وفي ظل الإسلام الحنيف ، نشطت المرأة نشاطاً ملحوظاً ، فروت الأحاديث وكانت عضواً فعالاً في نشر رسالة الإسلام السمحاء وأحكام الدين ورفع منار السنة الغراء ، فروت الحديث عن النبي ﷺ كالسيدة عائشة رضي الله عنها ، فلقد كانت عاملاً كبيراً ذا تأثير حيوي في نشر تعاليم الرسول ﷺ والتضاني في إعلاء كلمة الله لتخفق دابته على الخافقين .

وأمر خطير كهذا يتطلب استعداداً خطابياً وأديباً ، يؤهلن لالتحام هذا الميدان الجديد .

ولا شك أنه كان لهن دوائع ثرية واستعدادات أدبية وتراث أدبي كبير

ولكن الظروف التي مرت بها الدولة الإسلامية ، وحروب التتار والمغول ربما أضاعت هذا التراث .

فلا يعقل أن يكون للسيدة عائشة وهي وارثة البلاغة النبوية ، هذه الخطب المحدودة القليلة التي وردت إلينا كما لا يعقل بأى حال أن تجمي خطاب الشيعيات أنصار على قليلة وقصيرة . ولا يخفى أن هذه الفترة التي عاصرت الشيعيات اتسمت بالنشاط والازدهار ، وقوى فيها هذا اللون من الخطابة التي تقوم على الحوار والمناظرة ، وتفرق الحكم إلى مذاهب شتى وأحزاب مختلفة ، كل يدافع عن مبدئه وعقيدته التي يؤمن بها .

٨ - من سمات الأدب الحرية والتنقل من مكان إلى مكان المحذور « الصالونات الأدبية » ومشاهدات اللقنمات الشعرية والمنتديات الفكرية ، والإسلام حينها جاء وضع المرأة في إطار شرعى ملتزم ، فهي محبة ممنوعة من التحدث مع الرجال إلا من وراء حجاب ، كما أنها شغلت بأمر دينها ومتنصرته ، وهذه العوامل تحد من نشاطها الأدبي وتقلل من إنتاجها الثرى .

وفي جهود المولدين والمحدثين وبخاصة في الأندلس شاع الغناء والطرب والشعر ، ولا يخفى الارتباط الوثيق بين الشعر والغناء ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة .

وكما بينا أن المرأة أميل للغناء ، وما الغناء إلا مقطوعات من الغزل تلتشد في قصود الخلفاء ، وتغنى في مقاصير الأمراء ، في سبيل نيل الخطوة والظفر بالأعطيات والأموال ، فمماهدنا تنافساً بين النساء وبخاصة القينات على إجادة هذين الغنين : الغناء والشعر وبخاصة شعر الغزل ليبلغن بهما عند الخلفاء منزلة لا تسامى وحفوة لا ترام ، وزلنى لا تنال ، وقد بلغ من تفوقهن في فن اللحن أنهن كن يعلمته أبناء الفرقة ، كل على حسب لغته ، وصارت الأندلس معهداً

(١٣ - أدب النساء)

للغناء والشعر ، يأتي إليه راغبو التعليم من كل فج عميق .
إذا عرفنا هذا وصلنا إلى السر في قلة نتاجين الأدبي ، وكثرة إنتاجين الغنائي
والشعري وبخاصة في هذه المرحلة .

٩ - يضيف الدكتور الحوفي رحمه الله عاملاً آخر يسوقه تليلاً آخر
لقلة نتاج المرأة الأدبي ، ويرجع ذلك إلى لون من التعصب ؛ فقد ضرب المثل
ببعض الشعراء في إجادة فنون خاصة ولم يضرب بالخنساء في إجادتها للرثاء ،
وإيتاد ابن سلام لمتنهم بن فورية في الرثاء مع وجود غيره من الشاعرات ، ومثل
هذا كثير في كتب الأدب .

(تم الكتاب بحمد الله - القسم الأول : النثر ،)

(ويليه بمون الله - القسم الثاني : أشعار النساء ،)

(وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)

أهم المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم
- ٢ - الحديث النبوي الشريف
- ٣ - الأغاني - أبو الفرج الأصبهاني - هيئة الكتاب - مصر
- ٤ - تحت المصباح الأخضر - توفيق الحكيم - مكتبة الآداب - مصر
- ٥ - المرأة في الشعر الجاهلي - د / علي الهاشمي - دمشق
- ٦ - ديوان طرفة - هيئة الكتاب - مصر
- ٧ - شعراء النصرانية - لويس شيخو - مكتبة الآداب - مصر
- ٨ - حضارة العرب - جوستاف لوبون - عيسى الحلبي - مصر
- ٩ - الإصحاح - بيروت
- ١٠ - المرأة في الشعر الجاهلي د / الحوفي - مطبعة نهضة مصر
- ١١ - تحرير المرأة - قاسم أمين - بيروت
- ١٢ - صبح الأعشى - هيئة الكتاب - مصر
- ١٣ - قصة الحضارة - زكي نجيب محمود - لجنة التأليف والترجمة - مصر
- ١٤ - المرأة العربية - عبد الله عفيفي - دار الكتب المصرية - مصر
- ١٥ - الخطابة لأرسطو - إحسان عباس - بيروت
- ١٦ - الخطابة في صدر الإسلام - دار المعارف - مصر
- ١٧ - الأدب الجاهلي - د / محمد بدر وزميله - مطبعة المنار بالرياض
- ١٨ - الوسيط - أحمد الاسكندري وآخرون - دار الكتب - مصر
- ١٩ - جمهرة خطب العرب - أحمد زكي صفوت - مصطفى الحلبي - مصر
- ٢٠ - العقد الفريد - لابن عبد ربه - لجنة التأليف والترجمة - مصر
- ٢١ - مجمع الأمثال - للبيدائي - بيروت

- ٢٢ - جبهة الأمثال - للعسكري - بيروت
٢٣ - البيان والتبيين - الجاحظ - الخانجي - مصر
٢٤ - بلاغات النساء لابن طيفور - بغداد
٢٥ - الأمالي - القالي - دار الكتب - مصر
٢٦ - ذيل الأمالي - القالي - دار الكتب - مصر
٢٧ - الكامل - للبرد - بيروت
٢٨ - سرح العيون - لابن نباتة - بيروت
٢٩ - لسان العيون - للحلي - المطبعة المصرية - مصر
٣٠ - خزنة الأدب للبغدادي - الخانجي - مصر
٣١ - الوصف في شعر للتني - متولى القاسم - مجلة دار العلوم - مصر
٣٢ - صور البديع - د / علي الجندی - مكتبة الشباب - مصر
٣٣ - شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدر - بيروت
٣٤ - الحكم والأمثال - دار المعارف - بمصر
٣٥ - الجديد في الأدب العربي - لجنة تربوية - بيروت
٣٦ - تطویر الأساليب النظرية - المقدسي - بيروت
٣٧ - النصوص المقررة - عبد الفتاح لاشين وآخرون - الأهرام - مصر
٣٨ - الفن ومذاهبه في النثر العربي - د / شوقي ضيف - دار المعارف - مصر
٣٩ - صحيح مسلم ، صحيح البخاري - مطبعة الشعب - مصر
٤٠ - سبل السلام - للزيدي - مطبعة الرياض
٤١ - نهاية الأرب - النويري - هيئة الكتاب - مصر
٤٢ - العملة - لابن رشيق - بيروت
٤٣ - الخطب والمواعظ - محمد عبد الغنى حسن - دار المعارف - مصر
٤٤ - الحياة الأدبية - د / خفاجي - مؤسسة ومكتبة خدمة العلم بالرياض

- ٤٥ - أسلوب المحاوره - د/ عبد الحليم حفي - مصر
٤٦ - الصناعتان - لآبي هلال المسكري - بيروت
٤٧ - دائرة معارف مجلة المعرفة - مؤسسة الأهرام - مصر
٤٨ - الأدب العربي في العصر العباسي - د/ محمد بلد - الأهرام - مصر
٤٩ - الحيوان - الجاحظ - عيسى الحلبي - مصر
٥٠ - الأندبة الأدبية في العصر العباسي - الهاشمي - بيروت
٥١ - المزه - جلال الدين السيوطي - عيسى الحلبي - مصر
٥٢ - الظرفاء والشعاعون في بغداد وبابيس - بيروت
٥٣ - الأعلام - الزركلي - بيروت
٥٤ - القرآن إعجازة وبلاغته د/ عبد القادر حسين - مصر
٥٥ - لغتنا الجميلة - فاروق شوشه - مكتبة مدبولي مصر
٥٦ - القاموس المحيط - بيروت
٥٧ - تاج العروس في شرح القاموس - بيروت
٥٨ - مرآئ شعراء النصرانية - لويس شيخو - بيروت
٥٩ - أعلام النساء - عمر رضا كحالة - بيروت
٦٠ - الهد المنثور - زينب فواز - بيروت
٦١ - شاعرات العرب - عبد البديع صقر - المكتبة الإسلامي - قطر

المحتوى

صفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٩	تمهيد
١٣	في العصر الجاهلي
١٦	الوصايا
٢٢	الوصف
٥٦	أدب الكواهن
٥٩	خطب الكواهن
٨٣	الحكمة والمثل
٩٣	النثر في العصر الإسلامي وبني أمية
١١٩	خطب المناظرة
١٣٥	أسلوب المتحاورات
١٤١	المتحاورات مع معاوية
١٥٤	الأدبيات في العصر العباسي والاندلس
١٦١	نماذج للنثر في هذا العصر
١٧٥	نثر الجوادى
١٧٩	المنكلمة بالقرآن
١٨٥	حديث الجوادى الخمس
١٨٩	خاتمة
١٩٥	أهم المصادر والمراجع

كتب المؤلف

- الأدب في العصر الجاهلي - الأهرام مصر
- الأدب في صدر الإسلام وبنى أمية - الأهرام مصر
- الأدب في العصر العباسي - الأهرام مصر
- محاضرات في الأدب والنقد - الأهرام مصر
- البحث الأدبي
- دراسات حول النصوص الأدبية - الأهرام مصر
- نزهة الجلوساء في أشعار النساء - مطبعة الأمانة

تحت الطبع

- أشعار النساء في الجاهلية والإسلام
- شعر المرأة في العصر الحديث
- شعراء الأزهري في العصر الحديث
- دراسة تحليلية لكتاب فن الشعر لأرسطو
- محمد بن عبد الوهاب وأثره في الحياة الأدبية

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٩٩٨ / ١٩٨٣

الترقيم الدولي — ISBN ٩٧٧

طبع بمطبعة مكتبة الآداب المطبعة النموذجية

09

7

.